النص الكامل
بدون حذف

الكتاب الذي
اودى بحياة مؤلفه

كَلِيلَة وَدِمْنَة



تحقيق
زياد كاظم

آشور

كَلِيلَة ودِمْنَة

كَلِيلَة ودِمْنَة

ترجمة : عبد الله بن المقفع

تحقيق : زياد كاظم

الطبعة الاولى : 2020

تصميم الغلاف والتنسيق الداخلي: ريم ثامر

الترقيم الدولي: 978-9922-627-11-3

العراق - بغداد - شارع المتنبي

هاتف: 009647706565807

لمراسلة الدار: darashurbanipal@gmail.com

ashurbanipal_books

ashurbanipal.bookstore

تاريخ

كَلِيلَة ودِمْنَة

نقله الى العربية

عبد الله بن المقفع

تحقيق

زياد كاظم

المقدمة

في أواسط العقد الثالث من القرن العشرين، أثار عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين موجة غضب عارمة في الأوساط الثقافية والأكاديمية التقليدية، وذلك بعد نشره لكتابه (في الشعر الجاهلي)، تصدىٰ للرد علىٰ هذه الدراسة في حينها العديد من مشاهير حملة القلم في مصر وبلدان عربية أخرىٰ، وكان من بينهم مصطفىٰ صادق الرافعي، والذي وضع بهذا الصدد مجموعة من المقالات قام بجمعها بين دفتي كتاب كان عنوانه (تحت راية القرآن)[1]، في معرض رده علىٰ طه حسين يقول الرافعي: (عندي نسخة من كتاب «كليلة ودمنة» ليس مثلها عند أحد، ما شئتُ من مَثَل إلا وجدته فيها)[2]، وعاد في صفحات أخرىٰ من كتابه هذا كي يقول عن نسخته تلك: إنها (نسخة عتيقة، وقد قلت إنه ليس مثلها عند أحد غيري، وأنه لا تأبىٰ عليها حكمة ولا تهولها حادثة ولا يتعاظمها مَثَل)[3]، هذا الوصف الذي ساقه الرافعي لنسخته جعل في حينها -والكلام نقلاً عن لسانه- جعل من بعض (الأفاضل من العلماء، والكتاب يسألون عن نسختي من «كليلة ودمنة» ويطلبون إليَّ أن لا أكتمها عنهم ولا أستبد بها من دونهم ... وقال أديب فاضل إنه سيدل وزارة المعارف علىٰ هذه النسخة لتنتزعها مني ولو بمثاقلتها ذهباً! فإنه -زَعم- لا يجوز أن يبقىٰ هذا الكنز «لتوت عنخ الرافعي». وقد ملكت الأمة كنز توت عنخ آمون!)[4]، واستبد الأمر بمعاصري الرافعي في مطالبته بإشهار نسخته المتميزة من هذا الكتاب حتىٰ اشتكىٰ من أن بعض الناس آذوه وأضجروه (إذ جعلوا

(١) رجعت في هذه المقدمة إلىٰ نسخة الكتاب المذكور الصادرة عن المكتبة العصرية، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠٠٢.

(٢) الرافعي، الكتاب المذكور، ص ١٣٤.

(٣) الرافعي ص ١٧٨.

(٤) نفس المصدر ص ٢٢١.

نسختي من «كليلة ودمنة » أكبر همهم من الأدب وأكثرَ قولهم في الكتابة، فأنا كل يوم أتلقىٰ من كتبهم ما لا أقضي منه عجباً)[٥]، السطور السابقة التي نقلناها كما وردت في كتاب الرافعي، تدفعنا للسؤال التالي: ما الذي يجعل نسخة ما من كتاب نُقل إلىٰ العربية منذ أكثر من ألف سنة تتميز عن غيرها من النسخ حتىٰ تثير كل هذا الاهتمام بمجرد التصريح بوجودها؟ أو ما الذي من الممكن أن يجعل من بعض نسخ هذا الكتاب دون غيره من أمهات التراث بمثابة كنوز سرية يستأثر بها صاحبها عن بقية الخلق، وتجعل من السلطة ترغب بمبادلتها حتىٰ لو بوزنها ذهباً؟ وغير ما سبق تثير سطور الرافعي السابقة الكثير من الأسئلة الخفية التي تحوم حول تاريخ هذا الكتاب، نحن وبلا جدال نتفق مع الرافعي علىٰ أن ما تزخر به المكتبات العربية اليوم من نسخ من كتاب كليلة ودمنة يختلف بعضها عن البعض الآخر بتفاصيل تتباين من طبعة إلىٰ أخرىٰ[٦]، ولكن لا نسير في درب المغالاة الذي سلكه صاحبنا هذا، فنقول بوجود نسخة أو طبعة تكاد أن تختلف جملة وتفصيلاً عن سواها، وكذلك لا ندعي وجود نسخة سبقت الزمن كما هو الحال مع نسخة الرافعي، والذي يزعم أنه وجد في نسخته القديمة النادرة تلك إن سمكة أقنعت نفسها بأن البحر هو ميراثها من أجدادها، لذا لما شاهدت الأسطول البحري البريطاني يمخر عباب الموج قررت أن تحاربه[٧]، فيما معلوم أن في وقت كتابة كليلة ودمنة في بلاد الهند وحتىٰ في زمان رحلته منها الىٰ بلاد فارس لم يكن لبريطانيا أسطول بحري بلغ الهند أو بلاد فارس، بل ربما يوجد أي ذكر في كتب تلك الدول لأرض تدعىٰ بريطانيا! نعود إلىٰ سؤالنا الأول، ونكرر: ما الذي يجعل من كتابنا هذا يتباين في محتواه من طبعة إلىٰ أخرىٰ؟ كي نقف علىٰ جواب لهذا السؤال لا بد لنا من الرجوع إلىٰ تاريخ هذا الكتاب كما وثقت له المصادر

(٥) نفس المصدر ص ٢٥٢.
(٦) بلغت درجة الاختلاف بين طبعات كليلة ودمنة المتفرقة، والتي تتوفر اليوم في المكتبات إن بعضها لا يصلح أن يقال عنه إلا أنه كتاب أطفال يحكي قصص خيالية على ألسنة بعض الحيوانات!
(٧) المصدر السابق ص ١٣٤

الإسلامية الكلاسيكية وكذلك الدراسات الغربية والعربية الحديثة، فنقول في بداية البحث عن الجواب ومن دون تردد: إن أول ذكر ورد لكليلة ودمنة في التوثيق العربي ترك في الذاكرة الإسلامية جرحاً فاغراً، وربما كان هذا الجرح من بين أسباب تشويه النص الأول الذي تم تعريبه من هذا العمل، والسعي لطمس هويته الأولىٰ وإبدالها بأخرىٰ، وهو ما جعل من الكتاب في المحصلة الأخيرة يُنشر وبعض نسخه مبتورة ومشوهة عن قصد، وأخرىٰ كاملة أو شبه كاملة(٨)، فبوفق المصادر العربية التي أرخت لبدايات دعوة الإسلام ترجع جذور العلاقة بين كليلة ودمنة والذاكرة الإسلامية الىٰ مرحلة تاريخ الإسلام المبكر، وتحديداً أثناء حياة النبي محمد، إذ نجد في بعض كتب السيرة النبوية (إن النضر بن الحارث كان في بلاد فارس، فعلم ما في كتاب كليلة ودمنة، فقال: كلام محمد هو كهذه أساطير الأولين. وفيه نزلت الآية: (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)(٩)، لذا عمد النضر بن الحارث الىٰ شراء (كليلة ودِمْنة، وأخبار رُسْتُم وإِسفَنْديار، وأحاديث الأكاسرة(١٠)، فجعل يرويها ويحدّث بها قُريشًا، ويقول: إنَّ محمّداً يحدّثكم بحديث عاد، وثمود، وأَنا أُحدّثكم بحديث رُسْتم وإِسفنديار، ويستملحون حديثه، ويتركون استماع القرآن)(١١)، وفي النضر هذا وبما جلبه معه من تراث بلاد فارس نزلت الآية (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِىٰ لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ..)(١٢)، فتقول بعض التفاسير صراحة إن المعني بلهو الحديث في تلك الآية كان تحديداً كتاب كليلة ودمنة(١٣).. بوفق ما جاء في مصادر التاريخ العربي كانت تلك هي

(٨) فمثلاً يذكر عبد الرحمن بدوي في كتابه من تاريخ الإلحاد في الإسلام في ص٥٨ إن عموم النسخ التي طُبعت في مصر من كليلة ودمنة تخلو من فقرات مطولة من باب برزويه، أو ربما يحذف منها هذا الفصل برمته، بينما توجد تلك الفقرات في بعض الطبعات التي صدرت في بيروت.

(٩) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، ج٨، ص٤١٥٧

(١٠) ولا نستبعد تكون الحكايات المشار إليها هنا بقصص الأكاسرة هي ذاتها مجموعة الحكايات التي شكلت نواة كتاب الشاهنامة الفارسي الشهير، والتي جمعها الفردوسي فيما بعد بين دفتي كتابه.

(١١) محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

(١٢) سورة لقمان، الآية٦.

(١٣) تاج القراء محمود بن حمزة، غرائب التفسير وعجائب التأويل، دار القبلة للثقافة الإسلامية ومؤسسة علوم القرآن، ج٢، ص١٩٩.

الخطوة الأولىٰ التي خطاها كتاب كليلة ودمنة في رحلته الطويلة في الذاكرة الإسلامية، وفيها وكما شاهدنا تم تصنيفه بأنه لهو حديث لا أكثر، وإنه من بين الأدوات التي استعملت في محاربة الإسلام منذ بداياته، والفكرة الثانية تحديداً سوف يمتد صداها إلىٰ عصور متأخرة من التاريخ الإسلامي، إذ نجد علىٰ سبيل المثال أن البيروني الذي كان لا ينفك عن رمي ابن المقفع المترجم الأول لكليلة ودمنة بالزندقة يصرح بأن الفرس كانوا يستخدمون كتاب كليلة ودمنة قبل وبعد ترجمته إلىٰ العربية في الدعوة إلى الديانة المانوية[١٤] تبدأ وتنتهي أول أشواط رحلة كليلة ودمنة في الذاكرة العربية مع قصة النضر بن الحارث التي سبق ذكرها، ومنذ مرحلة بدايات التوثيق للتاريخ الإسلامي المبكر وحتىٰ مرحلة الخطوة الثانية. والتان يمتد بينهما فترة الحكم الأموي لا نجد فيما بين أيدينا من مصادر التراث الإسلامي أي ذكر لحكايات كليلة ودمنة ... الخطوة الثانية في تاريخ هذا الكتاب تُستهل مع ترجمته إلىٰ اللغة العربية علىٰ يد ابن المقفع، وذلك بأمر من الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، والذي وكما تشير بعض المصادر التاريخية كان ابن المقفع في فترة ما من حياته كاتب ديوانه، والذي نرجحه هو أنها كانت أول ترجمة فعلية لهذا الكتاب وأول إعلان عن صيغة عنوانه تلك في الثقافة العربية، وهنا لا بد لنا من الرجوع الىٰ الخطوة الأولىٰ متمثلة بحكاية النضر بن الحارث وقصة جلبه من العراق لبعض النصوص الأدبية الفارسية، كي نتوقف ملياً عند بعض دقائق تفاصيلها، فنلاحظ عدم وجود خبر مؤكد في المصادر الإسلامية عن ملامح محتويات الكتب التي جلبها معه النضر لمعارضة القصص القرآني أو مضاهاتها، بل ويكتنف الغموض حتىٰ هوية اللغة التي كُتبت بها تلك الكتب، فلا نعلم إن كان الكتاب الذي كان من بينها. والذي زعم الرواة المسلمون أنه كليلة ودمنة مكتوباً باللغة الرسمية لثقافة المنطقة التي جلب منها والتي كانت

(١٤) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، ج١، ص١٣٩

اللغة الفارسية؟ أم أن النضر بن الحارث قام باقتناء نسخة منه مترجمة إلىٰ اللغة العربية، والتي كانت لسان كثير من سكنة أرض السواد في حينها؟ حول هذا الإشكال لم نعثر إلا علىٰ بضع شذرات لا تكاد أن تقدم لنا أي إجابة وافية عن هذا السؤال، مثل ما أورده في تفسيره المولىٰ أبو الفداء، والذي قال عن نسخة النضر بن الحارث: (لعلها كانت مترجمة بالعربية)[١٥]، أو ما جاء في الكشاف من أن ما جلبه النضر بن الحارث من الكتب الفارسية لا يستبعد أن يكون بعضه باللغة العربية، وقد ترجمها القصاصون من أهل الحيرة والأنبار تذكرة لأنفسهم[١٦]، إن النصوص الإسلامية الكلاسيكية تتركنا في تخبط كبير وحيرة من أمرنا بشأن هوية قصص النضر الفارسية، والتي افترض الرواة المسلمون أن بعضها كان كتاب كليلة ودمنة، غير أن الدلائل التاريخية الحديثة، والتي تقوم علىٰ دراسات جرت في الهند الموطن الأصلي لهذا النص تثبت أن اسم كليلة ودمنة كعنوان لمحتوىٰ كتاب مجموع بين دفتين لم يطرق مسامع أهل الجزيرة العربية قبل ترجمة ابن المقفع له، فبالرجوع إلىٰ ما جاء به صاحب الكشاف من أن النضر ربما يكون قد جلب كتبه من القصاصين العراقيين، فإننا لا نستبعد أن يكون ما جلبه النضر مجموعة من القصص الشعبي الفارسي الذي قد يكون من بينه بعض من حكايات وضعت علىٰ ألسنة الحيوانات، وربما كان بينها بعض من حكايات كليلة ودمنة، ولكن قطعاً لم يكن الكتاب الذي ترجمه ابن المقفع إلىٰ اللغة العربية[١٧]، لقد أثبتت

(١٥) أبو الفداء، روح البيان، دار الفكر، بيروت، ج٧، ص٦٥.

(١٦) محمد الطاهر التونسي، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر، تونس، ط١، ١٩٨٤، ج٩، ص٣٣٠.

(١٧) لا نستبعد أن يكون القائل بتحديد هوية الكتب الفارسية التي جلبها النضر بقصص كليلة ودمنة وخبر ملوك الفرس هو القاص ابن إسحق، أول من دون السيرة النبوية، خصوصاً وأن جمعه لأخبار السيرة كان ردة فعل لذيوع صيت كتاب كليلة ودمنة في عصره، إذ نجد في بعض المصادر أن (أبو جعفر المنصور هو أول خليفة ترجمت له الكتب السريانية والأعجمية ككتاب «كليلة ودمنة». وكتاب أرسططاليس في المنطق، وإقليدس، وكتب اليونان. فنظر الناس فيها وتعلقوا بها. فلما رأى ذلك محمد بن إسحق جمع المغازي والسير) الذهبي، تاريخ الإسلام، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٣، ج٧، ص٤٠٦. وهنا قد لا نجانب جادة الصواب لو قلنا إن عبد الله بن المقفع فتح باب القصص النثري على مصراعيه في الثقافة العربية، بعد أن كانت السيادة التامة للشعر فقط.

الدراسات الحديثة أن قبل قيام الدولة العباسية لا وجود لكتاب قائم بذاته يدعىٰ كليلة ودمنة يحتوي علىٰ نفس قصص النص الذي قدمه ابن المقفع للثقافة العربية، فتلك الدراسات أوردت أكثر من اسم واحد لهذا الكتاب في اللغة الفارسية التي يفترض أنها اللغة التي كتب بها هذا النص، والتي يفترض كذلك أن تُعرف في الجزيرة العربية أو في مكة في حال اطلاع الناس عليها هناك، وهذه الأسماء ربما يكون بعضها ذات قدم تاريخي يسبق ظهور الديانة الإسلامية، وقد استمر وجود تلك النصوص بعناوينها الأصلية حتىٰ بعد أن قدم ابن المقفع للثقافة العربية كتاب كليلة ودمنة -كما سيمر علينا بعد قليل؛ بهذا الصدد يشير واحد من فهارس مطبوعات الكتب العربية في معرض تعريفه بكتاب كليلة ودمنة إلىٰ أنه (مؤلف اصله موضوع باللغة الهندية واسمه فيها بنج تانترا أي الكتاب المخمس، كان قد نقله من الهندية إلىٰ اللغة البهلوية -وهي فرع من فروع الفارسية- أحد أدباء الفرس ومنها عربه ابن المقفع. ويعرف أيضًا بقصص بدباي[(١٨)] وباسم همايون نامة)[(١٩)]، وناهيك عن موضوع تعدد الأسماء، نعثر في بعض الدراسات الحديثة علىٰ معلومة تفيد بتعدد الأصول التي شكلت مصادر كليلة ودمنة، وبطريقة توحي بأن الأصل الفارسي للكتاب كان عبارة عن توليفة من قصص مختارة من مجموعة كتب هندية، إذ تؤكد الأركيولوجيا الثقافية علىٰ أن (قصص كليلة ودمنة، وهي قصص ترجع إلىٰ أصول هندية. وقد عثر هرتل «hertel» علىٰ أحد أصول هذه القصص، وهو كتاب «بنج تانترا» الهندي كما عثر غيره علىٰ أصل آخر هو كتاب «هتو بادشا»، ووجد الباحثون في «المهابهارتا». ويرجح بعض الباحثين أن ابن المقفع زاد علىٰ الكتاب فصولاً لم تكن في الأصل، وكذلك زاد بعض القصص، ويمكن أن تكون القصص المزيدة ليست من صنعه، فقد ترجم

(١٨) لاحظ الشبه بين أسماء كل من بدباي وبيدبا الحكيم الذي قدم تأليف كتاب كليلة ودمنة وفق ما ترجمه ابن المقفع، وهذا الاسم هو الذي ترجح قدمه وليس الاسم الثاني، فهمايون نامة هو العنوان الذي يطلق على الترجمة التركية لكليلة ودمنة، وكما سيمر علينا في صفحات قادمة.

(١٩) ادوارد كرنيليوس فانديك، صححه وزاد عليه: السيد محمد علي البيلاوي، اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، ج١، ص٢٨٥.

الكتاب بعده مرة أخرىٰ، وزيدت فيه بعض زيادات، ومن المحقق أنه لم يزد سوىٰ ما سماه باب غرض الكتاب)[20]، الفقرة السابقة تضعنا أمام أربعة مصادر علىٰ الأقل لكتاب كليلة ودمنة الذي نعرفه اليوم، ثلاثة منها كتب هندية، أما الرابع فيفترض أنه خيال ابن المقفع نفسه، وربما كان المثقفون المسلمون قد سبقوا الباحثين الغربيين في العثور علىٰ الأصل الأول لكليلة ودمنة، والذي يشكل مادته الأساسية، ونعني هنا كتاب بنج تنترا، فيما عمي عليهم بقية مصادره. لذا نسبوا كل ما لم يقفوا علىٰ أثر له في الكتاب الهندي (بنج تنترا) الىٰ تأليف ابن المقفع، وهو ما عده بعضهم مثلبة يؤاخذ الرجل عليها كونها خيانة لأدب حكيم قديم، وكانت الغاية من تلك الخيانة التهمة التي أُلصقت بابن المقفع في عدة مناسبات، والتي هي محاولة هدم الدين الإسلامي[21]، يصرح بمثل هذا الرأي وعلىٰ سبيل المثال أبو الريحان محَمَد بِن أَحْمَد البَيْرونِي، وذلك في كتابه: (تَحِقيقِ ما لِلهِنِد مِنْ مَقوْلة مَقبوُلة في العَقل أو مَرْذوْلةِ)، فيقول: (وبودّي إن كنت أتمكّن من ترجمة كتاب بنج تنترا وهو المعروف عندنا بكتاب كليلة ودمنة فإنّه تردّد بين الفارسيّة والهنديّة ثمّ العربيّة والفارسيّة علىٰ ألسنة قوم لا يؤمن تغييرهم إيّاه كعبد الله بن المقفّع في زيادته باب برزويه فيه، قاصداً تشكيك ضعيفي العقائد في الدين وكسبهم للدعوة إلىٰ مذهب المنانيّة، وإذا كان متّهماً فيما زاد لم يخل عن مثله فيما نقل)[22]، إن لموضوع زيادة ابن المقفع علىٰ النص الأصلي أهمية بالغة تحتم علينا الوقوف

(٢٠) شوقي ضيف. الفن ومذاهبه في النثر العربي. دار المعارف. ج١. ص١٣٩.

(٢١) عن ابن المقفع بهذا الصدد حكايات كثيرة في كتب التراث الإسلامي، أبرزها أنه حاول أن يعارض القرآن في بعض مؤلفاته. فيروىٰ أنه (ابن المقفع - وكان أفصح أهل زمانه - رام أن يعارض القرآن فنظم كلاماً، وجعله مفصلاً، وسماه سوراً، فمرّ يوماً بصبي فسمعه يقرأ الآية - وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي - فرجع إلى بيته ومحا ما كان قد بدأ به، وقال: أشهد أن هذا لا يُعارض أبداً، وما هو من كلام البشر) محمد علي الصابوني. صفوة التفاسير. ص١٥ [illegible]. وغير هذه الحكاية كثير مما يدور بنفس المعنىٰ؛ ويميل بعض الباحثين إلى أن ابن المقفع حاول أن يعارض القرآن من ناحية المضمون وليس الشكل اللغوي البلاغي، وذلك من خلال طرحه لأفكار تشدد على أنه يمكن للإنسان في حال استبدل المنطق والموروث الفلسفي بالشرائع الدينية أن يحقق لنفسه الراحة والسلام.

(٢٢) أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي. تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة. دار الكتب. بيروت. ط٢. ص١١١

عندها، فنكرر القول بأن جهل معاصريه بالثقافات التي تشكل من أدبياتها كتاب كليلة ودمنة كان هو الدافع الأكبر للتقول عليه إلىٰ حد الذهاب من بعضٍ منهم إلىٰ أن الكتاب بأكمله كان من تأليفه هو، وقد نسبه إلىٰ حكماء بلاد الهند وفارس تهربًا من العقاب، خصوصـًا وأن الرجل كان ممن يشتهر باتباع الديانة المانوية، وهو ما كان يعد من صريح الكفر والزندقة في حينها[٢٣]، فنجد في بعض المصادر التي ترجمت سيرة ابن المقفع ما يأتي: (وقد ترجم كتبًا عديدة من أشهرها كتاب كليلة ودمنة وقيل إن هذا الكتاب من وضع ابن المقفع وهو قول مقبول لا بأس به)[٢٤]، ونجد في ترجمته في الوافي بالوفيات (وَمن تصانيفه كتاب مزدك وكتاب كليلة ودمنة صنعه وَعَزاهُ إِلَىٰ الْهِنْد)،[٢٥] غير أن العثور علىٰ أغلب أصول كتاب كليلة ودمنة يدفع هذه الشبهة بشكل تام عن ابن المقفع، كي تقدمه بصفة المترجم الحاذق الذي زاد علىٰ تشكيلة القصص المؤلفة من أكثر من مصدر مادة جديدة لم تكن موجودة في النسخة الهندية من الكتاب، بل ربما حتىٰ في النسخة الفارسية، وذلك بعد تطويع تلك المادة وبطريقة ذكية للغاية، فباب برزويه الحكيم الذي يتهم ابن المقفع بتأليفه وإضافته إلىٰ نص الكتاب الأصلي وكما أثبت الأستاذ باول كراوس[٢٦] هو علىٰ الأرجح نص فارسي يؤرخ فعلاً لجلب كليلة ودمنة من بلاد الهند والدور الذي لعبه برزويه في هذه العملية، غير أن اللمسة التي زادها ابن المقفع علىٰ هذا الباب كانت تتمثل بفقرات قام بترجمتها من كتاب سرياني تمت كتابته في بلاد فارس قبل الإسلام، وعنوانه (المنطق السرياني) لكاتب يدعىٰ بولس

---

(٢٣) ينقل عن الخليفة العباسي المهدي أنه قال: (ما وَجَدْتُ كِتَابَ زَنْدَقَةٍ إِلَّا وَأَصْلُه ابْنُ المُقَفَّعِ). سير أعلام النبلاء ج٦، ص٢٠٩. وربما كان قصد المهدي هو أن كتب الديانة المانوية وتاريخ الفرس التي ترجمها ابن المقفع للعربية قدمت بتغذية كل من كتبوا في التيارات الثقافية التي وصمت بالزندقة من قبل الفكر الرسمي للدولة.

(٢٤) أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، مؤسسة المعارف، بيروت، ج٢، ص١٦٥.

(٢٥) الوافي بالوفيات ج١٧، ص٣٤٢.

(٢٦) للمزيد يراجع: عبد الرحمن بدوي، من تاريخ الإلحاد في الإسلام، وفيه تمتد دراسة باول كراوس عن ابن المقفع وباب برزويه على الصفحات من ص٥٤ إلى ٦٤.

الفارسي، والمقارنة المطولة التي يعقدها باول كراوس بين فقرات من باب برزويه وأخرىٰ من كتاب المنطق السرياني تعكس تطابقًا تامًا في الأفكار، فنجد النصان كانا يعتبران العلم والفلسفة أسمىٰ سبل بلوغ الحقيقة واكتساب الراحة في الحياة، ذلك لأنهما يستندان إلىٰ المنطق والتجريب، علىٰ العكس من المعرفة الدينية التي تستند بالدرجة الأساس علىٰ الظن والتخمين، ثم تترسخ في أذهان الناس بحكم اتباع اللاحقين لعادات السابقين، وهو ما سبب الفرقة بين أهل الأديان، بل وحتىٰ بين أهل الدين الواحد من المذاهب المختلفة، مع مقتل ابن المقفع بعد نقله للعربية كتاب كليلة ودمنة تنتهي الخطوة الثانية في تاريخ هذا الكتاب، لكن قبل طي هذه الصفحة نرىٰ لزامًا علينا أن نتوقف عند العلاقة بين مقتل ابن المقفع وترجمته لكليلة ودمنة، لقد كان باول كراوس -ونتفق معه إلىٰ حد كبير- من أشد المؤيدين إلىٰ كون فقرة نقد الأديان والتشكيك بجدواها في المجتمعات والتي وردت في باب برزويه من كليلة ودمنة من تأليف عبد الله بن المقفع ولم يكن لها أي وجود في نص الكتاب الأصلي، وذلك لكون ما يرد في تلك السطور يحوي من الجرأة ما لا يمكن معها إذاعتها في البلاط الفارسي في الفترة الساسانية التي يرجح أن كليلة ودمنة ترجمت خلالها من الهندية إلىٰ الفارسية، فالبلاط الفارسي الساساني الذي كان حينها يدين بالمزدكية، وكان ينطبق علىٰ ديانتها وإلىٰ حد كبير ما ورد من نقد للأديان في باب برزويه، ويصدق الحال كذلك علىٰ البلاط الإسلامي في القرن الهجري الثاني، وتحديداً في فترة باكورة قيام الدولة العباسية، فلا يمكن التصريح بأفكار بهذه الحدة بنص مكتوب معلوم المؤلف عند الجميع، لذا كان لا بد لابن المقفع من مغامرة التورية، وذلك عبر نسب أفكاره الشخصية الحديثة لواحد ممن ورد ذكرهم في الكتاب القديم، وربما شجعه علىٰ هذا الفعل أن ترجمة هذا الكتاب قد تمت بمباركة شخصية من الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، ولا نستبعد أن تكون السلطة العباسية قد

انتبهت إلىٰ ما قام به ابن المقفع في حينها، أو ربما يوجد من نبه السلطة إلىٰ ما أزاده المترجم، وذلك بحكم كثرة من يجيدون النقل والترجمة من اللسان الفارسي، لكن في جميع الأحوال اختار الخليفة العباسي أن يسكت عن ما قام به ابن المقفع لحاجة الدولة إلىٰ أمثاله من الأدباء، فلم يعاقب ابن المقفع إلا بعد أن أثار غضب المنصور لسبب سياسي بحت، تمت التعمية عليه عبر إعلان أن سبب العقوبة هو زندقة ابن المقفع التي أثبتها بما جاء به من عنده في باب برزويه في كليلة ودمنة وبقية مؤلفاته وما ترجمه، وهكذا تم الإطاحة بالمؤلف/ المترجم من خلال كتابه(٢٧).

الخطوة الثالثة في تاريخ كتاب كليلة ودمنة نرجح أنها كانت بعد مقتل ابن المقفع، وفيها ذاع صيت الكتاب إلىٰ حد اعتباره من واحد من الكتب الأساسية التي لا بد من أن يحيط بها الفرد المثقف، نجد بهذا الخصوص الأمثلة التالية: يروىٰ أن المأمون أمر معلّم الواثق بالله- وقد سأله عمّا يعلّمه إياه- أن يعلّمه كتاب الله جلّ اسمه، وأن يقرئه عهد أردشير، ويحفّظه كتاب كليلة ودمنة، وكذلك ما كان يعيبه الجاحظ علىٰ بعض مثقفي عصره، حيث ذكر اسم هذا الكتاب من بين قائمة المؤلفات التي تدفع الشباب إلىٰ الغرور إلىٰ حد القدح والذم بنتاج كل ما سبقه من التراث العربي(٢٨)، إن شيوع كتاب كليلة ودمنة بين الأوساط الثقافية، وعلىٰ مستوىٰ بيوت الخلفاء العباسيين لا بد أن يكون قد دفع السلطة العباسية وكذلك ما تلاها من دول إسلامية حكمت في المنطقة إلىٰ أن تتجنب حرج التهمة التي نسبتها الدولة العباسية المبكرة للكتاب ومترجمه(٢٩)،

---

(٢٧) بالنظر لأهمية شخصية ابن المقفع في التاريخ الإسلامي ومحدودية مساحة المقدمة التي خُصصت فقط لكليلة ودمنة، ارتأيت أن نفرد له كملحق في نهاية هذا الكتاب صفحات تحتوي علىٰ سيرته كما وردت في كتاب وفيات الأعيان.

(٢٨) عمرو بن بحر الجاحظ. رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بمصر، ط١. ١٩٦٤، الرسالة الخامسة عشرة: في ذم أخلاق الكتاب. ج٢. ص١٩٢.

(٢٩) بلغ من خطورة كتاب كليلة ودمنة أن يقول فقيه من زمن الدولة العباسية وهو يحيى بن يحيى: من نظر في كتاب كليلة ودمنة جرّه ذلك إلى الزندقة. ومن نظر في كتاب صفين حمله علىٰ سب الصحابة. ومن نظر في كتاب أبي فلان كان آخر عهده بالعلم. يرجع بهذا الخصوص الىٰ ترجمة يحيىٰ بن يحيىٰ بن بكر في كتاب تاريخ الإسلام للذهبي. ج٥. ص٧٢٩.

لذا كان لا بد من إعادة ترجمة كليلة ودمنة نثراً وشعراً من جديد بأقلام أفراد بعيدين عن التهمة التي أودت بحياة المترجم الأول، غير أن طيف الترجمة الأولىٰ التي أودت بحياة صاحبها كان دائم الحضور بين الناس، عن الترجمات المختلفة لكليلة ودمنة نجد في إحدىٰ ببلوغرافيات الكتب العربية هذه القائمة التي تحوي علىٰ مجموعة من الذين قاموا بترجمة هذا الكتاب (ترجمه في الإسلام عبد الله بن المقفع، الخطيب، كاتب أبي جعفر المنصور، من اللغة الفارسية إلىٰ اللغة العربية، وتوفي سنة ١٤٢. وترجمه عبد الله بن هلال الأهوازي، في خلافة المهدي ليحيىٰ بن خالد البرمكي من الفارسية إلىٰ العربية وذلك في سنة ١٦٥، ونظمه شعراً سهل بن نوبخت الحكيم، ليحيىٰ البرمكي المذكور فأعطاه ألف دينار. وكان الملك الناصر الأموي، صاحب الأندلس بالمغرب، حكيماً، سمع به فكاتبه وسير له هدايا، وتحفاً غريبة ... وكان مما سير له كتاب كليلة ودمنة. ثم أمر أبو الحسن نصر بن أحمد الساماني لواحد من علماء عصره فنقله من العربية إلىٰ الفارسية، ونظمه شاعره رودكي حسن بالفارسية[٣٠]. ثم أمر أبو المظفر بهرامشاه بن مسعود الغزنوي، أبا المعالي نصر الله بن محمد عبد الحميد المتوفىٰ سنة ٥١٢ فنقله ثانياً من نسخة ابن المقفع. وهذه الترجمة هي المشهورة بكليلة ودمنة في هذا الزمان، لكنه أطنب وأسهب بإيراد الألفاظ المغلقة، ثم جدد هذه الترجمة ولخصها وهذبها حسين بن علي الواعظ الكاشفي، للأمير سهيلي من أمراء السلطان حسين بيقرا، وسماه (أنوار السهيلي). ثم ترجمه علي بن صالح الرومي، الملقب بعبد الواسع عليسي (أنوار السهيلي). من الفارسي إلىٰ التركي بإنشاء لطيف، وسماه (همايون نامه)، وترجمه افتخار الدين محمد البكري القزويني بلغة الترك وملخص (همايون نامه) للمولىٰ يحيىٰ أفندي المفتي. ولخصه أيضاً

(٣٠) تستوقفنا هذه العبارة وتدفعنا إلى الرجوع إلى ما جاء في صفحات سابقة حول كون ابن المقفع قام بتشكيل كتاب كليلة ودمنة عبر دمج أكثر من كتاب مع نص أصلي فارسي ثم وضع معظم إضافاته الشخصية. ذلك لأن الكتاب لو كان فارسياً صرفاً كما زعم ابن المقفع فما جدوى أن يكلف شخصاً ما أحدهم بإعادة ترجمته من العربية للفارسية؟

المولىٰ عثمان زاده تلخيصا لطيفًا)[٣١]. رحلة إعادة الترجمة وكذلك إعادة الصياغة لكتاب كليلة ودمنة، والتي ذكرناها في السطور السابقة امتدت لقرون طويلة، وكما أسلفنا في صفحات سابقة علىٰ امتداد هذه الرحلة كان طيف الترجمة الأولىٰ حاضراً ومؤثراً بقوة علىٰ امتداد هذه الرحلة.

الآن وبعد كل ما سبق، ألا يدفعنا مطالعة تلك التفاصيل إلىٰ استنباط جواب سؤالنا الأول حول سبب اختلاف نسخ كليلة ودمنة من طبعة إلىٰ أخرىٰ؟ إننا لا نستبعد أن يوجد اليوم بعض من الترجمات التي تلت عمل ابن المقفع. لكنها كُتبت تحت تأثير منه ونسبت إليه لذيوع صيت ترجمته، لكن يبقىٰ الفيصل الأول للتمييز بين الترجمة الأولىٰ وكل ما تلاها هو البصمة التي تركها ابن المقفع علىٰ النص، متمثلة بباب برزويه الذي إما ينسب له جملة، أو فقط الجزء الخاص بنقد الأديان من هذا الباب، والذي سيميزه القارئ بمجرد المرور عليه، في الصفحات السابقة استعرضنا بإيجاز تاريخ أحد أهم روائع التراث الأدبي الشرقي، والذي تداخلت فيه بصمات جمالية من مختلف الثقافات وعلىٰ مختلف العصور، انطلقنا من سؤال قاد خطانا إلىٰ نتيجة نتمنىٰ أن تكون وافية، ولم يبق لنا شيء يجدر قوله إلا ذكر المصادر التي اعتمدناها كي نقدم للقارئ هذه النسخة من كتاب كليلة ودمنة، فنقول: هذه النسخة هي وليدة مقارنة بين ٤ طبعات صدرت عن دور نشر مختلفة عبر أزمنة متباينة، وهي طبعة المطبعة الأميرية عام ١٩٢٨ بالقاهرة، والتي اعتمدت في حينها ككتاب منهجي يدرس في المرحلة الثانوية في مصر، وطبعة المطبعة الاميرية ببولاق والصادرة في عام ١٩٣٦، وطبعة دار المعارف التي قدم لها وعلق عليها الدكتور المرحوم عبد الوهاب عزام وتحديداً النسخة التي أعيدت طباعتها في عام ٢٠١٨، ثم أخيراً طبعة دار الشروق الصادرة في عام ١٩٨١.

(٣١) مصطفى بن عبد الله المعروف بحاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٤١، ج٢، ص١٥٠٨.

باب مقدمة الكتاب

وقد قدمها بهنود بن سحوان، والمعروف بعلي بن الشاه الفرسي، وفيها يذكر السبب الذي من أجله عمل بيدبا الفيلسوف الهندي وكبير البراهمة[٣٢]، لدبشليم ملك الهند كتابه الذي سماه كليلة ودمنة، وجعله على ألسنة البهائم والطير صيانة لغرضه فيه من العوام، وظنًّا بما ضمنه عن الطغام، وتنزيهًا للحكمة وفنونها، ومحاسنها وعيونها، إذ هي للفيلسوف مندوحة، ولخاطره مفتوحة، ولمحبيها تثقيف، ولطالبيها تشريف، وذكر السبب الذي من أجله أنفذ كسرى أنشروان بن قباذ بن فيروز ملك الفرس برزويه رأس الأطباء إلى الهند لأجل كتاب كليلة ودمنة، وما كان من تلطف برزويه عند دخوله إلى الهند، حتى حضر إليه الرجل الذي استنسخه له سراً من خزانة الملك ليلاً، مع ما وجد من كتب علماء الهند، وقد ذكر الذي كان من بعثة برزويه إلى مملكة الهند من أجل الكتاب، وذكر فيه ما يلزم مطالعه من إتقان قراءته، والقيام بدراسته، والنظر إلى باطن كلامه، وأنه إن لم يكن كذلك لم يحصل على الغاية منه. وذكر فيها حضور برزويه وقراءة الكتاب جهراً. وذكر السبب الذي من أجله وضع بزرجمهر باباً مفرداً يسمى باب برزويه المتطبب، وذكر فيه شأن برزويه من أول أمره، وأوان مولده، إلى أن بلغ التأديب وأحب الحكمة واعتبر في أقسامها[٣٣]، وجعله قبل باب الأسد والثور، والذي هو أول الكتاب.

قال علي بن الشاه الفارسي: كان السبب الذي من أجله وضع بيدبا

---

(٣٢) البراهمة من أديان الهند، يؤمنون بوجود خالق كلي القدرة، لكنهم لا يجيزون على هذا الخالق إرسال الرسل والأنبياء.

(٣٣) الاعتبار هو النظر، واعتبر في أقسام الحكمة أي نظر في علومها.

الفيلسوف لدبشليم ملك الهند كتاب كليلة ودمنة أن الإسكندر ذا القرنين الرومي لما فرغ من أمر الملوك الذين كانوا بناحية المغرب، سار يريد ملوك المشرق من الفرس وغيرهم، فلم يزل يحارب من نازعه، ويواقع من واقعه، ويسالم من وادعه من ملوك الفرس، وهم من الطبقة الأولىٰ، حتىٰ ظهر عليهم وقهر من ناوأه وتغلب علىٰ من حاربه، فتفرقوا طرائق[٣٤]، وتمزقوا حزائق[٣٥]، فتوجه بالجنود نحو بلاد الصين، فبدأ في طريقه بملك الهند ليدعوه إلىٰ طاعته، والدخول في ملته وولايته، وكان علىٰ الهند في ذلك الزمان ملك ذو سطوة وبأس، وقوة ومراس، يقال له فور، فلما بلغه إقبال ذي القرنين نحوه تأهب لمحاربته، واستعد لمجاذبته، وضم إليه أطرافه، وجد في التأليب عليه[٣٦]، وجمع له العدة في اسرع مدة، من الفيلة المعدة للحروب، والسباع المضراة بالوثوب، مع الخيول المسرجة والسيوف القواطع، والحراب اللوامع، فلما قرب ذو القرنين من فور الهندي، بلغه ما اعد له من الخيل التي كأنها قطع الليل مما لم يلقه بمثله أحد من الملوك الذين كانوا في الأقاليم، تخوف ذو القرنين من تقصير يقع به إن عجل بالمبارزة، وكان ذو القرنين رجلاً ذا حيل ومكايد، مع حسن تدبير وتجربة، فرأىٰ إعمال الحيلة والتمهل، واحتفر خندقًا علىٰ عسكره، وأقام بمكانه لاستنباط الحيلة والتدبير لأمره، وكيف ينبغي له أن يقدم علىٰ الإيقاع به، فاستدعىٰ المنجمين، وأمرهم باختيار اليوم الموافق، تكون له فيها السعادة لمحاربة ملك الهند والنصرة عليه، فاشتغلوا بذلك، وكان ذو القرنين لا يمر بمدينة إلا أخذ الصناع المشهورين من صناعها بالحذق من كل صنف، فأنتجت له همته، ودلته فطنته أن يتقدم إلىٰ الصناع[٣٧] الذين معه في أن يصنعوا

(٣٤) طرائق تعني فرق.
(٣٥) حزائق تعني قطع.
(٣٦) التأليب هو التحشيد او التجميع
(٣٧) أي يأمرهم أو يطلب منهم

خيلاً من نحاس مجوفة، عليها تماثيل رجال، على بكر تجري[٣٨]، إذا دفعت مرت سراعًا، وأمر إذا فرغوا منها أن تحشى اجوافها[٣٩] بالنفط والكبريت، وتُلبس[٤٠] وتقدم أمام الصف في القلب[٤١]، ووقت ما يلتقي الجمعان تُضرم فيها النيران، فإن الفيلة إذا لفت خراطيمها على الفرسان وهي حامية ولت هاربة، وأوعز للصناع بالتشمير[٤٢] والانكماش[٤٣]، والفراغ منها، فجدوا[٤٤] في ذلك وعجلوا، وقرُب أيضًا وقت اختيار المنجمين. فأعد ذو القرنين رسله إلى ملك الهند الفور بما يدعوه إليه من طاعته، والإذعان لدولته، فأجاب جواب مصر على مخالفته، مقيم على محاربته، فلما رأى ذو القرنين عزيمته سار إليه بأهبته[٤٥]، وقدم الملك فور الفيلة أمامه، ودفعت رجال ذي القرنين تماثيل الخيل والفرسان، فأقبلت الفيلة نحوها، ولفت خراطيمها عليها، فلما أحست بالحرارة ألقت من كان عليها، وداستهم تحت أرجلها، ومضت مهزومة هاربة، لا تلوي على شيء، ولا تمر بأحد إلا وطئته، وتقطع فور وجمعه[٤٦]، وتبعه أصحاب الإسكندر، واثخنوا فيهم الجراح[٤٧]، وصاح الإسكندر: يا ملك الهند ابرز إلينا، وابق على عدتك وعيالك ولا تحملهم على الفناء، فليس من المروؤة أن يرمي الملك بعدته في المهالك المتلفة، والمواضع المجحفة، بل يقيهم بماله، ويدفع عنهم بنفسه، فابرز إلي ودع الجند، فأينا قهر صاحبه فهو الأسعد. فلما سمع فور من ذي القرنين ذلك الكلام دعته نفسه لملاقاته طمعًا فيه، وظن ذلك فرصة، فبرز إليه

(٣٨) البكر جمع بكرة، وهي هنا العجلة التي تسير عليها تلك التماثيل المجوفة
(٣٩) أجواف جمع جوف، والمقصود هنا الفراغ داخل تلك التماثيل
(٤٠) أي توضع عليها الملابس
(٤١) أي قلب الجيش، وهو منتصفه
(٤٢) التشمير عن الساعد هو رفع الكم، وأتت هنا للإشارة إلى العمل بقوة.
(٤٣) أي الإسراع.
(٤٤) من الجدية في العمل.
(٤٥) الأهبة الاستعداد
(٤٦) أي تفرق جيشه.
(٤٧) أي كثروا فيهم الجروح والإصابات، والإثخان هو المبالغة

الإسكندر فتجاولا على ظهري فرسيهما ساعات من النهار، ليس يلقى أحدهما من صاحبه فرصة، ولم يزالا يتعاركان، فلما اعيا[٤٨] الإسكندر أمره ولم يجد فرصة له ولا حيلة، أوقع ذو القرنين في معسكره صيحة عظيمة ارتجت لها الأرض والعساكر، فالتفت الملك فور عندما سمع الزعقة[٤٩]، وظنها مكيدة في عسكره، فعاجله الإسكندر بضربة أمالته عن سرجه، وتبعه بأخرى، فوقع على الأرض، فلما رأت الهند ما نزل بهم، وما صار إليه ملكهم، حملوا[٥٠] على الإسكندر فقاتلوه قتالًا أحبوا معه الموت، فوعدهم من نفسه الإحسان، ومنحه الله من اكنافهم، فاستولى على بلادهم، وملك عليهم رجلاً من ثقاته، وأقام بالهند حتى استوثق[٥١] مما أراد من أمرهم واتفاق كلمتهم، ثم انصرف عن الهند وخلف عليهم ذلك الرجل، ومضى متوجهًا نحو ما قصد له[٥٢]، فلما ابتعد ذو القرنين عن الهند بجيوشه، تغيرت الهند عما كانوا عليه من طاعة الرجل الذي خلفه عليهم، وقالوا: ليس يصلح للسياسة ولا ترضى الخاصة ولا العامة أن يملكوا عليهم رجلاً ليس هو منهم، ولا من أهل بيوتهم، فإنه لا يزال يذلهم ويستقلهم. واجتمعوا يملكون عليهم رجلاً من أولاد ملوكهم، فملكوا عليهم ملكًا يقال له دبشليم، وخلعوا الرجل الذي خلفه عليهم الإسكندر، فلما استوسق[٥٣] له الأمر، واستقر له الملك، طغى وبغى وتجبر ومكر، وجعل يغزو من حوله من الملوك، وكان مع ذلك مؤيداً مُظفراً منصوراً، فهابته الرعية، فلما رأى ما هو عليه من الملك والسطوة، عبث بالرعية واستصغر أمرهم وأساء السيرة فيهم، وكان لا ترتقي حاله إلا ويزداد عتواً، فمكث على ذلك برهة من دهره، وكان في زمنه فيلسوف

(٤٨) أعيا من الإعياء، وهو التعب أو العجز الناتج عن قلة الحيلة

(٤٩) أي الصرخة.

(٥٠) أي هجموا.

(٥١) استوثق يعني صار على ثقة

(٥٢) أي مضى نحو ما خطر بباله.

(٥٣) استوسق يعني اجتمع

من البراهمة فاضل حكيم، يعرف بفضله، ويرجع في الأمور إلىٰ قوله، يقال له بيدبا، فلما رأىٰ الملك وما هو عليه من الظلم للرعية، فكر في وجه الحيلة في صرفه عما هو عليه ورده إلىٰ العدل والإنصاف، فجمع لذلك تلاميذه وقال: أتعلمون ما أريد أن أشاوركم فيه؟ اعلموا أني أطلت الفكرة في دبشليم وما هو عليه من الخروج عن العدل ولزوم الشر، ورداءة السيرة وسوء العشرة مع الرعية، ونحن ما نروض انفسنا لمثل هذه الأمور إذا ظهرت من الملوك، إلا لنردهم إلىٰ فعل الخير ولزوم العدل، ومتىٰ اغفلنا ذلك وأهملناه، لزم وقوع المكروه بنا، وبلوغ المحذورات إلينا، إذ كنا في أنفس الجهال أجهل منهم، وفي العيون عندهم أقل منهم، وليس الرأي عندي الجلاء عن الوطن، ولا يسعنا في حكمتنا إبقاؤه علىٰ ما هو عليه من سوء السيرة، وقبح الطريقة، ولا يمكننا مجاهدته بغير ألسنتنا[٥٤]، ولو ذهبنا إلىٰ أن نستعين بغيرنا لم تتهيأ لنا معاندته، وان أحس منا مخالفته وانكارنا سيرته كان في ذلك بوارنا[٥٥]، وقد تعلمون ان مجاورة السبع[٥٦] والكلب والحية والثور علىٰ طيب الوطن، ونظارة العيش لغدر بالنفس، وأن الفيلسوف لحقيق أن تكون همته مصروفة إلىٰ ما يحُصن به نفسه من نوازل المكروه، ولواحق المحذور، ويدفع المخوف لاستجلاب المحبوب، ولقد كنت اسمع أن فيلسوفاً كتب إلىٰ تلميذه يقول: إن مجاور رجال السوء ومصاحبهم كراكب البحر، إن سلم من الغرق لم يسلم من المخاوف، فإذا هو أورد نفسه موارد الهلكات، ومصادر المخوفات، عُد من الحمير التي لا نفس لها[٥٧]، لأن الحيوان البهيمية قد خُصت في طبائعها بمعرفة ما تكتسب به النفع، وتتوقىٰ المكروه، وذلك أننا لم نرها تورد أنفسها مورداً فيه هلكتها، وأنها متىٰ

(٥٤) المقصود بهذا الكلام وما سيليه سمت دبشليم.
(٥٥) يعني هلاكنا.
(٥٦) من أسماء الأسد، وهو المقصود هنا.
(٥٧) النفس هنا كناية عن العقل.

أشرفت علىٰ مورد مهلك لها، مالت بطبائعها التي رُكبت فيها شحاً[٥٨] بأنفسها وصيانة لها، الىٰ النفور والتباعد عنه، وقد جمعتكم لهذا الأمر لأنكم أسرتي ومكان سري، وموضع معرفتي، وبكم أعتضد، وعليكم أعتمد، فإن الوحيد في نفسه، والمتفرد برأيه حيث كان فهو ضائع، ولا ناصر له، علىٰ أن العاقل قد يبلغ بحيلته ما لا يُبلغ بالخيل والجنود، والمثل في ذلك أن قنبرة[٥٩] اتخذت عشاً وباضت فيه علىٰ طريق مرور الفيل إلىٰ موردٍ يشرب منه، فمر ذات يوم علىٰ عادته ليرد مورده، فوطئ عش القنبرة، وهشم بيضها وقتل فراخها، فلما نظرت ما ساءها، علمت أن ما نالها من الفيل لا من غيره، فطارت ووقعت علىٰ رأسه باكية، ثم قالت: أيها الملك لم هشمت بيضي وقتلت فراخي وأنا في جوارك؟ أفعلت هذا استصغاراً منك لأمري واحتقاراً لشأني؟ فقال: هو الذي حملني علىٰ ذلك. فتركته وانصرفت إلىٰ جماعة الطير، فشكت إليها ما نالها من الفيل، فقلن لها: وما عسىٰ أن نبلغ منه ونحن طيور؟ فقالت للعقاعق[٦٠] والغربان: أحب منكن أن تصرن معي، فتفقأن عينيه، فأني أحتال له بعد ذلك بحيلة أخرىٰ. فأجبنها إلىٰ ذلك، وذهبن إلىٰ الفيل، ولم يزلن ينقرن عينيه حتىٰ ذهبن بهما، وبقي لا يهتدي إلىٰ طريق مطعمه ومشربه إلا ما يلقمه من موضعه، فلما علمت ذلك منه جاءت إلىٰ غدير فيه ضفادع كثيرة، فشكت إليها ما نالها من الفيل، فقالت الضفادع: ما حيلتنا نحن في عظمة الفيل وأين نبلغ منه؟ فقالت: أحب منكن أن تأتين معي إلىٰ وهدة[٦١] قريبة منه، فتنققن[٦٢] فيها وتضججن[٦٣]، فإنه اذا سمع اصواتكن لم يشك في وجود الماء، فيهوي فيها. فأجبنها إلىٰ ذلك،

(٥٨) الشح بمعناه العام هو البخل والقلة، وقد ورد هنا كناية عن الحفاظ علىٰ النفس.
(٥٩) نوع من الطيور وهي صغيرة الحجم.
(٦٠) نوع من الطيور يشوب ريشه السواد والبياض.
(٦١) الوهدة هي الأرض المنخفضة.
(٦٢) أي تصدرن النقيق، والنقيق هو صوت الضفدع.
(٦٣) أي تصدرن الضجيج

واجتمعن في الهاوية، فسمع الفيل نقيق الضفادع، وقد اجهده العطش، فأقبل حتىٰ وقع في الوهدة فارتطم(٦٤) فيها، وجاءت القنبرة ترف علىٰ رأسه، وقالت: أيها المغتر بقوته المحتقر لأمري، كيف رأيت عظيم حيلتي مع صغر جثتي، عند عظم جثتك وصغر همتك؟ فليشر كل واحد منكم بما يسنح له من الرأي. فقالوا بأجمعهم: أيها الفيلسوف الفاضل، والحكيم العادل، أنت المقدم فينا، والفاضل علينا، وما عسىٰ أن يكون مبلغ رأينا عند رأيك، وفهمنا عند فهمك؟ غير أننا نعلم أن السباحة في الماء مع التماسيح تغرير، والذنب فيه لمن دخل عليه في موضعه. والذي يستخرج السم من ناب الحية فيبتلعه ليجربه يجني علىٰ نفسه، فليس الذنب للحية، ومن دخل علىٰ الأسد في غابته، لم يأمن من وثبته، وهذا الملك لم تفزعه النوائب، ولم تؤدبه التجارب، ولسنا نأمن عليك ولا علىٰ أنفسنا سطوته، وإنا نخاف عليك من سورته(٦٥)، ومبادرته بسوء إذا لقيته بغير ما يحب. فقال الحكيم بيدبا: لعمري لقد قلتم فأحسنتم، لكن ذا الرأي الحازم لا يدعُ أن يشاور من هو دونه أو فوقه في المنزلة، والرأي الفرد لا يكتفي به في الخاصة، ولا ينتفع به في العامة، وقد صحت عزيمتي علىٰ لقاء دبشليم، وقد سمعت مقالتكم، وتبين لي نصيحتكم والإشفاق علي وعليكم، غير أني رأيت رأيًا وعزمت عزمًا، وستعرفون حديثي عند الملك، ومجاوبتي إياه، فإذا اتصل بكم خروجي(٦٦) من عنده فاجتمعوا إلي. وصرفهم وهم يدعون له بالسلامة.

ثم إن بيدبا اختار يومًا للدخول علىٰ الملك، حتىٰ اذا كان ذلك الوقت، ألقىٰ عليه مسوحه(٦٧)، وهي لباس البراهمة، وقصد باب الملك، وسأل

---

(٦٤) وقع فارتطم أي وقع واستعصى عليه الخروج.
(٦٥) السورة هي الاعتداء.
(٦٦) أي ان بلغكم خبر خروجي.
(٦٧) أي لبس ثيابه، والمسوح هو لباس من الشعر.

عن صاحب إذنه[٦٨]، فأُرشد إليه وسلم عليه، وأعلمه وقال له: إني رجل قصدت الملك في نصيحة، فدخل الآذن على الملك في وقته، وقال للملك: بالباب رجل من البراهمة يقال له بيدبا، ذكر أن معه للملك نصيحة، فأذن له، فدخل ووقف بين يديه وكفر وسجد له واستوى قائماً وسكت، ففكر دبشليم في سكوته وقال: إن هذا لم يقصدنا إلا لأمرين، أما لالتماس شيء منا يصلح به حاله، وأما لأمر لحقه فلم تكن له به طاقة، ثم قال: إن كان للملوك فضل في مملكتها فإن للحكماء فضلاً في حكمتها أعظم، لأن الحكماء أغنياء عن الملوك بالعلم، وليس الملوك بأغنياء عن الحكماء بالمال، وقد وجدت العلم والحياء إلفين[٦٩] مُتآلفين لا يفترقان، متى فقد أحدهما لم يوجد الآخر، كالمتصافيين إن عدم منهما أحد لم يطب لصاحبه نفساً بالبقاء بعده تأسفًا عليه، ومن لم يستح من الحكماء ويكرمهم ويعرف فضلهم على غيرهم، ويصنهم عن المواقف الواهنة، وينزههم عن المواطن الرذلة كان ممن حرم عقله وخسر دنياه، وظلم الحكماء حقوقهم وعد من الجهال، ثم رفع رأسه إلى بيدبا وقال له: نظرت إليك يا بيدبا ساكتًا لا تعرض حاجتك، ولا تذكر بغيتك فقلت: إن الذي أسكته هيبة ساورته أو حيرة أدركته، وتأملت عند ذلك طول وقوفك، قلت لم يكن لبيدبا أن يطرقنا على غير عادة إلا لأمر حركه لذلك، فإنه أفضل أهل زمانه، فهلا نسأله عن سبب دخوله؟ فإن يكن من ضيم ناله، كنت أولى من أخذ بيده وسارع في تشريفه، وتقدم في البلوغ إلى مراده وإعزازه، وإن كانت بغيته غرضاً من أغراض الدنيا أمرت بإرضائه من ذلك فيما أحب، وإن يكن من أمر الملك، ومما لا ينبغي للملوك أن يبذلوه من أنفسهم ولا ينقادوا إليه نظرت في قدر عقوبته، على أن مثله لم يكن ليجترئ على إدخال نفسه

(٦٨) أي الشخص الذي يجلب إذن الدخول على الملك، وهو نفسه الآذن الذي سيرد ذكره.

(٦٩) من الإلفة أي الاقتران الناتج عن التوافق والتشابه.

في باب مسالك الملوك، وإن كان شيئًا من أمور الرعية يقصد فيه أن أني أصرف عنايتي اليهم، نظرت ما هو، فإن الحكماء لا يشيرون إلا بالخير، والجهلاء يشيرون بضده، وأنا قد فسحت لك في الكلام.

فلما سمع بيدبا ذلك من الملك أفرخ روعه[٧٠]، وسري عنه[٧١] ما كان وقع في نفسه من خوفه، فسجد له ثم قام بين يديه وقال: أول ما أقول أسأل الله تعالىٰ بقاء الملك علىٰ الأبد، ودوام ملكه علىٰ الأمد، لأن الملك قد منحني في مقامي هذا محلاً جعله شرفًا لي علىٰ جميع من بعدي من العلماء، وذكراً باقيًا علىٰ الدهر عند الحكماء. ثم أقبل علىٰ الملك بوجهه مستبشراً به فرحًا بما بدا له منه، وقال: قد عطف الملك علي بكرمه وإحسانه، والأمر الذي دعاني إلىٰ الدخول علىٰ الملك، وحملني علىٰ المخاطرة لكلامه، والإقدام عليه، نصيحة اختصصته بها دون غيره، وسيعلم من يتصل به ذلك أني لم أقصر عن غاية فيما يجب للمولىٰ علىٰ الحكماء، فإن فسح في كلامي ووعاه عني، فهو حقيق بذلك وما يراه، وإن هو ألقاه[٧٢] فقد بلغت ما يلزمني، وخرجت من لوم يلحقني. فقال الملك بيدبا: تكلم كيف شئت، فإني مصغ اليك، ومقبل عليك، وسامع منك، حتىٰ أستفرغ ما عندك إلىٰ آخره، وأجازيك علىٰ ذلك بما انت أهله.

فقال بيدبا إني وجدت الأمور التي اختص بها الإنسان من بين سائر الحيوان أربعة أشياء، وهي جماع ما في العالم[٧٣]، وهي الحكمة والعفة والعقل والعدل، والعلم والأدب والروية داخلة في باب الحكمة، والحلم والصبر والوقار داخلة في باب العقل، والحياء والكرم والصيانة والأنفة داخلة في باب العفة، والصدق والإحسان والمراقبة وحسن الخلق داخلة

(٧٠) أي زال منه الخوف.
(٧١) سري عنه أي زال منه.
(٧٢) تجاهله.
(٧٣) أي أصل العالم.

في باب العدل، وهذه هي المحاسن، وأضدادها هي المساوئ، فمتىٰ كملت هذه في واحد لم تخرجه الزيادة في نعمة إلىٰ سوء الحظ من دنياه، ولا إلىٰ نقص في عقباه، ولم يتأسف علىٰ ما لم يعن التوفيق ببقائه، ولم يحزنه ما تجري به المقادير في ملكه، ولم يدهش عند مكروه، فالحكمة كنز لا يفنىٰ علىٰ إنفاق، وذخيرة لا يضرب لها بالإملاق(٧٤)، وحلة لا تخلق جدتها(٧٥)، ولذة لا تصرم مدتها(٧٦)، ولئن كنت عند مقامي بين يدي الملك أمسكت عن ابتدائه بالكلام فإن ذلك لم يكن مني إلا لهيبته والإجلال له، ولعمري إن الملوك لأهل أن يهابوا، لا سيما من هو في المنزلة التي حل فيها الملك عن منازل الملوك قبله، وقد قالت العلماء: الزم السكوت فإن فيه سلامة، وتجنب الكلام الفارغ فإن عاقبته الندامة، وحكي أن اربعاً من العلماء قد ضمهم مجلس ملك، فقال لهم: ليتكلم كل منكم بكلام يكون أصلاً للأدب. فقال أحدهم: أفضل خلة(٧٧) العلم السكوت. وقال الثاني: إن من أنفع الأشياء للإنسان أن يعرف قدر منزلته من عقله. وقال الثالث: أنفع الأشياء للإنسان ألا يتكلم بما لا يعنيه. وقال الرابع: أروح الأمور علىٰ الإنسان التسليم للمقادير. واجتمع في بعض الزمان ملوك الأقاليم من الصين والهند وفارس والروم، وقالوا: ينبغي أن يتكلم كل واحد منا بكلمة تدون عنه علىٰ غابر الدهر. فقال ملك الصين: أنا علىٰ ما لم اقل أقدر مني علىٰ رد ما قلت. وقال ملك الهند: عجبت لمن يتكلم بالكلمة فإن كانت له لم تنفعه، وإن كانت عليه اوبقته(٧٨). وقال ملك فارس: انا اذا تكلمت بالكلمة ملكتني واذا لم أتكلم بها ملكتها. وقال ملك الروم: ما ندمت علىٰ ما لم أتكلم به قط،

(٧٤) الإملاق الفقر
(٧٥) تخلق أي تبلى، ولا تخلق جدتها يعني لا يعتق جديدها
(٧٦) أي لا تنقطع لها مدة
(٧٧) الخلة الصفة.
(٧٨) بمعنى أهلكته

ولقد ندمت على ما تكلمت به كثيراً. والسكوت عند الملوك أحسن من الهذر الذي لا يرجع منه إلى نفع، وأفضل ما استظل به الإنسان لسانه، غير أن الملك أطال الله مدته، لما فسح لي في الكلام وأوسع لي فيه، كان أولى ما أبدأ به من الأمور التي هي غرضي أن يكون ثمرة ذلك له دوني، وأن أختصه بالفائدة قبلي، على أن العقبى هي ما أقصد في كلامي له، وإنما نفعه وشرفه راجعاً إليه، وأكون انا قد قضيت فرضاً وجب علي. فأقول: أيها الملك إنك في منزل آبائك وأجدادك من الجبابرة الذين اسسوا الملك قبلك، وشيدوه دونك، وبنوا القلاع والحصون، ومهدوا البلاد، وقادوا الجيوش، واستجاشوا العدة، وطالت لهم المدة، واستكثروا من السلاح والكراع[٧٩]، وعاشوا الدهور في غبطة وسرور، فلم يمنعهم ذلك من اكتساب جميل الذكر، ولا قطعهم عن اغتنام الشكر، ولا استعمال الإحسان إلى من خولوه، والإرفاق بمن ولوه، وحسن السيرة فيما تقلدوه، مع عظم ما كانوا فيه من غرة الملك[٨٠]، وسكرة الاقتدار، وإنك أيها الملك السعيد جده، الطالع كوكب سعده، قد ورثت ارضهم وديارهم، وأموالهم ومنازلهم التي كانت عدتهم، فأقمت فيما خولت من الملك وورثت من الأموال والجنود، فلم تقم في ذلك بحق ما يجب عليك، بل طغيت وبغيت وعتوت وعلوت على الرعية، وأسأت السيرة، وعظمت منك البلية، وكان الأولى والأشبه به أن تسلك سبيل اسلافك، وتتبع آثار الملوك قبلك، وتقفو محاسن ما ابقوه لك، وتقلع عما عاره لازم لك، وشينه واقع بك، تحسن النظر برعيتك، تسن لهم سنن الخير الذي يبقى بعدك ذكره، ويعقبك جميل فخره، ويكون ذلك أبقى على السلامة وأدوم على الاستقامة. فإن الجاهل المُغتر من استعمل في أموره البطر والأمنية، والحازم اللبيب من ساس الملك بالمداراة والرفق،

(٧٩) الكراع: اسم جامع للخيول والأسلحة.
(٨٠) أي غرور السلطة.

فانظر أيها الملك ما ألقيت إليك، ولا يثقلن ذلك عليك، فلم أتكلم بهذا ابتغاء غرض تجازيني به، ولا التماس معروف تكافئني عليه، ولكني اتيت ناصحًا مشفقًا عليك.

فلما فرغ بيدبا من مقالته، وقضىٰ مناصحته، أوغر صدر الملك فأغلظ له في الجواب استصغاراً لأمره، وقال: لقد تكلمت بكلام ما كنت اظن أن أحداً من أهل مملكتي يستقبلني بمثله، ولا يقدم علىٰ ما أقدمت عليه، فكيف انت مع صغر شأنك، وضعف منتك[٨١] وعجز قوتك، ولقد أكثرت إعجابي من إقدامك علي، وتسلطك بلسانك فيما جاوزت به حدك، وما أجد شيئًا في تأديب غيرك أبلغ من التنكيل بك، فذلك عبرة وموعظة لمن عساه أن يبلغ ويروم ما رمت أنت من الملوك إذا أوسعوا لهم في مجالسهم، ثم أمر به أن يقتل ويصلب، فلما مضوا به فيما أمر، فكر فيما أمر به فأحجم عنه، ثم أمر بحبسه وتقييده، فلما حُبس أنفذ في طلب تلاميذه ومن كان يجتمع إليه، فهربوا في البلاد، واعتصموا بجزائر البحار، فمكث بيدبا في محبسه لا يسأل الملك عنه، ولا يلتفت إليه، ولا يجسر أحد أن يذكره عنده، حتىٰ إذا كان ليلة سهد الملك سهداً شديداً[٨٢]، فطال سهده، ومد إلىٰ الفلك بصره[٨٣]، وتفكر في تفلك الفلك[٨٤]، وحركات الكواكب، فأغرق الفكر فيه فسلك به إلىٰ استنباط شيء عرض له من أمور الفلك، والمسألة عنه، فذكر عند ذلك بيدبا، وتفكر فيما كلمه به، فارعوىٰ لذلك[٨٥] وقال في نفسه: لقد اسأت فيما صنعت بهذا الفيلسوف، وضيعت واجب حقه، وحملني علىٰ ذلك سرعة الغضب، وقد قالت العلماء: أربعة لا ينبغي أن تكون في الملوك

---

(٨١) ضعف قوتك.
(٨٢) أي أصابه أرق شديد.
(٨٣) أي صار ينظر إلى النجوم.
(٨٤) أي تكوين الفضاء واستدارة مدارات النجوم.
(٨٥) أي تراجع عما فعله من جحود بحقه

الغضب فإنه أكثر الأشياء مقتًا، والبخل فإن صاحبه ليس بمعذور مع ذات اليد، والكذب فإنه ليس لأحد أن يجاوره، والعنف في المحاورة فإن السفه ليس من شأنها، وإن أتىٰ رجل إلىٰ نصح لي ولم يكن مبلغًا فعاملته بضد ما يستحق، وكافأته بخلاف ما يستوجب، وما كان هذا جزاؤه مني، بل كان الواجب أن أسمع كلامه، وأنقاد إلىٰ ما يشير الي به، ثم أنفذ في ساعته من يأتيه به، فلما مثل بين يديه قال له: يا بيدبا ألست الذي قصدت إلىٰ تقصير همتي، وعجزت رأيي في سيرتي بما تكلمت به آنفًا؟ فقال له بيدبا: أيها الملك الناصح الشفيق، والصادق الرقيق، إنما بنأتك بما فيه صلاح لك ولرعيتك، ودوام ملكك لك، قال له الملك: يا بيدبا أعد علي كلامك كله، ولا تدع منه حرفًا إلا جئت به. فجعل بيدبا ينثر كلامه والملك مصغ اليه، وجعل دبشليم كلما سمع شيئًا ينكت الأرض[٨٦] بشيء كان بيده، ثم رفع طرفه إلىٰ بيدبا، وأمره بالجلوس، وقال له: يا بيدبا إني قد استعذبت كلامك، وحسن موقعه في قلبي، وأنا ناظراً في الذي أشرت به، وعامل بما أمرت، ثم أمر بقيوده فحلت، وألقي عليه من لباسه، وتلقاه بالقبول، فقال بيدبا: يا أيها الملك إن في دون ما كلمت به نهية لمثلك. فقال: صدقت أيها الحكيم الفاضل، وقد وليتك من مجلسي هذا إلىٰ جميع أقاصي مملكتي. فقال له: أيها الملك إعفني من هذا الأمر فإني غير مضطلع بتقويمه إلا بك. فأعفاه من ذلك، فلما انصرف علم أن الذي فعله ليس بالرأي، فبعث إليه فرده، وقال: إني فكرت في إعفائك مما عرضته عليك، فوجدته لا يقوم إلا بك، ولا ينهض به غيرك، ولا يضطلع به سواك. فلا تخالفني فيه. فأجابه بيدبا إلىٰ ذلك.

وكان عادة ملوك ذلك الزمان إذا استوزروا وزيراً[٨٧] أن يعقدوا علىٰ رأسه

---

(٨٦) يضرب الأرض.

(٨٧) أي إذا قلدوا شخصاً منصب الوزير.

تاجـًا، ويركـب في أهـل المملكـة، ويطـاف بـه في المدينـة، فأمـر الملـك أن يفعـل ببيدبـا ذلـك، فوضـع التـاج علـىٰ رأسـه، وركـب في المدينـة، ورجـع فجلـس بمجلـس العـدل والإنصـاف، يأخـذ للـدنيء مـن الشـريف[٨٨]، ويساوي بين القوي والضعيف، ورد المظالم، ووضع سنن العدل، وأكثر من العطاء والبذل، واتصل الخبر بتلاميذه فجاؤوه من كل مكان، فرحين بما جدد الله له من جديد رأي الملك في بيدبا، وشكروا الله تعالىٰ علىٰ توفيق بيدبا في إزالة دبشليم عما كان عليه من سوء السيرة، واتخذوا ذلك اليوم عيداً يعيدون فيه، فهو الىٰ اليوم عيد عندهم في بلاد الهند.

ثم إن بيدبا لما أخلىٰ فكره من اشتغاله بدبشليم، تفرغ لوضع كتب السياسة ونشط لها، فعمل كتبًا كثيرة، فيها دقائق الحيل، ومضىٰ الملك علىٰ ما رسم له بيدبا من حسن السيرة والعدل في الرعية، فرغبت اليه الملوك الذين كانوا في نواحيه، وانقادت له الأمور علىٰ استوائها، وفرحت به رعيته وأهل مملكته، ثم إن بيدبا جمع تلاميذه فأحسن صلتهم، ووعدهم وعداً جميلاً وقال لهم: لست أشك إنه وقع في نفوسكم وقت دخولي علىٰ الملك أن قلتم إن بيدبا قد ضاعت حكمته، وبطلت فكرته، إذ عزم الدخول علىٰ هذا الجبار الطاغي، فقد علمتم نتيجة رأيي، وصحة فكري، وإني لم آته جهلاً به، لأني كنت أسمع الحكماء قبلي تقول: إن الملوك لها سورة[٨٩] كسورة الشراب، فالملوك لا تفيق من السورة الا بمواعظ العلماء، والواجب علىٰ العلماء تقويم الملوك بألسنتها، وتأديبهم بحكمتها، وإظهار الحجة البينة اللازمة لهم، ليرتدعوا عما هم عليه من الاعوجاج، والخروج عن العدل، فوجدت ما قالت العلماء فرضًا واجبًا علىٰ الحكماء لملوكهم ليوقظوهم من رقدتهم، كالطبيب الذي يجب عليه في صناعته حفظ الأجساد علىٰ صحتها، أو ردها الىٰ الصحة،

(٨٨) أي يسترد الحقوق من الأقوياء للضعفاء.

(١٩) أي غضبة أو حدة.

فكرهت أن أموت أو يموت وما يبقىٰ علىٰ الأرض إلا من يقول: إنه كان بيدبا الفيلسوف في زمان دبشليم الطاغي، فلم يرده عما كان عليه، فإن قال قائل: إنه لم يمكنه كلامه خوفًا علىٰ نفسه. قالوا: كان الهرب ممنه ومن جواره أولىٰ به، والانزعاج[٩٠] عن الوطن شديد، فرأيت أن أجود بحياتي، فأكون قد أتيت فيما بيني وبين الحكماء عذراً، فحملتها علىٰ التغرير[٩١] أو الظفر بما أُريده، وكان من ذلك ما انتم معاينوه، فإن يقال في بعض الامثال: إنه لم يبلغ أحد مرتبة إلا بأحدىٰ ثلاث: أما بمشقة تناله في نفسه، وإما بوضيعة في ماله أو بوكس في دينه، ومن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب، وإن الملك دبشليم قد بسط لساني في أن أضع كتابًا فيه ضروب الحكمة، فليضع كل واحد منكم شيئًا في أي فن يشاء، وليعرضه علي لأنظر مقدار عقله، وأين بلغ من الحكمة فهمه، فقالوا: أيها الحكيم الفاضل، واللبيب العاقل، والذي وهب لك ما منحك من الحكمة والعقل والأدب والفضيلة، ما خطر هذا بقلوبنا ساعة قط، وأنت رئيسنا وفاضلنا، وبك شرفنا وعلىٰ يديك انتعشنا، لكن سنجهد أنفسنا فيما أمرت. ومكث الملك علىٰ ذلك من حسن السيرة زمانًا يتولىٰ ذلك له بيدبا ويقوم به.

ثم إن الملك دبشليم لما استقر له الملك، وسقط عنه النظر في أمور الأعداء بما كفاه ذلك بيدبا، صرف همته إلىٰ النظر في الكتب التي وضعتها فلاسفة الهند لآبائه وأجداده، فوقع في نفسه أن يكون له أيضًا كتاب مشروح يُنسب إليه، وتذكر فيه أيامه كما ذُكر آباؤه وأجداده من قبله، فلما عزم علىٰ ذلك، علم أنه لا يقوم بذلك إلا بيدبا، فدعاه وخلا به، وقال له: يا بيدبا أنت حكيم الهند وفيلسوفها، وإني فكرت ونظرت في خزائن الحكمة التي كانت للملوك من قبلي، فلم أرَ فيهم أحداً إلا وقد

(٩٠) أي الحركة.

(٩١) التغرير بمعنى التعريض للمخاطر.

وضع كتابًا يذكر فيه أيامه وسيرته، وينبئ عن أدبه وأهل مملكته، فمنه ما وضعته الملوك لأنفسها، وذلك لفضل حكمة فيها، ومنها ما وضعته حكماؤها، وأخاف أن يلحقني ما لحق أولئك مما لا حيلة لي فيه، ولا يوجد في خزائن كتبي كتاب أذكر به من بعدي، وأنسب إليه كما ذكر من كان قبلي كتبهم، وقد أحببت أن تضع لي كتابًا بليغًا تستفرغ فيه عقلك، يكون ظاهره سياسة العامة وتأديبها، وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية علىٰ طاعة الملك وخدمته، فيسقط بذلك عني وعنهم الكثير مما نحتاج إليه في معاناة الملك، وأريد أن يبقىٰ هذا الكتاب بعدي ذكراً علىٰ غابر الدهور. فلما سمع بيدبا كلامه خر له ساجداً، ورفع رأسه وقال: أيها الملك السعيد جده، علا نجمك، وغاب نحسك، ودامت أيامك، إن الذي قد طبع عليه الملك من جودة القريحة ووفور العقل حركة لعالي الأمور، وسمت به نفسه وهمته إلىٰ أشرف المراتب منزلة، وأبعدها غاية، أدام الله سعادة الملك وأعانه علىٰ ما عزم من ذلك، وأعانني علىٰ بلوغ مراده، فليأمر الملك بما شاء من ذلك، فإني صابر علىٰ غرضه، مُجتهد فيه برأيي. فقال له الملك: يا بيدبا لم تزل موصوفًا بحسن الرأي وطاعة الملوك في أمورهم وقد اختبرت منك ذلك، واخترت أن تضع هذا الكتاب، وتعمل فيه فكرك، وتجهد فيه نفسك، بغاية ما تجد إليه السبيل، وليكن مشتملاً علىٰ الجد والهزل، واللهو والحكمة والفلسفة، فسجد له بيدبا وقال: قد أجبت الملك أدام الله أيامه إلىٰ ما أمرني به، وجعلت بيني وبينه أجلاً[92]. قال دبشليم: وكم هو الأجل؟ فقال بيدبا: سنة. قال: قد أجلتك. وأمر له بجائزة سنية تعينه علىٰ عمل الكتاب، فبقىٰ بيدبا متفكراً في الأخذ فيه[93]. وفي أي صورة يبتدئ في وضعه، ثم إن بيدبا جمع تلاميذه وقال لهم: إن الملك قد ندبني لأمر

(٩٢) أي حددت بيننا موعداً.
(٩٣) أي الشروع في الكتاب.

فيه فخري وفخركم وفخر بلادكم، وقد جمعتكم لهذا الأمر. ثم وصف لهم ما سأل الملك من أمر الكتاب، والغرض الذي قصده فيه، فلم يقع لهم الفكر فيه، فلما لم يجد عندهم ما يريده، فكر بفضل حكمته، وعلم أن ذلك الأمر إنما يتم باستفراغ العقل، وإعمال الفكر، فقال: أرىٰ السفينة لا تجري في البحر أي بالملاحين، لأنهم يعدلونها وانما تسلك اللجة[٩٤] بمدبرها الذي تفرد بإمرتها، ومتىٰ شُحنت بالركاب الكثيرين وكثر ملاحوها، لم يؤمن عليها من الغرق، ولم يزل يفكر في ما يعمله في باب الكتاب حتىٰ وضعه علىٰ الانفراد بنفسه، مع رجل من تلاميذه كان يثق به، فخلا به منفردا معه، بعد أن أعد شيئًا من الورق الذي كانت تكتب عليه الهند، ومن القوت ما يقوم به وتلميذه تلك المدة، وجلسا في مقصورة وردا عليهما الباب، ثم بدآ في نظم الكتاب وتصنيفه، ولم يزل هو يملي وتلميذه يكتب، ويراجع هو فيه، حتىٰ استقر الكتاب علىٰ غاية الإتقان والإحكام، ورتب فيه أربعة عشر بابًا، كل باب منها قائم بنفسه، وفي كل باب مسألة والجواب عنها، ليكون للنظر فيه حظ من الهداية، وضمن تلك الأبواب كتابًا واحداً وسماه كتاب كليلة ودمنة، ثم جعل كلامه علىٰ ألسنة البهائم والسباع والطير، ليكون ظاهره لهو للخواص والعوام، وباطنه رياضة لعقول الخاصة، وضمنه أيضًا ما يحتاج إليه الإنسان من سياسة نفسه وأهله وخاصته، وجميع ما يحتاج إليه من أمر دينه ودنياه، وآخرته وأولاه، ويحضه علىٰ حسن طاعته للملوك ويجنبه ما تكون في مجانبته خير له، ثم جعله باطنًا وظاهراً، كرسم سائر الكتب التي برسم الحكمة، فصار الحيوان لهواً، وما ينطق به حكمة وأدبًا، فلما ابتدأ بيدبا بذلك جعل أول الكتاب وصف الصديق، وكيف يكون الصديقان، وكيف تقطع المودة الثابتة بينهما بحيلة ذي النميمة، وأمر

(٩٤) الحد.

تلميذه أن يكتب على لسان بيدبا مثل ما كان الملك شرطه، في أن جعله لهواً وحكمة، فذكر بيدبا أن الحكمة متى دخلها كلام النقلة أفسدها واستجهل حكمتها، فلم يزل هو وتلميذه يعملان الفكر فيما سأله الملك، حتى فتق لهما العقل أن يكون كلامهما على لسان بهيمتين، فوقع لهما موضع اللهو والهزل بكلام البهائم، وكانت الحكمة ما نطقا به، فأصغت الحكماء إلى حكمه، وتركوا البهائم واللهو، وعلموا أنها السبب الذي وضع لهم، ومالت الجهال عجباً من محاورة بهيمتين، ولم يشكوا في ذلك، واتخذوه لهواً، وتركوا معنى الكلام أن يفهموه، ولم يعلموا الغرض الذي وضع له، لأن الفيلسوف إنما كان غرضه في الباب الأول أن يخبر أن يخبر عن تواصل الإخوان، وكيف تتأكد المودة بينهم على التحفظ من أهل السعاية[٩٥]، والتحرز ممن يوقع العداوة بين المتحابين، ليجر بذلك نفعاً إلى نفسه، فلم يزل بيدبا وتلميذه في المقصورة، حتى استتما عمل الكتاب في مدة سنة، فلما أتم الحول[٩٦] أنفذ إليه الملك أن قد جاء الوعد فماذا صنعت؟ فأنفذ إليه بيدبا: إني على ما وعدت الملك، فليأمرني بحمله، بعد أن يجمع أهل مملكته، لتكون قراءة هذا الكتاب بحضرتهم. فلما رجع الرسول إلى الملك سُر بذلك، ووعده يوماً يجمع فيه أهل المملكة، ثم نادى في أقاصي بلاد الهند ليحضروا قراءة الكتاب، فلما كان ذلك اليوم، أمر الملك أن ينصب لبيدبا سرير مثل سريره، وكراسٍ لأبناء الملوك والعلماء، وأنفذ فأحضره، فلما جاءه الرسول قام فلبس الثياب التي كان يلبسها إذا دخل على الملوك، وهي المسوح السود، وحمل الكتاب تلميذه، فلما دخل على الملك وثب الخلائق بأجمعهم، وقام الملك شاكراً، فلما قرب من الملك سجد له ولم يرفع رأسه، فقال له الملك: يا بيدبا ارفع رأسك، فإن هذا اليوم يوم

(٩٥) السعاية هي النميمة.
(٩٦) الحول أي مدة سنة.

هناءة وفرح وسرور. وأمره أن يجلس، وحين جلس لقراءة الكتاب سأله عن معنىٰ كل باب من أبوابه، وإلىٰ أي شيء قصد فيه، فأخبره بغرضه فيه وفي كل باب، فازداد الملك منه تعجباً وسروراً، وقال له: يا بيدبا ما عدوت الذي في نفسي، وهذا الذي كنت أطلب، فاطلب ما شئت وتحكم. فدعا له بيدبا بالسعادة وطول الجد، وقال: أيها الملك أما المال فلا حاجة لي فيه، وأما الكسوة فلا أختار علىٰ لباسي هذا شيئًا، ولست أخلي الملك من حاجة. فقال الملك: يا بيدبا ما حاجتك؟ فكل حاجة لك من قبلنا مقضية. قال: يأمر الملك أن يدون كتابي هذا كما دون آباؤه وأجداده كتبهم، ويأمر بالمحافظة عليه، فإني أخاف أن يخرج من بلاد الهند، فيتناوله أهل فارس إذا علموا به. فالملك يأمر أن لا يخرج من بيت الحكمة. ثم دعىٰ الملك بتلاميذه وأحسن لهم الجوائز، ثم إنه لما ملك كسرىٰ أنشروان[٩٧] كان مستأثراً بالكتب والعلم والأدب والنظر في أخبار الأوائل، ووقع له خبر الكتاب، فلم يقر قراره حتىٰ بعث برزويه الطبيب وتلطف حتىٰ أخرجه من الهند، فأقره[٩٨] بلاد فارس.

(٩٧) في مصادر التراث العرب نجد ما يأتي تعريف بسيرة هذا الملك: (أنوشروان بن قباذ لما تولى كان صغيراً فلما استقل وجلس على السرير أعاد آل المنذر إلى الحيرة وطرد الحارث عنها وقتل مزدك بين يديه وأحرق جيفته ونادى بإباحة دماء المزدكية فقتل منهم في ذلك اليوم خلقاً كثيراً وأباح دماء المانوية أيضاً وقتل منهم خلق كثير وثبتت ملة المجوسية القديمة وفتح الإسكندرية وتوجه إلى عدن فعسكر هناك من ناحية البحر بين جبلين بالصخور وعمد الحديد وكان مكرماً للعلماء محباً للعلم وفي أيامه ترجم كتاب كليلة ودمنة وترجمه من لسان اليهود وجعله يضرب الأمثال ويحتاج إلى فهم دقيق). لقطة العجلان مما تمس إلى معرفته حاجة الإنسان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥، ص ١٠١.

(٩٨) أي جعل مستقره.

باب بعثة برزويه إلى الهند

أما بعد، فإن الله خلق الخلق برحمته، ومن على عباده بفضله وكرمه، ورزقهم ما يقدرون به على إصلاح معايشهم في الدنيا، ويدركون به استنقاذ أرواحهم من العذاب في الآخرة، وأفضل ما رزقهم الله تعالى ومن به عليهم العقل، الذي هو الدعامة لجميع الأشياء، والذي لا يقدر أحد في الدنيا على إصلاح معيشته، ولا إحراز نفع ودفع ضرر إلا به، وكذلك طالب الآخرة المجتهد في العمل المنجي به روحه لا يقدر على إتمام عمله وإكماله إلا بالعقل، الذي هو سبب كل خير ومفتاح كل سعادة، فليس لأحد غنى عن العقل، والعقل مكتسب بالتجارب والأدب، وله غريزة مكنونة في الإنسان كامنة كالنار في الحجر، لا تظهر ولا يُرى ضوؤها حتى يقدحها قادح من الناس، فإذا قُدحت ظهرت طبيعتها، وكذلك العقل كامن في الإنسان لا يظهر حتى يُظهره الأدب وتقويه التجارب، ومن رزق العقل ومُمن به عليه، وأعين على صدق قريحته بالأدب، حرص على طلب سعد جده، وإدراك في الدنيا أمله، وحاز في الآخرة ثواب الصالحين، وقد رزق الله الملك السعيد أنشروان من العقل أفضله، ومن العلم أجزله، ومن المعرفة في الأمور أصوبها، ومن الأفعال أسدها، ومن البحث عن الأصول والفروع أنفعه، وبلغه من فنون اختلاف العلم، وبلوغ منزلة الفلاسفة، ما لم يبلغه ملك قط من الملوك قبله، حتى كان فيما طلب وبحث عنه من العلم أن بلغه كتاب بالهند، علم أنه أصل كل أدب، ورأس كل علم، والدليل على كل منفعة، ومفتاح عمل الآخرة وعلمها،

ومعرفة النجاة من هولها، فأمر الملك وزيره بزرجمهر[٩٩] أن يبحث له عن أديب عاقل من اهل مملكته، بصير باللسان الفارسي، ماهر في كلام الهند، ويكون بليغًا باللسانيين جميعًا، حريصًا على طلب العلم، مجتهداً في استعمال الأدب، مبادراً في طلب العلم والبحث عن كتب الفلسفة، فأتاه برجل أديب كامل العقل والأدب، معروف بصناعة الطب، ماهراً بالفارسية والهندية، يقال له برزويه[١٠٠]، فلما دخل عليه سجد بين يديه، فقال له الملك: يا برزويه إني قد اخترتك لما بلغني من فضلك وعلمك وعقلك، وحرصك على طلب العلم حيث كان، وقد بلغني عن كتاب بالهند مخزون في خزائنهم، وقص عليه ما بلغه عنه، وقال له: تجهز فإني مُرحلك إلى أرض الهند، فتلطف بعقلك وحسن أدبك وناقد رأيك، لاستخراج هذا الكتاب من خزائنهم ومن قبل علمائهم، فتستفيد بذلك وتفيدنا، وما قدرت عليه من كتب الهند مما ليس في خزائننا منه شيء فاحمله معك، وخذ معك من المال ما تحتاج اليه، وعجل في ذلك ولا تقصر في طلب العلوم

---

(٩٩) لا يقدم كتاب كليلة ودمنة معلومات موسعة عن شخصية بزرجمهر. لكن نعثر في أحد الكتب العربية عن سيرته ما يأتي: (بزرجمهر ابن البختكان وزير كسرى أنوشروان وصاحب خزانة كتبه، وهو الذي جلب إليه كتاب كليلة ودمنة من الهند. وألف كتاباً في سيرة أنوشروان تولى فيه تقريظه، وسماه كتاب العدل فحظي بذلك عنده، وهو منشئ كتاب مزدك، الذي هو مسرح كل أديب ومخيلة كل كاتب، يتنافسون في اكتتابه، ويديمون مطالعته لما يكتسبون من آدابه، ويحتذون من أمثلته، ولم يزل بزرجمهر في رسم من يدعى رأس الكتاب، بقية دولة أنوشروان إلى أن قتله أبرويز، فكتب إليه أبرويز: جنت لك ثمرة العلم القتل. فقال بزرجمهر: لما كان معي الجد كنت أنتفع بثمرة العلم، وإن فقدت كثيراً من الخير فقد استرحت من كثير من الشر). محمد بن عبد الله الحميري، الروض المعطار في أخبار الأقطار، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨٠. وغير ما سبق توجد في بعض كتب التراث العربي مقولات وحكم عدة تنسب لبزرجمهر.

١٠٠ – تقدم بعض المصادر العربية هوية أخرى للشخص الذي تولى نقل كتاب كليلة ودمنة من الهند الى بلاد فارس. فنجد في مسالك الابصار في ممالك الامصار ج٩ ص ٤٦٩ إن من قام بتلك المهمة هو شخص يدعى تياذورس. والذي كان (إمام الحكماء في دولة الفرس، والماضي فيهم زمانه، المضيء كأنه نية العرس. وكان على كونه ذمة فيهم ومولياً أمة تنافيهم تكرمه ملوك آل ساسان. وتضعه من جني جنايتهم ثمر الإحسان، وكان يتقرب إليهم بما يلائم، ويقرب لديهم كل مني كان لا يطمع بها منهم نائم. قال ابن ابي أصيبعة:» كان نصرانياً، وله معرفة جيدة بصناعة الطب. وبنى له سابور ذو الأكتاف البيع في بلاده، وكان عالما بالصناعة، موسوما بها، متميزا في زمانه، فاضلا في علوم الفرس والهند. وهو الذي جلب كتاب كليلة ودمنة إلى أنوشروان، وترجمه له».

وإن أكثرت فيه النفقة، فإن جميع ما في خزائني مبذول لك في طلب العلوم. وأمر بإحضار المنجمين فاختاروا له يومًا يسير فيه، وساعة صالحة يخرج فيها، وحمل معه من المال عشرين جرابًا[١٠١]، كل جراب فيه عشرة آلاف دينار، فلما قدم برزويه بلاد الهند طاف بباب الملك ومجالس السوقة[١٠٢]، وسأل عن خواص الملك والأشراف من العلماء والفلاسفة، فجعل يغشاهم في منازلهم، ويتلقاهم بالتحية، ويخبرهم إنه رجل غريب قدم بلادهم لطلب العلوم والآداب، وإنه محتاج إلى معاونتهم في ذلك، فلم يزل كذلك زمانًا طويلاً يتأدب من علماء الهند بما هو عالم بجميعه، وكأنه لا يعلم منه شيئًا، وهو فيما بين ذلك يستر غايته وحاجته. وأتخذ في تلك الحالة لطول مقامه أصدقاء كثير من الأشراف والعلماء والفلاسفة والسوقة ومن أهل كل طبقة وصناعة، وكان قد اتخذ من بين أصدقائه رجلاً واحداً قد اتخذه لسره وما يحب مشاورته فيه، وذلك للذي ظهر له من فضله وأدبه، واستبان له من صحة إخائه، وكان يشاوره في كل الأمور، ويرتاح إليه في كل ما أهمه، إلا إنه كان يكتم منه الأمر الذي قدم من أجله كي يبتليه ويختبره، وينظر هل هو أهل أن يطلعه على سره، فقال له يومًا وهما جالسان: يا أخي ما أريد أن أكتمك من أمري فوق الذي كتمتك، فاعلم إني لأمر قد قدمت، وهو غير الذي يظهر مني، والعاقل يكتفي من الرجال بالعلامات من نظرة، حتى يعلم سر نفسه وما يضمر في قلبه، فقال له الهندي: إني وإن لم أكن بدأتك وأخبرتك بما جئت له، وإياه تريد، وإنك تكتم أمراً تطلبه، وتظهر غيره، ما خفي علي ذلك منك، ولكني لرغبتي في إخائك كرهت أن أواجهك به، وإنه قد استبان ما تخفيه مني. فأما إذا قد أظهرت ذلك وأفصحت به وبالكلام فيه،

(١٠١) الجراب نوع من الأكياس.
(١٠٢) أي عوام الشعب.

فإني مخبرك عن نفسك، ومظهر لك سريرتك، ومعلمك بحالك التي قدمت لها، فإنك قدمت بلادنا لتسلبنا كنوزنا النفيسة، فتذهب بها إلىٰ بلادك، وتسر بها ملكك، وكان قدومك بالمكر والخديعة، ولكني لما رأيت صبرك ومواظبتك علىٰ طلب حاجتك، والتحفظ من أن يسقط منك الكلام، مع طول مكثك عندنا، بشيء يستدل به علىٰ سريرتك وأمورك، ازددت رغبة في إخائك، وثقة بعقلك، فأحببت مودتك، فغني لم أرَ في الرجال رجلاً أرصن[103] منك عقلًا، ولا أحسن أدبًا، ولا أصبر علىٰ طلب العلم، ولا أكتم لسره منك، ولا سيما في بلاد غربة، ومملكة غير مملكتك، عند قوم لا تعرف سنتهم، وإن عقل الرجال ليبان في ثمان خصال: الأولىٰ الرفق، والثانية أن يعرف الرجل نفسه فيحفظها، والثالثة الطاعة للملوك، والتحري لما يرضيهم، والرابعة معرفة الرجل موضع سره، وكيف ينبغي أن يطلع عليه صديقه، والخامسة أن يكون أديبًا ملق اللسان[104]، والسادسة أن يكون لسره وسر غيره حافظًا، والسابعة أن يكون علىٰ لسانه قادراً، فلا يتكلم إلا بما يأمن تبعته، والثامنة إن كان بمحفل فلا يتكلم إلا بما يسأل عنه، فمن أجتمعت فيه هذه الخصال كان هو الداعي الخير إلىٰ نفسه، وهذه الخصال كلها قد اجتمعت فيك، وبانت لي منك، فالله تعالىٰ يحفظك ويعينك علىٰ ما قدمت له، فمصادقتك إياي، وإن كانت تسلبني كنزي وفخري وعلمي، تجعلك أهلاً لأن تسعف حاجتك، وتشفع بطلبتك[105]، وتعطىٰ سؤلك[106]. فقال له برزويه: إني كنت قد هيأت كلامًا كثيراً، وشعبت له شعوبًا[107]، وأنشأت له أصولًا وطرقًا، فلما

(١٠٣) الرصانة هي الثبات.
(١٠٤) أي ودود اللسان.
(١٠٥) مرادك أو مطلوبك.
(١٠٦) غايتك.
(١٠٧) أي تفرعت.

انتهيت إلىٰ ما بدأتني به من اطلاعك علىٰ أمري الذي قدمت له، وألقيته علي من ذات نفسك، ورغبتك فيما ألقيت من القول، اكتفيت باليسير من الخطاب معك، وعرفت الكبير من أموري بالصغير من الكلام، واقتصرت به معك علىٰ الإيجاز، ورأيت من إسعافك إياي بحاجتي ما دلني علىٰ كرمك وحسن وفائك، فإن الكلام إذا أُلقي إلىٰ الفيلسوف، والسر إذا استودع إلىٰ اللبيب[١٠٨] الحافظ، فقد حُصن وبلغ به نهاية أمل صاحبه، كما يحصن الشيء النفيس في القلاع الحصينة. فقال الهندي: لا شيء أفضل من المودة، ومن خلصت مودته كان أهلاً أن يخالطه الرجال بنفسه، ولا يدخر عنه شيئًا، ولا يكتمه سراً، فإن حفظ السر رأس الأدب، فإذا كان السر عند الأمين الكتوم، فقد أُحترز من التضييع، مع إنه خليق ألا يتكلم به، ولا يتم سر بين اثنين قد علماه وتفاوضاه، فإذا تكلم بالسر اثنان فلا بد من ثالث من جهة أحدهما، فإذا صار إلىٰ ثلاثة فقد شاع وذاع، حتىٰ لا يستطيع صاحبه أن يجحده، ويكابر عنه، كالغيم إذا كان متقطعًا في السماء، فقال قائل: هذا غيم متقطع. لا يقدر أحد علىٰ تكذيبه، وأنا قد يداخلني من مودتك وخلطتك[١٠٩] سرور لا يعدله شيء، وهذا الأمر الذي تطلبه مني أعلم إنه من الأسرار التي لا تكتم، فلا بد أن يفشو ويظهر، حتىٰ يتحدث به الناس، فإذا فشا فقد سعيت في هلاكي هلاكًا لا أقدر علىٰ الفداء منه بالمال وإن كثر، فإن ملكنا فظ غليظ، يعاقب علىٰ الذنب الصغير أشد العقاب، فكيف بمثل هذا الذنب العظيم؟ وإذا حملتني المودة التي بيني وبينك فأسعفتك بحاجتك، لم يرد عقابه عني شيء. فقال برزويه: إن العلماء قد مدحت الصديق إذا كتم سر صديقه وأعانه علىٰ الفوز، وهذا الأمر الذي قدمت له. لمثلك ذخرته، وبك أرجو

(١٠٨) اللبيب هو صاحب اللب أي العقل.

(١٠٩) الاختلاط بك ومعاشرتك.

بلوغه، وأنا واثق بكرم طباعك، ووفرة عقلك، وأعلم إنك لا تخشىٰ مني ولا تخاف أن أبديه، بل تخشىٰ أهل بيتك الطائفين بك وبالملك أن يسعوا بك إليه، وأنا أرجو أن يشيع شيء من هذا الأمر، لأني انا ظاعن[110]، وأنت مقيم، وما أقمت فلا ثالث بيننا. فتعاهدا علىٰ هذا جميعًا، وكان الهندي خازن الملك، وبيده مفاتيح خزائنه، فأجابه إلىٰ ذلك الكتاب وإلىٰ غيره من الكتب. فأكب علىٰ تفسيره ونقله من اللسان الهندي، إلىٰ اللسان الفارسي، وأتعب نفسه، وأنصب بدنه ليلاً ونهاراً، وهو مع ذلك وجل فزع[111] من ملك الهند، خائفًا علىٰ نفسه من أن يذكر الملك الكتاب في وقت ولا يصادفه في خزائنه، فلما فرغ من استنساخ الكتاب وغيره مما أراد من سائر الكتب، كتب إلىٰ أنشروان يعلمه بذلك، فلما وصل إليه الكتاب، سُر بذلك سروراً شديداً، ثم تخوف معاجلة المقادير أن تنغص عليه فرحته، فكتب إلىٰ برزويه يأمره بتعجيل القدوم، فسار برزويه متوجهًا نحو كسرىٰ، فلما رأىٰ الملك ما مسه من الشحوب[112]، والتعب والنصب،

قال له: أيها العبد الناصح الذي يأكل ثمرة ما قد غرس، أبشر وقر عينًا، فإني مشرفك وبالغ بك أفضل درجة. وأمره أن يريح بدنه سبعة أيام، فلما كان اليوم الثامن، أمر الملك أن يجمع إليه الأمراء والعلماء، فلما اجتمعوا أمر برزويه بالحضور، فحضر ومعه الكتب، ففتحها وقرأها علىٰ من حضر من أهل المملكة، فلما سمعوا ما فيها من العلم فرحوا فرحًا شديداً، وشكروا الله علىٰ ما رزقهم، ومدحوا برزويه وأثنوا عليه، وأمر الملك أن تفتح خزائن اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة، وأمره أن يأخذ من الخزائن ما شاء من مال أو كسوة. وقال: يا برزويه إني

(١١٠) أي راحل.
(١١١) أي بلغ أقصىٰ درجت الخوف.
(١١٢) الشحوب هو تغير لون الوجه من تعب او غيره.

قد أمرت أن تَجلس علىٰ سرير مثل سريري هذا، وتلبس تاجًا، وتترأس علىٰ جميع الأشراف. فسجد برزويه للملك، ودعا له وطلب من الله وقال: أكرم الله تعالىٰ الملك كرامة الدنيا والآخرة، وأحسن عني ثوابه وجزاءه، فإني بحمد الله مستغنٍ عن المال بما رزقني الله علىٰ يد الملك السعيد الجد، العظيم الملك، ولا حاجة لي بالمال، لكن لما كلفني الملك ذلك وعلمت أنه يسره، أنا أمضي إلىٰ الخزائن فآخذ منها طلبًا لمراضاته وامتثالاً لأمره. ثم قصد خزانة الثياب، فأخذ منها تختًا[113] من طرائف خراسان من ملابس الملوك، فلما قبض برزويه ما اختاره ورضيه من الثياب قال: أكرم الله الملك ومد في عمره أبداً، لا بد أن الإنسان إذا أُكرم وجب عليه الشكر، وإن كان قد استوجبه تعب ومشقة، فقد كان فيهما رضا الملك، وأما أنا فما لقيته من عناء وتعب ومشقة، لما أعلم أن لكم فيه الشرف يا أهل هذا البيت، فإني لم أزل إلىٰ هذا اليوم تابعًا لرضاكم، وأرىٰ العسير فيه يسيراً، والشاق هينًا، والنصب[114] والأذىٰ سروراً ولذة، لما أعلم أن لكم فيه رضًا وقربة عندكم، ولكني أسألك أيها الملك حاجة تسعفني بها، وتعطيني فيها سؤلي، فإن حاجتي يسيرة، وفي قضائها فائدة كثيرة. فقال انشروان: قل فكل حاجة لك من قبلنا مقضية، فإنك عندنا عظيم، ولو طلبت مشاركتنا في ملكنا لفعلنا، ولم نرد طلبتك، فكيف ما سوىٰ ذلك؟ فقل ولا تحتشم[115]، فإن الأمور كلها مبذولة لك. قال برزويه: أيها الملك لا تنظر إلىٰ عنائي في رضاك، وانكماشي[116] في طاعتك، فإنما انا عبدك يلزمني بذل مهجتي في رضاك، ولو لم تجزني[117] لم يكن ذلك عندي عظيمًا ولا واجبًا علىٰ

---

(113) التخت: شبه بالصندوق، معد لحفظ الثياب.
(114) أي التعب.
(115) أي لا تخجل.
(116) الانكماش في الأمر هو غاية الجد في الالتزام به.
(117) لم تمنحني أي جائزة.

الملك، ولكن لكرمه وشرف منصبه عمد إلىٰ مجازاتي، وخصني وأهل بيتي بعلو المرتبة ورفع الدرجة، حتىٰ لو قدر أن يجمع لنا بين شرف الدنيا والآخرة لفعل، فجزاه الله عنا أفضل الجزاء. قال انوشروان: أذكر حاجتك، فعلىٰ ما يسرك. فقال برزويه: حاجتي أن يأمر الملك أعلاه الله وزيره بزرجمهر بن البختكان، ويقسم عليه أن يعمل فكره، ويجمع رأيه، ويجهد طاقته، ويفرغ قلبه في نظم تأليف كلام متقن محكم، ويجعله بابًا يذكر فيه أمري ويصفو حالي، ولا يدع من المبالغة في ذلك أقصىٰ ما يقدر عليه، ويأمره إذا استتمه[118] أن يجعله أول الأبواب التي تقرأ قبل باب الأسد والثور، فإن الملك إن فعل ذلك، فقد بلغ بي وبأهلي غاية الشرف أعلىٰ المراتب، وأبقىٰ لنا ما لا يزال ذكره باقيًا علىٰ الأبد، حيثما قُرئ هذا الكتاب.

فلما سمع كسرىٰ أنوشروان والعظماء مقالته وما سمت إليه نفسه من محبة إبقاء الذكر، استحسنوا طلبته واختياره، فقال كسرىٰ: حبًا وكرامة يا برزويه، إنك لأهل أن تسعف بحاجتك، فما أقل ما قنعت به وأيسره عندنا، وإن كان خطره[119] عندك عظيمًا. ثم أقبل أنوشروان علىٰ وزيره بزرجمهر فقال له: قد عرفت مناصحة برزويه لنا، وتجشمه[120] المخاوف والمهالك فيما يقربه منا، وإتعابه بدنه فيما يسرنا، وما أتىٰ به إلينا من المعروف، وما أفادنا الله علىٰ يديه من الحكمة والأدب الباقي لنا فخره، وما عرضنا عليه من خزائننا لنجزيه بذلك علىٰ ما كان منه، فلم تمل نفسه إلىٰ شيء من ذلك، وكان بغيته وطلبته منا أمرًا يسيرًا رآه هو الثواب منا له والكرامة الجليلة عنده، فإني أحب أن تتكلم في ذلك وتسعفه بحاجته وطلبته، وأعلم إن ذلك مما يسرني، ولا تدع شيئًا من

---

(١١٨) أكمله.

(١١٩) بمعنى قدره وشأنه.

(١٢٠) تجشم الأمر يعني تكفل به رغم صعوبته ومشقته.

الاجتهاد والمبالغة إلا بلغته، وإن نالتك فيه مشقة، وهو أن تكتب باباً مضارعاً لتلك الأبواب التي في الكتاب، وتذكر فيه فضل برزويه، وكيف كان ابتداء أمره وشأنه، وتنسبه إليه وإلىٰ حسبه وصناعته، وتذكر فيه بعثته إلىٰ بلاد الهند في حاجتنا، وما أفدنا علىٰ يديه من هنالك، وشرفنا به وفُضلنا علىٰ غيرنا، وكيف كان حال برزويه وقدومه من بلاد الهند، فقل ما تقدر عليه من التقريظ والإطناب في مدحه، وبالغ في ذلك أفضل المبالغة، واجتهد في ذلك اجتهاداً يسر برزويه وأهل المملكة، وإن برزويه أهل لذلك مني ومن جميع أهل المملكة ومنك ايضاً، لمحبتك للعلوم، واجتهد أن يكون غرض هذا الكتاب الذي يُنسب إلىٰ برزويه أفضل من أغراض تلك الأبواب عند الخاص والعام، وأشد مشاكلة(١٢١) لحال هذا العلم، فإنك أسعد الناس كلهم بذلك، لانفرادك بهذا الكتاب، واجعله أول الأبواب، فإذا أنت عملته ووضعته في موضعه فأعلمني، لأجمع أهل المملكة وتقرأه عليهم، فيظهر فضلك واجتهادك في محبتنا، فيكون لك بذلك فخر. فلما سمع بزرجمهر مقالة الملك خر(١٢٢) له ساجداً وقال: أدام الله لك أيها الملك البقاء، وبلغك أفضل منازل الصالحين في الآخرة والأولىٰ، لقد شرفتني بذلك شرفاً باقياً إلىٰ الأبد. ثم خرج بزرجمهر من عند الملك، فوصف برزويه من أول يوم دفعه أبواه إلىٰ المعلم، ومضيه إلىٰ بلاد الهند في طلب العقاقير(١٢٣) والأدوية، وكيف تعلم خطوطهم ولغتهم، إلىٰ أن بعثه انوشروان إلىٰ الهند في طلب الكتاب، ولم يدع من فضائل برزويه وحكمته وخلائقه ومذهبه أمراً إلا نسقه، وأتىٰ به بأجود ما يكون من الشرح، ثم أعلم الملك بفراغه منه، فجمع انوشروان أشراف قومه وأهل مملكته، وأدخلهم إليه، وأمر بزرجمهر

---

(١٢١) أي أشد مشابهة.

(١٢٢) خر الشيء سقط.

(١٢٣) العقاقير جمع عقار، وهو العنصر الأصلي الذي تتكون منه الأدوية.

بقراءة الكتاب، وبرزويه قائم إلىٰ جانبه، وابتدأ بوصف برزويه حتىٰ انتهىٰ إلىٰ آخره. ففرح الملك بما أتىٰ بزرجمهر من الحكمة والعلم، ثم أثنىٰ الملك وجميع من حضر علىٰ بزرجمهر، وشكروه ومدحوه، وأمر له الملك بمال جزيل، وكسوة وحلي وأواني، فلم من ذلك شيئًا غير كسوة كانت من ثياب الملوك، ثم شكر له ذلك برزويه وقبل رأسه ويده، وأقبل برزويه علىٰ الملك وقال: أدام الله لك الملك والسعادة، فقد بلغت بي وبأهلي غاية الشرف بما أمرت به بزرجمهر من صنعه كتابًا في أمري وبقاء ذكري.

باب عرض الكتاب ترجمة عبد الله بن المقفع

هذا كتاب كليلة ودمنة، وهو مما وضعه علماء الهند من الأمثال والأحاديث التي ألهموا أن يدخلوا فيها أبلغ ما وجدوا من القول في النحو الذي أرادوا، ولم تزل العلماء من أهل كل ملة يلتمسون أن يعقل عنهم، ويحتالون في ذلك بصنوف من الحيل، ويبتغون إخراج ما عندهم من العلل، حتىٰ كان من تلك العلل وضع هذا الكتاب علىٰ أفواه البهائم والطير، فاجتمع لهم بذلك خلال، أما هم فوجدوا متصرفًا في القول وشعابًا يأخذون منها. وأما الكتاب فجمع حكمة ولهواً، فاختاره الحكماء لحكمته، والسفهاء للهوه، والمتعلم من الأحداث ناشط في حفظ ما صار إليه من أمر يربط في صدره[124] ولا يدري ما هو، بل عرف أنه قد ظفر من ذلك بمكتوب مرقوم[125] وكان كالرجل الذي لما استكمل الرجولية وجد أبويه قد كنزا له كنوزاً وعقدا له عقوداً استغنىٰ بها عن الكدح[126] فيما يعمله من أمر معيشته، فأغناه ما أشرف عليه من الحكمة عن الحاجة إلىٰ غيرهما من وجوه الأدب.

وينبغي لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه التي وضعت له، وإلىٰ أي غاية جرىٰ مؤلفه فيه عندما نسبه إلىٰ البهائم وأضافه إلىٰ غير مفصح[127]، وغير ذلك من الأوضاع التي جعلها أمثالًا، فإن قارئه متىٰ لم يفعل ذلك لم يدري ما أُريد بتلك المعاني، ولا أي ثمرة يجتني منها، ولا أي نتيجة تحصل له من مقدمات ما تضمنه هذا الكتاب، وإنه وإن كان غايته استتمام قراءته إلىٰ آخره دون معرفة ما يقرأ منه لم يعد عليه

(١٢٤) يربط في صدره أي يبقى في ذهنه.
(١٢٥) المرقوم هو ما احتواه رقيم، أي لوح أو ورق.
(١٢٦) التعب والسعي من أجل المعيشة.
(١٢٧) غير المفصح هو الحيوان الذي لا يجيد التعبير عن حاجته بالكلام أو الإشارات

شيء يرجع إليه نفعه، ومن استكثر من جمع العلوم وقراءة الكتب من غير إعمال الروية فيما يقرؤه، كان خليقًا ألا يصيبه إلا ما أصاب الرجل الذي زعمت العلماء أنه اجتاز ببعض المفاوز، فظهر له موضع آثار كنز، فجعل يحفر ويطلب، فوقع على شيء من عين وورق، فقال في نفسه: إن أنا أخذت في نقل هذا المال قليلاً طال علي، وقطعني الاشتغال بنقله وإحرازه عن اللذة بما أصبت منه، ولكن سأستأجر أقوامًا يحملونه إلى منزلي، وأكون انا آخرهم ولا يكون بقى ورائي شيء يشغل فكري بنقله، وأكون قد استظهرت[١٢٨] لنفسي في راحة بدني عن الكد بيسير أجرة أعطيهم إياها، ثم جاء بالحمالين فجعل يحمل كل واحد منهم ما يطيق، فينطلق به إلى منزله فيفوز به، حتى لم يبقَ من الكنز شيء، لا قليلاً ولا كثيراً، وإذا كل واحد من الحمالين قد فاز بما حمله لنفسه، ولم يكن له من ذلك إلا العناء والتعب، لأنه لم يفكر في آخر أمره، وكذلك من قرأ هذا الكتاب، ولم يفهم ما فيه، ولم يعلم غرضه ظاهراً أو باطنًا، ولم ينتفع بما بدا له من خطه ونقشه، كما لو أن رجلاً قُدم له جوز صحيح لم ينتفع به إلا أن يكسره، وكان أيضًا كالرجل الذي طلب علم الفصيح من كلام الناس، فأتى صديق له من العلماء، له علم بالفصاحة، فأعلمه حاجته إلى علم الفصيح، فرسم له صديقه في صحيفة صفراء فصيح الكلام وتصاريفه ووجوهه، فانصرف المتعلم إلى منزله، وجعل يكثر قراءتها ولا يقف على معانيها، ثم إنه جلس ذات يوم في محفل من أهل العلم والادب، فأخذ في محاورتهم، فجرت له كلمة أخطأ فيها، فقال له بعض الجماعة: إنك قد أخطأت، والوجه غير ما تكلمت به. فقال: كيف أخطأت وقد قرأت الصحيفة الصفراء وهي في منزلي؟ فكانت مقالته لهم أوجب للحجة عليه، وزاده ذلك قربًا من الجهل وبعداً عن الأدب.

(١٢٨) استظهرت أي اتخذت ظهيراً، وهو المعين أو المساعد.

ثـم إن العاقـل إذا فهـم هـذا الكتـاب وبلـغ نهايـة علمـه فيـه، ينبغـي لـه أن يعمـل بمـا علـم لينتفـع بـه، ويحمله مثالاً لا يحيد عنه، فإذا لـم يفعل ذلـك كان مثلـه كالرجـل الـذي زعمـوا أن سـارقًا تسـور[١٢٩] عليـه وهـو نائـم في منزلـه، فعلـم بـه وقـال: والله لأسـكتن حتـىٰ أنظـر مـاذا يصنـع، ولا أذعـره ولا أعلمـه أني علمـت بـه، فـإذا بلـغ مـراده قمـت إليـه، فنغصـت ذلـك عليـه، ثـم إنـه أمسـك عنـه[١٣٠] وجعـل السـارق يـتردد، وطـال تـردده في جمعـه مـا يجـده. فغلـب الرجـل النعـاس فنـام، وفـرغ اللـص ممـا أراد وأمكنـه الذهـاب. واسـتيقظ الرجـل، فوجـد اللـص قـد أخـذ المتـاع وفـاز بـه، فأقبـل علـىٰ نفسـه يلومهـا، وعـرف أنـه لـم ينتفـع بعلمـه باللـص، إذ لـم يسـتعمل في أمـره مـا يجـب، فالعلـم لا يتـم إلا بالعمـل، وهـو كالشـجرة والعمـل بـه كالثمـرة، وإنما صاحـب العلـم يقـوم بالعمـل لينتفـع بـه، وإن لـم يسـتعمل مـا يعلـم لا يسـمىٰ عالمـًا، ولـو أن رجـلاً كان عالمـًا بطريـق مخيـف ثـم سـلكه علـىٰ علـم بـه، سـمي جاهـلاً، ولعلـه إن حاسـب نفسـه وجدهـا قـد ركبـت أهـواء هجمـت بهـا فيمـا هـو أعـرف بضررهـا فيـه، وأذاهـا مـن ذلـك السـالك في الطريـق المخيـف الـذي قـد جهلـه، ومـن ركـب هـواه ورفـض مـا ينبغـي أن يعمـل بمـا جربـه هـو أو أعلمـه بـه غيـره، كان كالمريـض العالـم بـرديء الطعـام والشـراب، وجيـده وخفيفـه وثقيلـه، ثـم يحملـه الشـره علـىٰ أكل رديئـه وتـرك مـا هـو أقـرب الـىٰ النجـاة والتخلـص مـن علتـه، وأقـل النـاس عـذرا في تجنـب محمـود الأفعـال وارتـكاب مذمومهـا مـن أبصـر ذلـك وميـزه، وعـرف فضـل بعضـه علـىٰ بعـض، كمـا أنـه لـو أن رجليـن أحدهمـا بصيـر والآخـر أعمـىٰ سـاقهما الأجـل إلـىٰ حفـرة فوقعـا فيهـا، كانـا اذا صـارا في قاعهـا بمنزلـة واحـدة، غيـر أن البصيـر أقـل عـذراً عنـد النـاس مـن الضريـر، إذ كانـت لـه عينـان يبصـر بهمـا. وذلـك بمـا صـار إليـه جاهـلاً غيـر عـارف.

(١٢٩) تسور أي عبر سور بيته.
(١٣٠) أي تركه.

وعلىٰ العالم أن يبدأ بنفسه ويؤدبها بعلمه، ولا تكون غايته اقتناؤه العلم لمعاونة غيره، فيكون كالعين التي يشرب منها الناس وليس لها في ذلك شيء من المنفعة، وكدودة القز التي تحكم صنعة لا تنتفع منها، فينبغي لطالب العلم أن يبدأ بعظة نفسه، ثم عليه بعد ذلك أن يقبسه(١٣١)، فإن خلالاً(١٣٢) لا ينبغي لصاحب الدنيا أن يقتنيها أو يقتبسها، منها العلم والمال، ومنها اتخاذ المعروف(١٣٣)، وليس للعالم أن يعيب أمراً بشيء فيه مثله، فيكون كالأعمىٰ الذي يعير أعمىٰ بعماه، وينبغي لمن طلب أمراً أن يكون له فيه غاية ونهاية يعمل بها، ويقف عندها، ولا يتمادىٰ في الطلب، فإنه يقال: من سار إلىٰ غير غايته يوشك أن تنقطع به مطيته(١٣٤)، وإن كان حقيقاً أن لا يعني نفسه في طلب ما لا حد له، وما لم ينله أحد قبله، ولا يتأسف عليه، ولا يكون لدنياه مؤثراً علىٰ آخرته، فإن من لم يعلق قلبه بالغايات قلت حسرته عند مفارقتها، وقد يقال في أمرين إنهما يجملان(١٣٥) بكل أحد، أحدهما النسك(١٣٦)، والآخر المال الحلال، ولا يليق بالعاقل أن يؤنب نفسه علىٰ ما فاته وليس في مقدوره، فربما أتاح الله له ما يهنأ به ولم يكن في حسبانه، ومن أمثال هذا أن رجلاً كان به فاقة(١٣٧) وجوع وعري، فألجأه ذلك إلىٰ أن سأل أقاربه وأصدقاءه، فلم يكن عند أحدهم فضلٌ(١٣٨) يعود به عليه، فبينما هو ذات ليلة في منزله أبصر بسارق، فقال: والله ما في المنزل شيء أخاف عليه، فليجهد السارق جهده. فبينما السارق يجول إذ وقعت يده علىٰ خابية فيها حنطة، فقال السارق والله ما أحب أن يكون عنائي الليلة باطلاً، ولعلي لا أصل

(١٣١) أي أن يمنحه ويفيد به غيره.
(١٣٢) جمع خلة وهي الصفة، والخلال هي الصفات.
(١٣٣) بمعنىٰ تحسين الناس فضلاً لتعليمه لهم.
(١٣٤) أي يهلك الحيوان الذي يمتطيه.
(١٣٥) أي يليقان.
(١٣٦) أي التعبد.
(١٣٧) الفاقة هي الفقر.
(١٣٨) أي ما يفيض عن حاجتهم.

إلىٰ موضع آخر، ولكن سأحمل هذه الحنطة. ثم بسط قميصه ليصب فيه الحنطة، فقال الرجل: أيذهب هذا بالحنطة وليس ورائي غيرها؟ فيجتمع علي من العري وذهاب ما كنت أقتات به، وما تجتمع والله هاتان الخلتان علىٰ أحد إلا اهلكتاه. ثم صاح بالسارق، وأخذ هراوة[١٣٩] كانت عند رأسه، فلم يكن للسارق من حيلة إلا الهرب منه، وترك قميصه ونجا بنفسه، فغدا الرجل به كاسيًا، وليس ينبغي أن يركن الىٰ مثل هذا ويدع ما يجب عليه من الحذر والعمل في مثل هذا لإصلاح معيشته، ولا ينظر الىٰ من تواتيه المقادير وتساعده علىٰ غير التماس منه، لإن أولئك في الناس قليل. والجمهور منهم أتعب نفسه في الكد والسعي فيما يصلح أمره، وينال به ما أراد. وينبغي أن يكون حرصه علىٰ ما طاب كسبه وحسن نفعه، ولا يتعرض لما يجلب عليه العناء والشقاء، فيكون كالحمامة التي تفرخ الفراخ وتؤخذ فتذبح، ثم لا يمنعها ذلك من أن تعود فتفرخ في نفس موضعها، وتقيم بمكانها، فتؤخذ ثانية من فراخها فتذبح، وقد يقال: إن الله تعالىٰ جعل لكل شيء حداً يوقف عليه، ومن تجاوز في أشياء حدها أوشك أن يلحقه التقصير من بلوغها. ويقال: من كان سعيه في لآخرته ودنياه فحياته له وعليه. ويقال: في ثلاثة أشياء يجب علىٰ صاحب الدنيا إصلاحها وبذل جهده فيها، منها أمر معيشته، ومنها ما بينه وبين الناس، ومنها ما يكسبه الذكر الجميل بعده. وقد قيل في أمور من كُن فيه لم يستقم له عمل من التواني، ومنها تضييع الفرص، ومنها التصديق بكل مخبر بشيء عقله ولا يعرف استقامته فصدقه، وينبغي للعاقل أن يكون لهواه متهمًا، ولا يقبل من كل أحد حديثًا، ولا يتمادىٰ في الخطأ إذا ظهر له خطؤه. ولا يقدم علىٰ أمر حتىٰ يتبين له الصواب، وتتضح له الحقيقة، ولا يكون كالرجل الذي يحيد عن الطريق

(١٣٩) الهراوة هي العصي الضخمة.

فيستمر على الظلال، فلا يزداد في السير إلا جهداً، وعن القصد إلا بعداً، وكالرجل الذي تقذى عينه فلا يزال يحكها، وربما كان ذلك الحك سبباً في ذهابها، ويجب على العاقل أن يصدق بالقضاء والقدر، ويأخذ بالحزم، ويحب للناس ما يحب لنفسه، ولا يلتمس صلاح نفسه بفساد غيره، فإنه من فعل ذلك كان خليقاً أن يصيبه ما أصاب التاجر من رفيقه، فإنه يقال إنه كان هناك رجل تاجر، وكان له شريك، فاستأجرا حانوتاً، وجعلا متاعهما فيه، وكان أحدهما قريب المنزل من الحانوت، فأضمر في نفسه أن يسرق عدلاً من أعدال(١٤٠) رفيقه، ومكر الحيلة في ذلك، وقال: إن أتيت ليلاً لم آمن أن أحمل عدلاً من أعدالي، أو رزمة(١٤١) من رزمي ولا أعرفها، فيذهب عنائي وتعبي باطلاً. فأخذ رداءه وألقاه على العدل الذي أضمر أخذه، ثم انصرف إلى منزله، وجاء رفيقه بعد ذلك ليصلح أعداله، فوجد رداء شريكه على بعض أعداله، فقال: والله هذا رداء صاحبي، ولا أحسبه إلا قد نسيه، وما الرأي أن أدعه ها هنا، ولكن أجعله على رزمة من رزمه، فلعله يسبقني إلى الحانوت، فيجده حيث يحب. ثم أخذ الرداء فألقاه على عدل من أعدال رفيقه، وأقفل الحانوت ومضى إلى منزله، فلما جاء الليل أتى رفيقه ومعه رجل قد واطأه(١٤٢) على ما عزم عليه، وضمن له جعلاً(١٤٣) على حمله، فصار إلى الحانوت، فالتمس الرداء في الظلمة فوجده على العدل، فاحتمل ذلك العدل، وأخرجه هو والرجل، وجعلا يتراوحان(١٤٤) على حمله حتى أتى منزله، ورمى نفسه تعباً، فلما أصبح افتقده، فإذا هو بعض أعداله، فندم أشد الندامة، ثم انطلق نحو الحانوت، فوجد شريكه قد سبقه إليه ففتح الحانوت، فوجد

---

(١٤٠) أي أن يسرق شيئاً من متاع رفيقه.
(١٤١) الرزمة بالكسرة هي مجموعة من الثياب المربوطة بحبل أو ما شبهه.
(١٤٢) أي اتفق معه.
(١٤٣) أي نصيب.
(١٤٤) أي يتناوبان.

العدل مفقوداً، فاغتم لذلك غماً شديداً، وقال: (وا سوءتاه) من رفيق صالح قد إئتمنني على ماله وخلفني فيه، ماذا يكون حالي عنده؟ ولست أشك في تهمته إياي، ولكن قد وطنت نفسي على غرامته[145]. ثم أتى صاحبه فوجده مغتماً، فسأله عن حاله، فقال: إني افتقدت الأعدال، ففقدت عدلاً من أعدالك، وإني لا أشك في تهمتك إياي، وإني قد وطنت النفس على غرامته. فقال له: يا أخي لا تغتم، فإن الخيانة شر ما عمله الإنسان، والمكر والخديعة لا يؤديان إلى خير، وصاحبهما مغرور أبداً، وما عاد وبال البغي إلا على صاحبه، وانا أحد من مكر وخدع واحتال. فقال له صاحبه: وكيف ذلك؟ فأخبره بخبره وقص عليه قصته، فقال له رفيقه: ما مثلك إلا مثل اللص والتاجر. فقال له: وكيف كان ذلك؟ قال: زعموا أن تاجراً كان له في منزله خابيتان[146]، أحدهما مملوءة حنطة، والأخرى مملوءة ذهباً، فترقبه بعض اللصوص زمناً، حتى إذا كان بعض الأيام تشاغل التاج عن منزله، فتغفله[147] اللص ودخل المنزل، وكمن في بعض نواحيه، فلما هم بأخذ الخابية التي فيها الدنانير أخذ تلك التي فيها الحنطة، وظنها التي فيها الذهب، ولم يزل في كد وتعب حتى أتى بها إلى منزله، فلما فتحها وعلم ما فيها ندم. فقال له الخائن: ما أبعدت ما مثلت، ولا تجاوزت القياس، وقد اعترفت بذنبي وبخطئي، عليك، وعزيز علي أن يكون هكذا، غير أن النفس الرديئة تأمر بالفحشاء، فقبل الرجل اعتذاره، وأضرب عن توبيخه وعن الثقة به، وندم الخائن عندما عاين سوء فعله وتقديم جهله.

وقد لا ينبغي للناظر في كتابنا هذا ألا تكون غايته التصفح فحسب، بل أن يشرف[148] على ما تضمنه من الأمثال. حتى ينتهي منه، ويقف عند كل

(١٤٥) أي نويت تعويضه.
(١٤٦) الخابية هي جرة كبيرة عادة ما تصنع من الفخار.
(١٤٧) تغفله أي استغل غفلته.
(١٤٨) الإشراف في الأصل هو النظر من الأعلى إلى الأسفل، ويراد بها هنا التدقيق.

مثل وكلمة، ويعمل فيها رويته، ويكون مثل اصغر الاخوة الثلاثة الذين خلف لهم أبوهم المال الكثير، فتناولوه بينهم، فأما الكبيران فإنهما أسرعا في إنفاقه في غير وجه، وأما الصغير فإنه لما نظر ما صار إليه أخواه من إسرافهما في المال، أقبل على نفسه يشاورها، وقال: يا نفسي إنما المال يطلبه صاحبه، ويجمعه من كل وجه لبقاء حاله، وصلاح معاشه ودنياه، وشرف منزلته في أعين الناس، واستغنائه عما في أيديهم، وصرفه في وجهه من صلة الرحم، والإنفاق على الولد، والتفضل على الإخوان، فمن كان له مال ولا ينفقه في حقوقه، كان كالفقير وإن كان موسراً[١٤٩]، وإن هو أحسن إمساكه والقيام عليه، لم يعدم الامرين جميعاً، من دنيا تبقى عليه، وحمد يضاف إليه، ومتى قصد إنفاقه على غير الوجوه التي علمت، لم يلبث أن يتلفه ويبقى في حسرة وندامة، لكن الرأي أن امسك المال، فإني أرجو أن ينفعني الله به، ويغني أخوي على يدي، فإنما هو مال أبي وأبيهما، وإن أولى الانفاق على صلة الرحم وإن بعدت، فكيف بأخوي؟ فأنفذ فأحضرهما وشاطرهما ماله، وكذلك يجب على قارئ هذا الكتاب، أن يديم النظر فيه من غير ضجر، ويتلمس جواهر معانيه، ولا يظن أن نتيجته الإخبار عن حيلة بهيمتين، أو محاورة سبع لثور، فينصرف بذلك عن الغرض المقصود، ويكون مثله مثل الصياد الذي كان في بعض الخلجان يصيد فيه السمك في زورق، فرأى ذات يوم في قعر الماء صدفة تتلألأ حسناً، فتوهمها جوهرة قيمة، وكان قد ألقى شبكته في البحر، فاحتوت على سمكة تعادل قوت يومه، فتركها وقذف نفسه إلى الماء ليأخذ الصدفة، فلما أخرجها وجدها فارغة لا شيء فيها مما ظن، فندم على ترك ما في يده طمعاً، وتأسف على ما فاته، فلما كان اليوم التالي تنحى عن ذلك المكان، وألقى شبكته فأصاب سمكة صغيرة،

(١٤٩) أي غني.

ورأىٰ أيضـاً صدفة جميلة فلم يلتفت إليها، وساء ظنه بها، فتركها واجتاز بعض الصيادين فأخذها، فوجد فيها درة تساوي أموالاً وكذلك الجهال إذا تغافلوا أمر التفكر في هذا الكتاب، وتركوا الوقوف علىٰ أسرار معانيه، وأخذوا بظاهره وصرفوا همتهم إلىٰ النظر في أبواب الهزل، كانوا كالرجل أصاب أرضاً طيبة حرة، وحباً صحيحاً[150] فزرعها وسقاها، حتىٰ اذا قرب خيرها وأينعت، تشاغل عنها بجمع ما فيها من الزهر وقطع الشوك، فأهلك بتشاغله ما كان أحسن فائدة وأجمل عائدة.

وينبغي للناظر في هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم إلىٰ أربعة أغراض، أحدهما ما قصد فيه إلىٰ وضعه علىٰ ألسنة البهائم غير الناطقة، ليسارع إلىٰ قراءته أهل الهزل من الشبان، فتستمال به قلوبهم لأنه الغرض بالنوادر من حيل الحيوان، والثاني إظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان، ليكون أنساً لقلوب الملوك، ويكون حرصهم عليه أشد للنزهة في تلك الصور، والثالث أن يكون علىٰ هذه الصفة، فيتخذه الملوك والسوقة[151]، فيكثر بذلك انتساخه، ولا يبطل فيخلق[152] علىٰ مرور الأيام، ولينتفع بذلك المصور والناسخ أبداً، والغرض الرابع، وهو الأقصىٰ، وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصته.

(انتهىٰ باب عرض الكتاب)

(١٥٠) أي بذور جيدة.
(١٥١) أي عامة الناس.
(١٥٢) يخلق يعني يتقادم.

باب برزويه: ترجمة بزرجمهر بن البختكان

قال برزويه رأس أطباء فارس، وهو الذي تولىٰ انتساخ هذا الكتاب ونقله من كتب الهند كما مضىٰ ذكر ذلك: أبي كان من المقاتلة[١٥٣]، وكانت أمي من عظماء بيوت الزمازمة[١٥٤]، وكان منشئي في نعمة كاملة، وكنت أكرم ولد أبوي عليهما، وكانا بي اشد احتفاظاً من دون إخوتي، حتىٰ اذا بلغت السبع سنين، أسلماني إلىٰ مؤدب، فلما حذقت الكتابة، شكرت أبوي، ونظرت في العلم، فكان أول ما ابتدأت به وحرصت عليه علم الطب، لأني كنت أعرف فضله، وكلما سددت منه علماً ازددت فيه حرصاً، وله اتباعاً، فلما همت نفسي بمداواة المرضىٰ، وعزمت علىٰ ذلك آمرتها[١٥٥] ثم خيرتها بين الأمور الأربعة التي يطلبها الناس وفيها يرغبون، ولها يسعون، فقلت: أي هذه الخلال أبتغي في عملي؟ وأيها أحرىٰ بي فأدرك منه حاجتي؟ المال أم الذكر أم اللذات أم الآخرة؟ وكنت وجدت في كتب الطب أن أفضل الأطباء من واظب علىٰ طبه لا يبتغي الا الآخرة، فرأيت أن أطلب الاشتغال بالطب ابتغاء الآخرة، لئلا أكون كالتاجر الذي باع ياقوتة ثمينة بخرزة لا تساوي شيئاً، مع إني قد وجدت في كتب الأولين أن الطبيب الذي يبغي بطبه الآخرة لا ينقصه ذلك حظه من الدنيا، وإن مثله مثل الزارع الذي يعمر أرضه ابتغاء الزرع لا ابتغاء العشب مع يانع الزرع، فأقبلت علىٰ مداواة المرضىٰ ابتغاء أجر الآخرة، فلم أدع مريضاً أرجو له البرء[١٥٦] وآخر لا أرجو له ذلك إلا أن أطمع أن يخف عنه بعض المرض، إلا بالغت في مداواته ما أمكنني القيام

(١٥٣) كناية عن العسكرية. فربما كان أبوه جندياً أو قائد عسكري.
(١٥٤) الزمازمة هم أصحاب درجة كهنوتية معينة في الديانة المجوسية.
(١٥٥) أي خيرتها وشاورتها.
(١٥٦) الشفاء.

عليه بنفسي، ومن لم أقدر على القيام عليه وصفت له ما يصلح، وأعطيته من الدواء ما يُعالج به، ولم أرد ممن فعلت ذلك معه جزاء ولا مكافأة، لوم أغبط أحد من نظرائي الذين هم دوني في العلم وفوقي في الجاه والمال وغيرهما مما لايعود بصلاح ولا حسن سيرة قولاً ولا عملاً، ولما تاقت نفسي الىٰ غشيانهم[١٥٧] وتمنت منازلهم، أثبت لها الخصومة[١٥٨]، فقلت لها: يا نفس، أما تعرفين نفعك من ضرك؟ ألا تنتهين عن تمني ما لا يناله أحد إلا قل انتفاعه به وكثر عناؤه به، واشتدت المؤونة عليه، وعظمت المشقة عليه بعد فراقه؟ يا نفس أما تذكرين ما بعد هذه الدار فينسيك ما تشرهين[١٥٩] إليه منها؟ ألا تستحين من مشاركة الفجار في حب هذه الدنيا الفانية العاجلة التي من كان في يده منها شيء فهو ليس له، وليس بباق عليه، فلا يألفها إلا المغترون الجاهلون؟ يا نفس انظري في أمرك، وانصرفي عن هذه السفاهة، وأقبلي بقوتك وسعيك علىٰ تقديم الخير، وإياك والشر، واذكري إن هذا الجسد موجود للآفات[١٦٠]، وإنه مملوء أخلاطاً فاسدة قذرة، تعقدها الحياة، والحياة الىٰ نفاد، كالصنم المفصلة أعضاؤه إذا ركبت ووضعت، وكان يجمعها مسمار واحد يضم بعضها الىٰ بعض، فإذا أُخذ ذلك المسمار تساقطت تلك الأوصال، يا نفسي لا تغتري بصحبة أحبائك وأصحابك، ولا تحرصي علىٰ ذلك كل الحرص، فإن صحبتهم علىٰ ما فيها من سرور كثيرة المؤنة، وعاقبة ذلك الفراق، ومثلها مثل المغرفة التي تستعمل في جدتها[١٦١] لسخونة المرق، فإذا انكسرت صارت وقوداً، يا نفس لا يحملنك أهلك وأقاربك علىٰ جمع ما تهلكين فيه، إرادة صلتهم تجعلك

---

(١٥٧) أي المرور بهم.
(١٥٨) أي عيّن لنفسه مخاصمتها لما طمعت بمراتبهم.
(١٥٩) من الشراهة، ويقصد بها الطمع.
(١٦٠) جمع آفة ويعني المرض.
(١٦١) أي في الوقت الذي كنت فيه جديدة.

كالدخنة الأرجة[١٦٢] التي تحترق ويذهب آخرون بريحها، يا نفس لا يبعد عليك أمر الآخرة فتميلي إلى العاجلة في استعجال القليل وبيع الكثير باليسير، كالتاجر الذي كان له ملء بيت من الصندل[١٦٣]، فقال: إن بعته وزناً طال علي، فباعه جزافاً[١٦٤] بأبخس الثمن، وقد وجدت آراء الناس مختلفة وأهواءهم متباينة، وكل على كل راد، وله عدو ومغتاب، ولقوله مخالف، فلما رأيت ذلك لم أجد إلى متابعة أحد منهم سبيلا، وعرفت أني إن صدقت أحداً منهم لا علم لي بحاله، كنت في ذلك كالمصدق المخدوع الذي زعموا بشأنه أن سارقاً علا ظهر بيت رجل من الأغنياء، وكان معه جماعة من أصحابه، فاستيقظ صاحب المنزل من حركة أقدامهم، فعرف امرأته ذلك وقال لها: رويداً إني لأحسب اللصوص علوا البيت، فأيقظيني بصوت يسمعه اللصوص وقولي ألا تخبرني أيها الرجل عن أموالك هذه الكثيرة وكنوزك العظيمة؟ فإذا نهيتك عن هذا السؤال فألحي علي بالسؤال. ففعلت المرأة ذلك وسألته كما أمرها، وأنصتت اللصوص إلى سماع قولها. فقال لها الرجل: أيتها المرأة قد ساقك القدر إلى رزق واسع كثير، فكلي واسكتي، ولا تسألي عن أمر إن اخبرتك به لم آمن أن يسمعه أحد، فيكون في ذلك ما أكره وتكرهين، فقالت المرأة: أخبرني أيها الرجل، فلعمري ما (بقربنا) أحد يسمع كلامنا. فقال لها: فإني أخبرك أني لم أجمع هذه الأموال إلا من السرقة. فقالت: وكيف كان ذلك؟ وما كنت تصنع؟ فقال: ذلك لعلم أصبته في السرقة، وكان الأمر علي يسيراً، وأنا آمن من أن يتهمني أحد أو يرتاب في. قالت: أذكر لي ذلك. فقال: كنت أذهب في الليلة المقمرة أنا وأصحابي، حتى أعلو دار بعض الأغنياء مثلنا، فانتهي إلى الكوة التي

---

(١٦٢) أي البخور الذي ذو الرائحة الطيبة الذي يحرق ضمعه لما يبعثه من العطر الطيب.
(١٦٣) خشب عطري.
(١٦٤) أي بالتخمين والتقدير.

يدخل منها الضوء، فأرقي بهذه الرقية وهي شولم شولم سبع مرات، وأعتنق الضوء، فلا يحس بوقوعي أحد، فلا أدع مالاً ولا متاعاً إلا أخذته، ثم أرقي بتلك الرقية سبع مرات واعتنق الضوء، فيجذبني أصحابي، فنمضي سالمين آمنين، فلما سمع اللصوص ذلك قالوا: ظفرنا الليلة بما يزيد على المال. ثم إنهم أطالوا المكث حتى ظنوا أن صاحب الدار وزوجته قد هجعا، فقام قائدهم إلى مدخل الضوء وقال: شولم شولم سبع مرات، واعتنق الضوء لينزل الى أرض المنزل، فوقع على أم رأسه مُنكساً، فوثب إليه الرجل بهراوته، وقال له: من أنت؟ فقال: أنا المصدق المغرور المخدوع بما لا يكون ابداً، وهذه ثمرة رقيتك. فلما تحرزت من تصديق ما لا يكون، لوم آمن إن صدقته أن يوقعني في مهلكة عدت إلى طلب الأديان والتماس العدل منها، فلم أجد عند أحد ممن كلمته جواباً فيما سألته عنه فيها، ولم أر فيمن كلموني به شيئاً يحق لي في عقلي أن أصدق به، ولا أن أتبعه، فقلت لما لم أجد ثقة آخذ منه: الرأي أن ألزم دين آبائي وأجدادي الذي وجدتهم عليه. فلما ذهبت ألتمس العذر لنفسي في لزوم دين الآباء والأجداد، لم أجد لها على الثبوت على دين الآباء طاقة، بل وجدتها تريد أن تتفرغ للبحث عن الأديان والمسألة عنها وللنظر فيها، فهجس في قلبي[١٦٥] وخطر على بالي قرب الأجل، وسرعة انقطاع الدنيا، واعتباط أهلها[١٦٦] وتخرم الدهر حياتهم[١٦٧]، ففكرت في ذلك، فإما خفت من التردد أو التحول، رأيت أن لا اتعرض لما أتخوف منه المكروه، وأن أقتصر على عمل تشهد النفس أنه يوافق كل الأديان، فكففت يدي عن القتل والضرب، وطرحت نفسي عن المكروه والغضب والسرقة والخيانة والكذب والبهتان والغيبة،

(١٦٥) أي وقع في قلبي الشك.
(١٦٦) أي موتهم من دون مرض.
(١٦٧) أي قطع أعمارهم.

وأضمرت في نفسي أن لا أبغي على أحد، ولا أكذب بالعبث والقيامة ولا الثواب ولا العقاب[١٦٨]، وزايلت الأشرار بقلبي، وحاولت الجلوس مع الاخيار جهدي، ورأيت الصلاح ليس كمثله صاحب ولا قرين، ووجدت مكسبة إذا وفق الله وأعان يسيراً، ووجدته يدل على الخير، ويشير بالنصح، كفعل الصديق بالصديق، ووجدته لا ينقص على الإنفاق منه، ولا تبلى جدته[١٦٩]، ووجدته لا خوف عليه من السلطان أن يغصبه، ولا من الماء أن يغرقه، ولا من النار أن تحرقه، ولا من اللصوص أن تسرقه، ولا من السباع وجوارح الطير أن تمزقه، ووجدت الرجل الساهي اللاهي الموثر اليسير[١٧٠] يناله في يومه ويعدمه في غده على الكثير الباقي، يصيبه ما أصاب التاجر الذي زعموا أنه كان له جوهر نفيس، فاستأجر لثقبه رجلاً اليوم بمائة دينار، وانطلق به إلى منزله ليعمل، وإذا في ناحية من المنزل صنج[١٧١] موضوع، فقال التاجر للصانع: هل تحسن أن تلعب بالصنج؟ قال: نعم. وكان بلعبه ماهراً، فقال التاجر: دونك والصنج، اسمعنا ضربك به. فأخذ الرجل الصنج ولم يزل يسمع التاجر الضرب الصحيح، والصوت الرفيع، والتاجر يشير بيده ورأسه طرباً، حتى أمسى، فلما حان الغروب قال الرجل للتاجر: مر لي بالأجرة. فقال له التاجر: وهل عملت شيئاً تستحق به الأجرة؟ فقال له: عملت ما أمرتني به وأنا أجيرك[١٧٢]، وما استعملتني عملت. ولم يزل به حتى استوفى منه مائة دينار، وبقي جوهره غير مثقوب، فلم أزدد بالدنيا وشهواتها نظراً، إلا ازددت فيها زهادة[١٧٣] ومنها هرباً، ووجدت النسك[١٧٤] هو الذي يمهد

(١٦٨) آمنت أغلب الأديان الشرقية القديمة بتلك العقائد، ومنها الزرادشتية التي نرجح أن برزويه كان من أتباعها.
(١٦٩) أي لا يتقادم ولا يبلى.
(١٧٠) المؤثر من الإيثار، ويعني هنا من يفضل الأمور سهلة المنال.
(١٧١) آلة موسيقية قد تكون وترية أو ربما تكون مصنوعة من النحاس بلا أوتار.
(١٧٢) أي مستأجر من قبلك.
(١٧٣) من الزهد.
(١٧٤) العبادة.

للمعاد كما يمهد الوالد لولده، ووجدته هو الباب المفتوح للنعيم المقيم، ووجدت الناسك قد تدبر فعله بالسكينة فشكر، وتواضع وقنع فاستغنىٰ ورضىٰ ولم يهتم، وخلع الدنيا فنجا من الشرور، ورفض الشهوات فصار طاهراً، واطرح[175] الحسد فوجبت له المحبة، وسخت[176] نفسه بكل شيء، واستعمل العقل وأبصر العاقبة فأمن الندامة، ولم يخف الناس ولم يدب اليهم فسلم منهم، فلم أزدد في أمر النساك نظراً، إلا ازددت فيه رغبة، حتىٰ هممت أن أكون من أهله. ثم تخوفت أن لا أصبر علىٰ عيش الناسك، ولم آمن إن تركت الدنيا وأخذت في النسك أن أضعف عن ذلك، ورفضت أعمالاً كنت أرجو عائدها، وقد كنت أعملها فأنتفع بها في الدنيا، فيكون مثلي في ذلك مثل الكلب الذي مر بنهر وفي فيه ضلع[177]، فرأىٰ ظلها في الماء[178]، فهوىٰ ليأخذها، فأفلت ما كان معه، ولم يجد في الماء شيئًا، فهبت النسك مهابة شديدة، وخفت من الضجر وقلة الصبر، وأردت الثبوت علىٰ حالتي التي كنت عليها، ثم بدا لي أن أسير ما أخاف ألا أصبر عليه من الأذىٰ والضيق والخشونة في النسك، وما يصيب صاحب الدنيا من البلاء، وكان عندي أنه ليس شيء من لذات الدنيا وشهواتها إلا وهو متحول إلىٰ أذىٰ ومولد للحزن، فالدنيا كالماء المالح الي لا يزداد شاربه إلا عطشًا، وهي كالعظم الذي يصيبه الكلب فيجد فيه رائحة اللحم، فلا يزال بطلب ذلك حتىٰ يدمي فاه، وكالحداة التي تظفر بقطعة من اللحم، فيجتمع عليها الطير، فلا تزال تدور وتدأب حتىٰ تعيي وتعطب[179]، فإذا تعبت ألقت ما معها، وكالكوز[180] من العسل الذي في أسفله سم، الذي يذاق منه

(١٧٥) أي نبذ.

(١٧٦) من السخاء، وهنا تعني الزهد بالشيء.

(١٧٧) يعني في فمه ضلع.

(١٧٨) أي انعكاس صورة الضلع الذي يحمله في فمه.

(١٧٩) أي تهلك بسبب الإعياء والتعب.

(١٨٠) الكوز هو الإناء.

حلاوته العاجلة، وآخره الموت الزعاف(١٨١)، وكأحلام النائم التي يفرح بها الإنسان في نومه، فإذا استيقظ ذهب الفرح، فلما فكرت في هذه الأمور، رجعت إلىٰ طلب النسك، وهزني الاشتياق إليه، ثم خاصمت نفسي إذ هي في شرورها سارحة، وقد لا تثبت علىٰ أمر تعزم عليه، كقاضٍ سمع من خصم واحد فحكم له، فلما حضر الخصم الثاني سمع له وعاد إلىٰ الأول وقضىٰ عليه، ثم نظرت إلىٰ ما أكابده من احتمال النسك وضيقه، فقلت: ما أصغر هذه المشقة في جانب روح الأبد وراحته. ثم نظرت فيما تشره إليه النفس من لذة الدنيا فقلت: ما أمر هذا وأوجعه، وهو يدفع إلىٰ عذاب الأبد وأهواله، وكيف لا يستحلي الرجل مرارة قليلة تعقبها حلاوة طويلة؟ وكيف لا تمر عليه حلاوة قليلة تعقبها مرارة دائمة؟ وقلت: لو أن رجلاً عُرض عليه أن يعيش مائة سنة، لا يأتي عليه يوم واحد إلا بضع منه بضعة(١٨٢)، ثم يعيد عليه من الغد، غير أنه يشرط له، إذا استوفىٰ السنين المائة نجاة من كل ألم وأذىٰ، وصار إلىٰ الأمن والسرور، كان حقيقاً(١٨٣) أن لا يرىٰ تلك السنين شيئاً، وكيف يأتي الصبر علىٰ أيام قلائل يعيشها في النسك، وأذىٰ تلك الأيام قليل يعقبه خير كثير؟ فلتعلم إن الدنيا كلها بلاء وعذاب، أوليس الإنسان إنما يتقلب في عذاب الدنيا من حين يكون جنيناً الىٰ أن يستوفي أيام حياته، فإذا عاد طفلاً ذاق من العذاب ألواناً، إن جاع فليس به استطعام، أو عطش فليس به استسقاء، أو وجع فليس به استغاثة، مع ما يلقىٰ من الوضع والحمل واللف والدهن والمسح، إن أُنيم علىٰ ظهره لم يستطع تقلبا، ثم يلقىٰ أصناف العذاب ما دام رضيعا، فاذا أفلت من عذاب الرضاع، أخذ في عذاب الأدب، فأذيق منه ألواناً من عنف المعلم، وضجر الدرس،

(١٨١) أي الموت السريع.
(١٨٢) أي اقتطع منه قطعة.
(١٨٣) أي واجبا

وسآمة[١٨٤] الكتابة، ثم له من الدواء والحمية والاسقام والأوجاع أوفى حظًا، فإذا أدرك كانت همته في جمع المال، وتربية الأولاد ومخاطرة الطلب، والسعي والكد والتعب، وهو مع ذلك يتقلب مع أعدائه الباطنية اللازمة له[١٨٥] وهي الصفراء والسوداء والريح والبلغم والدم والسم المميت والحية اللادغة، مع الخوف من السباع والهوام، مع حالات الحر والبرد والمطر والريح، ثم أنواع عذاب الهرم[١٨٦] لمن يبلغه. فلو لم يخف من هذه الأمور شيئا، وكان قد أمن ووثق بالسلامة منها فلم يفكر فيها، لوجب عليه أن يعتبر بالساعة التي يحضره فيها الموت، فيفارق الدنيا فيتذكر ما هو نازل به في تلك الساعة من فراق الأحبة والأهل والأقارب وكل مضنون به من الدنيا، والإشراف على الهول العظيم بعد الموت. فلو لم يفعل ذلك، لكان حقيقًا أن يعد عاجزاً مفرطًا محبًا للدناءة مستحقًا للوم؛ فمن ذا الذي يعلم ولا يحتال لغد جهده في الحيلة، ويرفض ما يشغله ويلهيه من شهوات الدنيا وغرورها؟ ولا سيما في هذا الزمان الشبيه بالصافي وهو كدرٌ، فإنه وإن كان الملك حازمًا عظيم المقدرة، رفيع الهمة بليغ الفحص، عدلاً مرجواً صدوقًا شكوراً، رحب الذراع مفتقداً مواظبًا مستمراً عالمًا بالناس والأمور، محبًا للعلم والخير والأخيار، شديداً على الظلمة، غير جبانٍ و خفيف القياد، رفيقًا بالتوسع على الرعية فيما يحبون، والدفع لما يكرهون، فإنا قد نرى الزمان مدبراً بكل مكانٍ، فكأن أمور الصدق قد نزعت من الناس، فأصبح ما كان عزيزا فقده مفقوداً، وموجودا ما كان نادراً وجوده. وكأن الخير أصبح ذابلاً والشر أصبح ناضرا، وكأن الفهم أصبح قد زالت سبله، وكأن الحق ولى كسيراً وأقبل الباطل تابعه، وكأن اتباع

(١٨٤) من السأم، ويعني هنا الملل.
(١٨٥) يقصد بالأعداء الباطنية بعض مكونات الجسم التي كان يُعتقد بوفق الآراء الطبية القديمة إن أي خلل في نسبها يتسبب للجسد بالمرض أو حتى بالموت.
(١٨٦) يقصد الشيخوخة.

الهوىٰ وإضاعة الحكم أصبح بالحكام موكلاً، وأصبح المظلوم بالحيف مقراً والظالم لنفسه مستطيلاً، وكأن الحرص أصبح فاغراً فاه من كل وجهةٍ يتلقف ما قرب منه وما بعد، وكأن الرضا أصبح مجهولاً، وكأن الأشرار يقصدون السماء صعوداً، وكأن الأخيار يريدون بطن الأرض، وأصبحت المروءة مقذوفًا بها من أعلىٰ شرف إلىٰ أسفل درك، وأصبحت الدناءة مكرمةً ممكنةً، وأصبح السلطان منتقلاً عن أهل الفضل إلىٰ أهل النقص، وكأن الدنيا جذلة مسرورةٌ تقول: قد غيبت الخيرات وأظهرت السيئات. فلما فكرت في الدنيا وأمورها، وأن الإنسان هو أشرف الخلق فيها وأفضله، ثم هو لا يتقلب إلا في الشرور والهموم، عرفت أنه ليس إنسانٌ ذا عقل يعلم ذلك ثم لا يحتال لنفسه في النجاة، فعجبت من ذلك كل العجب. ثم نظرت فإذا الإنسان لا يمنعه عن الاحتيال لنفسه إلا لذةٌ صغيرةٌ حقيرةٌ غير كبيرةٍ من الشم والذوق والنظر والسمع واللمس، فعله يصيب منها الطفيف أو يقتني منها اليسير؛ فإذا ذلك يشغله ويذهب به عن الاهتمام لنفسه وطلب النجاة لها.

فالتمست للإنسان مثلاً، فإذا مثله مثل رجل نجا من خوف فيل هائج إلىٰ بئرٍ، فتدلىٰ فيها، وتعلق بغصنين كانا علىٰ سمائها، فوقعت رجلاه علىٰ شيءٍ في طي البئر. فإذا حياتٌ أربع قد أخرجن رؤوسهن من أجحارهن، ثم نظر فإذا في قاع البئر تنين(١٨٧) فاتح فاه منتظراً له ليقع فيأخذه، فرفع بصره إلىٰ الغصنين فإذا في أصلهما جرذان أسود وأبيض، وهما يقرضان الغصنين دائبين لا يفتران، فبينما هو في النظر لأمره والاهتمام لنفسه، إذا أبصر قريبًا منه كوارة(١٨٨) فيها عسل نحل، فلما ذاق العسل، شغلته حلاوته وألهته لذته عن الفكرة في شيءٍ من أمره، وأن يلتمس الخلاص لنفسه، ولم يذكر أن رجليه علىٰ حيات أربع لا يدري متىٰ يقع عليهن،

(١٨٧) يقال للحية الكبيرة في العربية تنين.
(١٨٨) خلية النحل التي يصنعها من أغصان الأشجار.

ولـم يذكـر أن الجرذيـن دائبـان في قطـع الغصنيـن، ومتىٰ انقطعـا وقـع علـىٰ التنيـن. فلـم يـزل لاهيـاً غافـلاً مشـغولاً بتلـك الحـلاوة حتـىٰ سـقط في فـم التنيـن فهلـك. فشـبهت بالبئـر الدنيـا المملـوءة آفـاتٍ وشـروراً، ومخافـاتٍ وعاهـاتٍ، وشبهت بالحيات الأربع الأخلاط الأربعة التي في البدن، فإنها متىٰ هاجـت أو أحدهـا كانـت كحمـة الأفاعـي والسـم المميـت، وشـبهت بالجرذيـن الأسـود والأبيـض الليـل والنهـار اللذيـن همـا دائبـان في إفنـاء الأجـل، وشـبهت بالتنيـن المصيـر الـذي لا بـد منـه، وشـبهت بالعسـل هـذه الحـلاوة القليلـة التـي ينـال منهـا الإنسـان فيطعـم ويسـمع ويشـم ويلمـس، ويتشـاغل عـن نفسـه، ويلهـو عـن شـأنه، ويصـد عـن سـبيل قصـده. فحينئـذٍ صـار أمـري إلىٰ الرضـا بحالـي وإصـلاح مـا استطعت إصـلاحه من عملـي، لعلـي أصـادف في باقـي أيامـي زمانـاً أصيـب فيـه دليـلاً علىٰ هداي، وسـلطانـاً علـىٰ نفسـي، وقوامـاً لأمـري، فأقمـت علـىٰ هـذه الحـال وانتسـخت كتبـاً كثيـرةً، وانصرفـت مـن بـلاد الهنـد، وقـد نسـخت هـذا الكتـاب.

(هنا انقضىٰ باب برزويه المتطبب)

باب الأسد والثور وهو أول الكتاب

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف، وهو رأس البراهمة: اضرب لنا مثلاً لمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال، حتىٰ يحملهما علىٰ العداوة والبغضاء. فقال بيدبا: إذا ابتلي المتحابان بأن يدخل بينهما الكذوب المحتال، لم يلبثا أن يتقاطعا ويتدابرا، ومن أمثال ذلك أنه كان بأرض دستاوند رجلٌ شيخٌ وكان له ثلاثة بنين، فلما بلغوا أشدهم أسرفوا في مال أبيهم، ولم يكونوا احترفوا حرفةً يكسبون لأنفسهم بها خيراً، فلامهم أبوهم، ووعظهم علىٰ سوء فعلهم، وكان من قوله لهم: يا بنيّ إن صاحب الدنيا يطلب ثلاثة أمور لن يدركها إلا بأربعة أشياء: أما الثلاثة التي يطلب، فالسعة في الرزق، والمنزلة في الناس، والزاد للآخرة. وأما الأربعة التي يحتاج إليها في درك[١٨٩] هذه الثلاثة، فاكتساب المال من أحسن وجه يكون، ثم حسن القيام علىٰ ما اكتسب منه، ثم استثماره، ثم إنفاقه فيما يصلح المعيشة ويرضي الأهل والإخوان، فيعود عليه نفعه في الآخرة. فمن ضيع شيئًا من هذه الأحوال لم يدرك ما أراد من حاجته، ذلك لأنه إن لم يكتسب، لم يكن له مالٌ يعيش به، وإن هو كان ذا مالٍ واكتسابٍ ثم لم يحسن القيام عليه، أوشك المال أن يفنىٰ ويبقىٰ معدمًا، وإن هو وضعه ولم يستثمره، لم تمنعه قلة الإنفاق من سرعة الذهاب، كالكحل الذي لا يؤخذ منه إلا غبار الميل[١٩٠]، ثم هو مع ذلك سريعٌ فناؤه، وإن أنفقه في غير وجهه، ووضعه في غير موضعه، وأخطأ به مواضع استحقاقه، صار بمنزلة الفقير الذي لا مال له، ثم لا يمنع ذلك

---

(١٨٩) من إدراك، وهي الحصول على الشيء.

(١٩٠) الميل هو نفسه المرود، وهو عود المكحلة.

ماله من التلف بالحوادث والعلل التي تجري عليه، كمحبس الماء[191] الذي لا تزال المياه تنصب فيه، فإن لم يكن له مخرجٌ ومفيضٌ ومتنفسٌ يخرج الماء منه بقدر ما ينبغي، خرب وسال ونز من نواحٍ كثيرةٍ، وربما انبثق[192] البثق العظيم فذهب الماء ضياعـًا.

ثم أن بني الشيخ اتعظوا بقول أبيهم وأخذوا به وعلموا أن فيه الخير وعولوا عليه، فانطلق أكبرهم نحو أرضٍ يقال لها ميون؛ فأتىٰ في طريقه علىٰ مكانٍ فيه وحلٌ كثيرٌ؛ وكان معه عجلةٌ يجرها ثوران يقال لأحدهما شتربة وللآخر بندبة، فوحل[193] شتربة في ذلك المكان، فعالجه الرجل وأصحابه حتىٰ بلغ منهم الجهد، فلم يقدروا علىٰ إخراجه، فذهب الرجل وخلف عنده رجلاً يشارفه، لعل الوحل ينشف فيتبعه بالثور. فلما بات الرجل بذلك المكان، تبرم[194] به واستوحش، فترك الثور والتحق بصاحبه، وأخبره أن الثور قد مات، وقال له: إن الإنسان إذا انقضت مدته وحانت منيته فهو وإن اجتهد في التوقي من الأمور التي يخاف فيها علىٰ نفسه الهلاك لم يغن ذلك عنه شيئًا، وربما عاد اجتهاده في توقيه وحذره وبالاً[195] عليه. كالذي قيل: إن رجلًا سلك مفازةً فيها خوفٌ من السباع، وكان الرجل خبيراً بوعث تلك الأرض وخوفها، فلما سار غير بعيد اعترض له ذئبٌ من أحد الذئاب وأضراها[196]، فلما رأىٰ الرجل أن الذئب قاصد نحوه خاف منه، ونظر يمينـًا وشمالاً ليجد موضعـًا يتحرز فيه من الذئب، فلم ير إلا قريةً خلف وادٍ، فذهب مسرعـًا نحو القرية، فلما أتىٰ الوادي لم يجد عليه قنطرة، ورأىٰ الذئب قد أدركه، فألقىٰ نفسه في الماء، وهو لا يحسن السباحة، وكاد يغرق، لولا أن بصر

(١٩١) خزان الماء.
(١٩٢) تشقق أو انفجر.
(١٩٣) أي انغرست أقدامه في الوحل حتىٰ امتنعت عليه الحركة.
(١٩٤) مل وأصابه الضجر.
(١٩٥) أي وخيم العاقبة.
(١٩٦) من الضراوة، وهي شدة الافتراس.

به قومٌ من أهل القرية، فتواقعوا لإخراجه فأخرجوه، وقد أشرف علىٰ الهلاك، فلما حصل الرجل عندهم وأمن علىٰ نفسه من غائلة الذئب رأىٰ علىٰ عدوة الوادي[١٩٧] بيتاً مفرداً، فقال: أدخل هذا البيت فأستريح فيه. فلما دخله وجد جماعةً من اللصوص قد قطعوا الطريق علىٰ رجل من التجار، وهم يقتسمون ماله ويريدون قتله، فلما رأىٰ الرجل ذلك خاف علىٰ نفسه ومضىٰ نحو القرية، فأسند ظهره إلىٰ حائط من حيطانها ليستريح مما حل به من الهول والإعياء، إذ سقط الحائط عليه فمات. قال التاجر: صدقت، قد بلغني هذا الحديث.

وأما الثور فإنه خلص من مكانه وانبعث، فلم يزل في مرجٍ مخصب كثير الماء والكلأ[١٩٨]، فلما سمن وأمن جعل يخور[١٩٩] ويرفع صوته بالخوار، وكان قريباً منه أجمةٌ فيها أسدٌ عظيمٌ، وهو ملك تلك الناحية، ومعه سباعٌ كثيرةٌ وذئابٌ وبنات آوىٰ وثعالب وفهودٌ ونمورٌ، وكان هذا الأسد منفرداً برأيه دون أخذٍ برأي أحدٍ من أصحابه، فلما سمع خوار الثور، ولم يكن قد رأىٰ ثوراً قط، ولا سمع خواره، لأنه كان مقيماً مكانه لا يبرح ولا ينشط، بل يؤتىٰ برزقه كل يوم علىٰ يد جنده. وكان فيمن معه من السباع ابنا آوىٰ يقال لأحدهما كليلة وللآخر دمنة، وكانا ذوي دهاء وعلمٍ وأدبٍ، فقال دمنة لأخيه كليلة: يا أخي ما شأن الأسد مقيماً مكانه لا يبرح ولا ينشط؟ قال له كليلة: ما شأنك أنت والمسألة عن هذا؟ نحن علىٰ باب ملكنا آخذين بما أحب وتاركين لما يكره، ولسنا من أهل المرتبة التي يتناول أهلها كلام الملوك والنظر في أمورهم فأمسك عن هذا، واعلم أنه من تكلف من القول والفعل ما ليس من شأنه أصابه ما أصاب القرد من النجار. قال دمنة: وكيف كان ذلك؟ قال كليلة: زعموا

(١٩٧) عدوة الوادي هي جانبه.

(١٩٨) الزرع.

(١٩٩) الخوار هو صوت الثور.

أن قرداً رأىٰ نجاراً يشق خشبة بين وتدين، وهو راكب عليها، فأعجبه ذلك. ثم إن النجار ذهب لبعض شأنه، فقام القرد، وتكلف ما ليس من شغله، فركب الخشبة، وجعل ظهره قبل الوتد، ووجهه قبل الخشبة، فتدلىٰ ذنبه(٢٠٠) في الشق، ونزع الوتد فلزم(٢٠١) الشق عليه فخر مغشياً عليه، ثم إن النجار وافاه فرآه فأقبل عليه يضربه، فكان ما لقي من النجار من الضر أشد مما أصابه من الخشبة. قال دمنة: قد سمعت ما ذكرت، ولكن اعلم أن كل من يدنو من الملوك ليس يدنو منهم لبطنه، وإنما يدنو منهم ليسر الصديق ويكبت العدو. وإن من الناس من لا مروءة له، وهم الذين يفرحون بالقليل ويرضون بالدون، كالكلب الذي يصيب عظماً يابساً فيفرح به. وأما أهل الفضل والمروءة فلا يقنعهم القليل، ولا يرضون به، دون أن تسموا به نفوسهم إلىٰ ما هم أهلٌ له، وهو أيضاً لهم أهلٌ؛ كالأسد الذي يفترس الأرنب، فإذا رأىٰ البعير تركها وطلب البعير، ألا ترىٰ أن الكلب يبصبص بذنبه(٢٠٢)، حتىٰ ترمىٰ له الكسرة، وأن الفيل المعترف بفضله وقوته إذا قدم إليه علفه لا يعتلفه حتىٰ يُمسح ويتملق له، فمن عاش ذا مالٍ وكان ذا فضل وإفضالٍ علىٰ أهله وإخوانه فهو وإن قل عمره طويل العمر، ومن كان في عيشه ضيقاً وقلة وإمساكاً علىٰ نفسه وذويه فالمقبور أحيا منه، ومن عمل لبطنه وقنع وترك ما سوىٰ ذلك عد من البهائم.

قال كليلة: قد فهمت ما قلت؛ فراجع عقلك، واعلم أن لكل إنسانٍ منزلةً وقدرا. فإن كان في منزلته التي هو فيها متماسكاً، كان حقيقاً أن يقنع. وليس لنا من المنزلة ما يحط حالنا التي نحن عليها. قال دمنة: إن المنازل متنازعةٌ مشتركةٌ علىٰ قدر المروءة؛ فالمرء ترفعه مروءته من

(٢٠٠) ذيله.
(٢٠١) انغلق او انضم.
(٢٠٢) يحرك ذيله.

المنزلة الوضيعة إلىٰ المنزلة الرفيعة؛ ومن لا مروءة له يحط نفسه من المنزلة الرفيعة إلىٰ المنزلة الوضيعة. إن الارتفاع إلىٰ المنزلة الشريفة شديدٌ، والانحطاط منه مهينٌ؛ كالحجر الثقيل، رفعه من الأرض إلىٰ العاتق عسرٌ، ووضعه إلىٰ الأرض هينٌ. فنحن أحق أن نروم ما فوقنا من المنازل، وأن نلتمس ذلك بمروءتنا. ثم كيف نقنع بها ونحن نستطيع التحول عنها؟ فقال كليلة: ما الذي اجتمع عليه رأيك؟ قال دمنة: أريد أن أتعرض للأسد عند هذه الفرصة، فإن الأسد ضعيف الرأي، ولعلي علىٰ هذه الحال أدنو منه فأصيب عنده منزلة ومكانةً. قال كليلة: وما يدريك أن الأسد قد التبس عليه أمره؟ قال دمنة: بالحس والرأي أعلم ذلك منه، فإن الرجل ذو الرأي يعرف حال صاحبه وباطن أمره بما يظهر له من دله وشكله. قال كليلة: فكيف ترجو المنزلة عند الأسد ولست بصاحب السلطان، ولا لك علمٌ بخدمة السلاطين؟ قال دمنة: الرجل الشديد القوي لا يعجزه الحمل الثقيل، وإن لم تكن عادته الحمل؛ والرجل الضعيف لا يستقل به وإن كان ذلك من صناعته. قال كليلة: فإن السلطان لا يتوخىٰ بكرامته فضلاء من بحضرته؛ ولكنه يؤثر الأدنىٰ ومن قرب منه. ويقال: إن مثل السلطان في ذلك مثل شجر الكرم الذي لا يعلق إلا بأقرب الشجر. وكيف ترجو المنزلة عند الأسد ولست تدنو منه؟ قال دمنة: قد فهمت كلامك جميعه وما ذكرت، وأنت صادقٌ. لكن اعلم أن الذي هو قريبٌ من السلطان ولا ذلك موضعه ولا تلك منزلته، ليس كمن دنا منه بعد البعد وله حقٌ وحرمةٌ؛ وأنا ملتمس بلوغ مكانتهم بجهدي. وقد قيل: لا يواظب علىٰ باب السلطان إلا من يطرح الأنفة ويحمل الأذىٰ ويكظم الغيظ ويرفق بالناس ويكتم السر؛ فإذا وصل إلىٰ ذلك فقد بلغ مراده. قال كليلة: هبك وصلت إلىٰ الأسد، فما توفيقك عنده الذي ترجو أن تنال به المنزلة والحظوة لديه؟ قال دمنة: لو دنوت

منه وعرفت أخلاقه، لرفقت في متابعته وقلة الخلاف له. وإذا أراد أمراً هو في نفسه صواب، زينته له وصبرته عليه، وعرفته بما فيه من النفع والخير؛ وشجعته عليه وعلىٰ الوصول إليه، حتىٰ يزداد به سروراً، وإذا أراد أمراً يخاف عليه ضره وشينه بصرته بما فيه الضر والشين، وأوقفته علىٰ ما في تركه من النفع والزين، بحسب ما أجد إليه السبيل. وأنا أرجو أن أزداد بذلك عند الأسد مكانةً ويرىٰ مني ما لا يراه من غيري، فإن الرجل الأديب الرفيق لو شاء أن يُبطل حقا أو يُحق باطلاً لفعل، كالمصور الماهر الذي يصور في الحيطان صوراً كأنها خارجةٌ وليست بخارجة، وأخرىٰ كأنها داخلةٌ وليست بداخلة. قال كليلة: أما إن قلت هذا أو قلت هذا فإني أخاف عليك من السلطان فإن صحبته خطرةٌ. وقد قالت العلماء: إن أموراً ثلاثة لا يجترئ عليهن إلا أهوج، ولا يسلم منهن إلا قليلٌ، وهي: صحبة السلطان، وائتمان النساء علىٰ الأسرار، وشرب السم للتجربة. وإنما شبه العلماء السلطان بالجبل الصعب المرتقىٰ الذي فيه الثمار الطيبة والجواهر النفيسة والأدوية النافعة. وهو مع ذلك معدن السباع والنمور والذئاب وكل ضارٍ مخوفٍ. فالارتقاء إليه شديدٌ، والمقام فيه أشد. قال دمنة: صدقت فيما ذكرت؛ غير أنه من لم يركب الأهوال، لم ينل الرغائب؛ ومن ترك الأمر الذي لعله يبلغ فيه حاجته هيبةً ومخافةً لما لعله أن يتوقاه، فليس ببالغٍ جسيماً. وقد قيل: إن خصالاً ثلاثاً لن يستطيعها أحد إلا بمعونة من علو همةٍ وعظيم خطر: منها عمل السلطان وتجارة البحر ومناجزة العدو[٢٠٣]. وقد قالت العلماء في الرجل الفاضل الرشيد: إنه لا يرىٰ إلا في مكانين، ولا يليق به غيرهما: إما مع الملوك مكرماً، وإما مع النساك متعبداً، كالفيل إنما جماله وبهاؤه في مكانين: إما أن تراه وحشياً أو مركباً للملوك. قال كليلة:

(٢٠٣) المناجزة هي المقاتلة.

خار الله لك[٢٠٤] فيما عزمت عليه.

ثم إن دمنة انطلق حتىٰ دخل الأسد فسلم عليه. فقال الأسد لبعض جلسائه: من هذا؟ فقال: فلان بن فلان. قال: قد كنت أعرف أباه. ثم سأله أين تكون؟ قال: لم أزل ملازمًا باب الملك، رجاء أن يحضر أمرٌ فأعين الملك به بنفسي ورأيي: فإن أبواب الملك تكثر فيها الأمور التي ربما تحتاج فيها إلىٰ الذي لا يؤبه[٢٠٥] له؛ وليس أحدٌ يصغر أمره إلا وقد يكون عنده بعض الغناء والمنافع علىٰ قدره؛ حتىٰ العود الملقىٰ في الأرض ربما نفع، فيأخذه الرجل فيكون عدته عند الحاجة إليه. فلما سمع الأسد قول دمنة أعجبه، وظن أن عنده نصيحةً ورأيًا. فأقبل علىٰ من حضر فقال: إن الرجل ذو العلم والمروءة يكون خامل الذكر خافض المنزلة، فتأبىٰ منزلته إلا أن تشب وترتفع؛ كالشعلة من النار يضربها صاحبها وتأبىٰ إلا ارتفاعًا. فلما عرف دمنة أن الأسد قد عجب منه قال: إن رعية الملك تحضر باب الملك، رجاء أن يعرف ما عندها من علمٍ وافرٍ. وقد يقال: إن الفضل في أمرين: فضل المقاتل علىٰ المقاتل والعالم علىٰ العالم. وإن كثرة الأعوان إذا لم يكونوا مختبرين ربما تكون مضرةً علىٰ العمل: فإن العمل ليس رجاؤه بكثرة الأعوان ولكن بصالحي الأعوان. ومثل ذلك مثل الرجل الذي يحمل الحجر الثقيل، فيثقل به نفسه، ولا يجد له ثمنًا. والرجل الذي يحتاج إلىٰ الجذوع لا يجزئه القصب وإن كثر. فأنت الآن أيها الملك حقيقٌ ألا تحقر مروءةٌ أنت تجدها عند رجل صغير المنزلة: فإن الصغير ربما عظم، كالعصب يؤخذ من الميتة فإذا عمل منه القوس أكرم، فتقبض عليه الملوك وتحتاج إليه في البأس واللهو.

وأحب دمنة أن يري القوم أن ما ناله من كرامة الملك إنما هو لرأيه

(٢٠٤) أي قدم الله لك الخير.

(٢٠٥) أي لا يُفطن له أو يُنتبه له.

ومروءته وعقله: لأنهم عرفوا قبل ذلك أن ذلك لمعرفته أباه، فقال: إن السلطان لا يقرب الرجال لقرب آبائهم، ولا يبعدهم لبعدهم، ولكن ينبغي أن ينظر إلىٰ كل رجل بما عنده: لأنه لا شيء أقرب إلىٰ الرجل من جسده، ومن جسده ما يدوىٰ[٢٠٦] حتىٰ يؤذيه ولا يدفع ذلك عنه إلا بالدواء الذي يأتيه من بعد.

فلما فرغ دمنة من مقالته هذه أعجب الملك به إعجاباً شديداً، وأحسن الرد عليه، وزاد في كرامته. ثم قال لجلسائه: ينبغي للسلطان ألا يلج في تضييع حق ذوي الحقوق. والناس في ذلك رجلان: رجلٌ طبعه الشراسة، فهو كالحية إن وطئها الواطئ فلم تلدغه، لم يكن جديراً أن يغره ذلك منها، فيعود إلىٰ وطئها ثانية فتلدغه؛ ورجلٌ أصل طباعه السهولة، فهو كالصندل البارد الذي إذا أفرط في حكه صار حاراً مؤذياً.

ثم إن دمنة استأنس بالأسد وخلا به. فقال له يوماً: أرىٰ الملك قد أقام في مكانٍ واحدٍ لا يبرح منه، فما سبب ذلك؟ فبينما هما في هذا الحديث إذ خار شتربة خواراً شديداً: فهيج الأسد وكره أن يخبر دمنة بما ناله؛ وعلم دمنة أن ذلك الصوت قد أدخل علىٰ الأسد ريبةً[٢٠٧] وهيبةً. فسأله: هل راب الملك سماع هذا الصوت؟ قال: لم يربني شيءٌ سوىٰ ذلك. قال دمنة: ليس الملك بحقيقٍ أن يدع مكانه لأجل صوتٍ. فقد قالت العلماء: إن ليس من كل الأصوات تجب الهيبة. قال الأسد: وما مثل ذلك؟

قال دمنة: زعموا أن ثعلباً أتىٰ أجمة[٢٠٨] فيها طبل معلق علىٰ شجرةٍ، وكلما هبت الريح علىٰ قضبان تلك الشجرية حركتها، فضربت الطبل فسمع له صوتٌ عظيمٌ؛ فتوجه الثعلب نحوه لأجل ما سمع من عظم

(٢٠٦) يمرض.
(٢٠٧) ظناً يبعث علىٰ الخوف.
(٢٠٨) الأجمة هي مجموعة من الشجر طالت والتفت غصونها علىٰ بعض.

صوته؛ فلما أتاه وجده ضخماً، فأيقن في نفسه بكثرة الشحم واللحم. فعالجه حتىٰ شقه. فلما رآه أجوف لا شيء فيه، قال: لا أدري لعل أفشل الأشياء أجهرها صوتاً وأعظمها جثة. وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن هذا الصوت الذي راعنا، لو وصلنا إليه، لوجدناه ايسر مما في أنفسنا. فإن شاء الملك بعثني وأقام بمكانه حتىٰ آتيه ببيان هذا الصوت. فوافق الأسد قوله، فأذن له بالذهاب نحو الصوت. فانطلق دمنة إلىٰ المكان الذي فيه شتربة. فلما فصل دمنة من عند الأسد، فكر الأسد في أمره، وندم علىٰ إرسال دمنة حيث أرسله، وقال في نفسه: ما أصبت في ائتماني دمنة، وقد كان ببابي مطروحاً، فإن الرجل إذا كان يحضر باب الملك، وقد أبطلت حقوقه من غير جرم كان منه، أو كان مبغياً عليه عند سلطانه؛ أو كان عنده معروفاً بالشره والحرص، أو كان قد أصابه ضرٌ وضيقٌ فلم ينعشه، أو كان قد اجترم جرماً فهو يخاف العقوبة منه، أو كان يرجو شيئاً يضر الملك وله منه نفع؛ أو يخاف في شيءٍ مما ينفعه ضراً، أو كان لعدو الملك مسالماً، ولمسالمه محارباً، فليس السلطان بحقيقٍ أن يعجل بالاسترسال إليه، والثقة به، والائتمان له: فإن دمنة داهيةٌ أريبٌ. وقد كان ببابي مطروحاً مجفواً. ولعله قد احتمل علي بذلك ضغناً، ولعل ذلك يحمله علىٰ خيانتي وإعانة عدوي ونقيصتي عنده؛ ولعله صادف صاحب الصوت أقوىٰ سلطاناً مني فيرغب به عني ويميل معه عليّ. ثم قام من مكانه فمشىٰ غير بعيدٍ، فبصر بدمنة مقبلاً نحوه فطابت نفسه بذلك، ورجع إلىٰ مكانه، ودخل دمنة علىٰ الأسد فقال له: ماذا صنعت؟ وماذا رأيت؟ قال: رأيت ثوراً هو صاحب الخوار والصوت الذي سمعته. قال: فما قوته؟ قال: لا شوكة له. وقد دنوت منه وحاورته محاورة الأكفاء فلم يستطع لي شيئاً. قال الأسد: لا يغرنك ذلك منه ولا يصغرن عندك أمره: فإن الريح الشديدة لا تعبأ بضعيف الحشيش،

لكنها تحطم طوال النخل وعظيم الشجر. قال دمنة: لا تهابن أيها الملك منه شيئاً؛ ولا يكبرن عليك أمره: فأنا آتيك به ليكون لك عبداً سامعاً مطيعاً. قال الأسد: دونك وما بدا لك.

فانطلق دمنة إلىٰ الثور، فقال له غير هائب ولا مكترث: إن الأسد أرسلني إليك لآتيه بك. وأمرني إن أنت عجلت إليه طائعاً، أن أؤمنك علىٰ ما سلف من ذنبك في التأخر عنه وتركك لقاءه؛ وإن أنت تأخرت عنه وأحجمت، أن أعجل الرجعة إليه فأخبره. قال له شتربة: ومن هو هذا الأسد الذي أرسلك إلي؟ وأين هو؟ وما حاله؟ قال دمنة: هو ملك السباع، وهو بمكان كذا، ومعه جندٌ كثيرٌ من جنسه فرعب شتربة من ذكر الأسد والسباع. وقال: إن أنت جعلت لي الأمان علىٰ نفسي أقبلت معك إليه. فأعطاه دمنة من الأمان ما وثق به. ثم أقبل والثور معه، حتىٰ دخلا علىٰ الأسد فأحسن الأسد إلىٰ الثور وقرّبه؛ وقال له: متىٰ قدمت هذه البلاد؟ وما أقدمكها؟ فقص شتربة عليه قصته. فقال له الأسد اصحبني والزمني: فإني مكرمك. فدعا له الثور وأثنىٰ عليه.

ثم إن الأسد قرب شتربة وأكرمه وأنس به وأتمنه علىٰ أسراره وشاوره في أمره، ولم تزده الأيام إلا عجباً به ورغبةً فيه وتقريباً منه؛ حتىٰ صار أخص أصحابه عنده منزلةً. فلما رأىٰ دمنة أن الثور قد اختص بالأسد دونه ودون أصحابه، وأنه قد صار صاحب رأيه وخلواته ولهوه، حسده حسداً عظيماً، وبلغ منه غيظه كل مبلغ: فشكا ذلك إلىٰ أخيه كليلة، وقال له: ألا تعجب يا أخي من عجز رأيي، وصنعي بنفسي؟ ونظري فيما ينفع الأسد، وأغفلت نفع نفسي حتىٰ جلبت إلىٰ الأسد ثوراً غلبني علىٰ منزلتي. قال كليلة: أخبرني عن رأيك وما تريد أن تعزم عليه في ذلك. قال دمنة: أما أنا فلست اليوم أرجو أن تزداد منزلتي عند الأسد

فوق ما كانت عليه؛ ولكن ألتمس أن أعود إلىٰ ما كنت عليه: فإن أموراً ثلاثةً العاقل جدير بالنظر فيها، والاحتيال لها بجهده: منها النظر فيما مضىٰ من الضر والنفع، فيحترس من الضر الذي أصابه فيما سلف لئلا يعود إلىٰ ذلك الضر، ويلتمس النفع الذي مضىٰ ويحتال لمعاودته؛ ومنها النظر فيما هو مقيم فيه من المنافع والمضار، والاستيثاق بما ينفع والهرب مما يضر؛ ومنها النظر في مستقبل ما يرجو من قبل النفع، وما يخاف من قبل الضر، فيستتم ما يرجو ويتوقىٰ ما يخاف بجهده. وإني لما نظرت في الأمر الذي به أرجو أن تعود منزلتي، وما غلبت عليه مما كنت فيه، لم أجد حيلةً ولا وجهاً إلا الاحتيال لآكل العشب هذا، حتىٰ أفرق بينه وبين الحياة: فإنه إن فارق الأسد عادت لي منزلتي. ولعل ذلك يكون خيراً للأسد: فإن إفراطه في تقريب الثور خليقٌ أن يشينه ويضره في أمره. قال كليلة: ما أرىٰ علىٰ الأسد في رأيه في الثور ومكانه منه ومنزلته عنده شيئاً ولا شراً. قال دمنة: إنما يؤتىٰ السلطان ويفسد أمره من قبل ستة أشياء: الحرمان والفتنة والهوىٰ والفظاظة والزمان والخرق. فأما الحرمان فإن يحرم صالح الأعوان والنصحاء والساسة من أهل الرأي والنجدة والأمانة، وترك التفقد لمن هو كذلك. وأما الفتنة فهي تحارب الناس ووقوع الحرب بينهم. وأما الهوىٰ فالغرام بالحديث واللهو والشراب والصيد وما أشبه ذلك. وأما الفظاظة فهي إفراط الشدة حتىٰ يجمح اللسان بالشتم واليد بالبطش في غير موضعهما. وأما الزمان فهو ما يصيب الناس من السنين والموت ونقص الثمرات والغزوات وأشباه ذلك. وأما الخرق فإعمال الشدة في موضع اللين، واللين في موضع الشدة. وإن الأسد قد أغرم بالثور إغراماً شديداً، وهو الذي ذكرت لك أنه خليق أن يشينه ويضره في أمره. قال كليلة: وكيف تطيق الثور وهو أشد منك وأكرم علىٰ الأسد منك وأكثر أعواناً؟ قال دمنة: لا

تنظر إلىٰ صغري وضعفي: فإن الأمور ليست بالضعف ولا القوة ولا الصغر ولا الكبر في الجثة: فرب صغيرٍ ضعيفٍ قد بلغ بحيلته ودهائه ورأيه ما يعجز عنه كثير من الأقوياء. أولم يبلغك أن غرابـًا ضعيفـًا احتال لأسود[٢٠٩] حتىٰ قتله؟ قال كليلة: وكيف كان ذلك؟ قال دمنة: زعموا أن غرابـًا كان له وكرٌ في شجرةٍ علىٰ جبل؛ وكان قريبـًا منه جحر ثعبانٍ أسود، فكان الغراب إذا فرخ عمد الأسود إلىٰ فراخه فأكلها؛ فبلغ ذاك من الغراب وأحزنه، فشكا ذلك إلىٰ صديق له من بنات آوىٰ؛ وقال له: أريد مشاورتك في أمرٍ قد عزمت عليه؛ قال: وما هو؟ قال الغراب: قد عزمت أن أذهب اليوم إلىٰ الأسود إذا نام، فأنقر عينيه، فأفقأهما، لعلي أستريح منه. قال ابن آوىٰ: بئس الحيلة التي احتلت؛ فالتمس أمراً تصيب فيه بغيتك من الأسود، من غير أن تغرر بنفسك وتخاطر بها. وإياك أن يكون مثلك مثل العلجوم[٢١٠] الذي أراد قتل السرطان[٢١١] فقتل نفسه. قال الغراب: وكيف كان ذلك؟ قال ابن آوىٰ: زعموا أن علجومـًا عشّش في أجمةٍ كثيرة السمك؛ فعاش بها ما عاش؛ ثم هرم فلم يستطع صيداً؛ فأصابه جوعٌ وجهدٌ شديدٌ؛ فجلس حزينـًا يلتمس الحيلة في أمره؛ فمر به سرطانٌ، فرأىٰ حالته وما هو عليه من الكآبة والحزن؛ فدنا منه وقال: مالي أراك أيها الطائر هكذا حزينـًا كئيبـًا؟ قال العلجوم: وكيف لا أحزن وقد كنت أعيش من صيد ما ها هنا من السمك؟ وإني قد رأيت اليوم صيادين قد مرا بهذا المكان؛ فقال أحدهما لصاحبه: إن ها هنا سمكـًا كثيراً أفلا نصيده أولاً؟ فقال الآخر: إني قد رأيت في مكان كذا سمكـًا أكثر من هذا السمك، فلنبدأ بذلك، فإذا فرغنا منه جئنا إلىٰ هذا فأفنيناه. وقد علمت أنهما إذا فرغا مما هناك، انتهيا إلىٰ هذه الأجمة فاصطادا ما

(٢٠٩) أحد أسامي الأفعىٰ.
(٢١٠) نوع من الطيور.
(٢١١) الحيوان البحري المعروف.

فيها؛ فإذا كان ذلك فهو هلاكي ونفاذ مدتي. فانطلق السرطان من ساعته إلىٰ جماعة السمك فأخبرهن بذلك؛ فأقبلن إلىٰ العلجوم فاستشرنه؛ وقلن له: إنا أتينا لك لتشير علينا: فإن ذا العقل لا يدع مشاورة عدوه. قال العلجوم: أما مكابرة الصيادين فلا طاقة لي بها؛ ولا أعلم حيلةً إلا المصير إلىٰ غديرٍ قريبٍ من ها هنا، فيه سمكٌ ومياهٌ عظيمةٌ وقصبٌ، فإن استطعن الانتقال إليه، كان فيه صلاحكن وخصبكن. فقلن له: ما يمن علينا بذلك غيرك. فجعل العلجوم يحمل في كل يوم سمكتين حتىٰ ينتهي بهما إلىٰ بعض التلال فيأكلهما؛ حتىٰ إذا كان ذات يوم جاء لأخذ السمكتين؛ فجاءه السرطان؛ فقال له: إني أيضاً قد أشفقت من مكاني هذا واستوحشت منه فاذهب بي إلىٰ ذلك الغدير؛ فاحتمله وطار به، حتىٰ إذا دنا من التل الذي كان يأكل السمك فيه نظر السرطان فرأىٰ عظام السمك مجموعةَ هناك؛ فعلم أن العلجوم هو صاحبها؛ وأنه يريد به مثل ذلك. فقال في نفسه: إذا لقي الرجل عدوه في المواطن التي يعلم أنه فيها هالك. سواءٌ قاتل أم لم يقاتل؛ كان حقيقاً أن يقاتل عن نفسه كرماً وحفاظاً، ثم أهوىٰ بكلبتيه[٢١٢] علىٰ عنق العلجوم، فعصره فمات؛ وتخلص السرطان إلىٰ جماعة السمك فأخبرهن بذلك. وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن بعض الحيلة مهلكة للمحتال ولكني أدلك علىٰ أمرٍ، إن أنت قدرت عليه، كان فيه هلاك الأسود من غير أن تهلك به نفسك، وتكون فيه سلامتك. قال الغراب وما ذاك؟ قال ابن آوىٰ: تنطلق فتبصر في طيرانك: لعلك أن تظفر بشيء من حلي النساء فتخطفه؛ ولا تزال طائراً واقعاً، بحيث لا تفوت العيون، حتىٰ تأتي جحر الأسود فترمي بالحلي عنده. فإذا رأىٰ الناس ذلك أخذوا حليهم وأراحوك من الأسود. فانطلق الغراب محلقاً[٢١٣] في السماء؛ فوجد امرأة من بنات

(٢١٢) كلبتي السرطان هما طرفي ذراعيه التي يمسك بهما الأشياء.

(٢١٣) التحليق هو الطيران بشكل دائري مثل الحلقة.

العظماء فوق سطح تغتسل؛ وقد وضعت ثيابها وحليها ناحيةً؛ فانقض واختطف من حليها عقداً، وطار به، فتبعه الناس؛ ولم يزل طائراً واقعاً، بحيث يراه كل أحدٍ؛ حتىٰ انتهىٰ الأمر إلىٰ جحر الأسود؛ فألقىٰ العقد عليه، والناس ينظرون إليه. فلما أتوه أخذوا العقد وقتلوا الأسود. وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن الحيلة تجزئ مالا تجزئ القوة. قال كليلة: إن الثور لو لم يجتمع مع شدته رأيه لكان كما تقول. ولكن له مع شدته وقوته حسن الرأي والعقل. فماذا تستطيع له؟ قال دمنة: إن الثور لكما ذكرت في قوته ورأيه، ولكنه مقرٌ لي بالفضل؛ وأنا خليق أن اصرعه كما صرعت الأرنب الأسد. قال كليلة: وكيف كان ذلك؟ قال دمنة: زعموا أن أسداً كان في أرض كثيرة المياه والعشب؛ وكان في تلك الأرض من الوحوش في سعة المياه والمرعىٰ شيءٌ كثيرٌ؛ إلا أنه لم يكن ينفعها ذلك لخوفها من الأسد؛ فاجتمعت وأتت إلىٰ الأسد، فقالت له: إنك لتصيب منا الدابة بعد الجهد والتعب؛ وقد رأينا لك رأياً فيه صلاح لك وأمنٌ لنا. فإن أنت امنتنا ولم تخفنا، فلك علينا في كل يومٍ دابةٌ نرسل بها إليك في وقت غدائك: فرضي الأسد بذلك، وصالح الوحوش عليه، ووفين له به. ثم إن أرنباً أصابتها القرعة، وصارت غداء الأسد؛ فقالت للوحوش: إن أنتن رفقتن بي فيما لا يضركن؛ رجوت أن أريحكن من الأسد. فقالت الوحوش: وما الذي تكلفيننا من الأمور؟ قالت: تأمرن الذي ينطلق بي إلىٰ الأسد أن يمهلني ريثما أبطئ عليه بعض الإبطاء. فقلن لها ذلك لك. فانطلقت الأرنب متباطئةً؛ حتىٰ جاوزت الوقت الذي كان يتغدىٰ فيه الأسد. ثم تقدمت إليه وحدها رويداً، وقد جاع؛ فغضب وقام من مكانه نحوها؛ فقال لها: من أين أقبلت؟ قالت: أنا رسول الوحوش اليك: بعثني ومعي أرنبٌ لك، فتبعني أسدٌ في بعض تلك الطريق، فأخذها مني، وقال: أنا أولىٰ بهذه الأرض وما فيها من

الوحش. فقلت: إن هذا غداء الملك أرسلني به الوحوش إليه. فلا تغصبنه، فسبك وشتمك. فأقبلت مسرعةً لأخبرك. فقال الأسد: انطلقي معي فأريني موضع هذا الأسد. فانطلقت الأرنب إلىٰ جب فيه ماءٌ غامرٌ صافٍ؛ فاطلعت فيه، وقالت: هذا المكان. فاطلع الأسد، فرأىٰ ظله وظل الأرنب في الماء؛ فلم يشك في قولها؛ ووثب إليه ليقاتله، فغرق في الجب. فانقلبت الأرنب إلىٰ الوحوش فأعلمتهن صنيعها بالأسد. قال كليلة: إن قدرت علىٰ هلاك الثور بشيء ليس فيه مضرةٌ للأسد فشأنك: فإن الثور قد أضر بي وبك وبغيرنا من الجند؛ وإن أنت لم تقدر علىٰ ذلك إلا بهلاك الأسد، فلا تقدم عليه؛ فإنه غدرٌ مني ومنك. ثم إن دمنة ترك الدخول علىٰ الأسد أياما كثيرةً؛ ثم أتاه علىٰ خلوة منه؛ فقال له الأسد: ما حبسك عني؟ منذ زمان لم أرك. ألا لخير كان انقطاعك؟ قال دمنة: فليكن خيراً أيها الملك. قال الأسد: وهل حدث أمرٌ؟ قال دمنة: حدث ما لم يكن الملك يريده ولا أحد من جنده. قال: وما ذاك؟ قال: كلامٌ فظيعٌ. قال: أخبرني به. قال دمنة إنه كلامٌ يكرهه سامعه، ولا يشجع عليه قائله. وإنك أيها الملك لذو فضيلةٍ، ورأيك يدلك علىٰ أن يوجعني أن أقول ما تكره؛ وأثق بك أن تعرف نصحي وإيثاري إياك علىٰ نفسي. وإنه ليعرض لي أنك غير مصدقي فيما أخبرك به؛ ولكني إذا تذكرت وتفكرت أن نفوسنا، معاشر الوحوش، متعلقةٌ بك لم أجد بداً من أداء الحق الذي يلزمني وإن أنت لم تسألني وخفت ألا تقبل مني فإنه يقال: من كتم السلطان نصيحته والإخوان رأيه فقد خان نفسه. قال الأسد: فما ذاك؟ قال دمنة: حدثني الأمين الصدوق عندي أن شتربة خلا برؤوس جندك، وقال: قد خبرت الأسد وبلوت رأيه ومكيدته وقوته: فاستبان لي أن ذلك يؤول منه إلىٰ ضعف وعجزٍ، وسيكون لي وله شأنٌ من الشؤون. فلما بلغني ذلك علمت أن شتربة خوانٌ غدارٌ؛ وأنك أكرمته الكرامة

كلها، وجعلته نظير نفسك، وهو يظن أنه مثلك. وأنك متىٰ زلت عن مكانك صار له ملكك؛ ولا يدع جهداً إلا بلغه فيك. وقد كان يقال: إذا عرف الملك من الرجل أنه قد ساواه في المنزلة والحال، فليصرعه؛ فإن لم يفعل به ذلك، كان هو المصروع. وشتربة أعلم بالأمور وأبلغ فيها؛ والعاقل هو الذي يحتال للأمر قبل تمامه ووقوعه: فإنك لا تأمن أن يكون ولا تستدركه. فإنه يقال: الرجال ثلاثةٌ: حازمٌ وأحزم منه وعاجزٌ؛ فأحد الحازمين من إذا نزل به الأمر لم يدهش له، ولم يذهب قلبه شعاعاً[٢١٤]، ولم تعي به حيلته ومكيدته التي يرجو بها المخرج منه؛ وأحزم من هذا المتقدم ذو العدة الذي يعرف الابتلاء قبل وقوعه، فيعظمه إعظاماً، ويحتال له حتىٰ كأنه قد لزمه: فيحسم[٢١٥] الداء قبل أن يبتلي به، ويدفع الأمر قبل وقوعه. وأما العاجز فهو في ترددٍ وتمنٍ وتوانٍ حتىٰ يهلك. ومن أمثال ذلك مثل السمكات الثلاث. قال الأسد: وكيف كان ذلك؟

قال دمنة: زعموا أن غديراً كان فيه ثلاث سمكاتٍ: كيسةٌ وأكيس منها وعاجزةٌ؛ وكان ذلك الغدير بنجوة[٢١٦] من الأرض لا يكاد يقربه أحدٌ وبقربه نهر جارٍ. فاتفق أنه اجتاز بذلك النهر صيادان؛ فأبصرا الغدير، فتواعدا أن يرجعا إليه بشباكهما فيصيدا ما فيه من السمك. فسمع السمكات قولهما: فأما أكيسهن لما سمعت قولهما، وارتابت بهما، وتخوفت منهما؛ فلم تعرج علىٰ شيء[٢١٧] حتىٰ خرجت من المكان الذي يدخل فيه الماء من النهر إلىٰ الغدير. وأما الكيسة فإنها مكثت مكانها حتىٰ جاء الصيادان؛ فلما رأتهما، وعرفت ما يريدان، ذهبت لتخرج من حيث يدخل الماء؛ فإذا بهما قد سدا ذلك المكان فحينئذ

(٢١٤) أي يتفرق قلبه من الخوف مثل الشعاع.
(٢١٥) أي يقطع.
(٢١٦) الأرض المرتفعة.
(٢١٧) أي لم تقف عند أي شيء.

قالت: فرطت، وهذه عاقبة التفريط؛ فكيف الحيلة علىٰ هذه الحال؟ وقلما تنجع حيلة العجلة والإرهاق، غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأي، ولا ييأس علىٰ حالٍ، ولا يدع الرأي والجهد. ثم إنها تماوتت فطفت علىٰ وجه الماء منقلبة علىٰ ظهرها تارةً، وتارةً علىٰ بطنها؛ فأخذها الصيادان فوضعاها علىٰ الأرض بين النهر والغدير؛ فوثبت إلىٰ النهر فنجت. وأما العاجزة فما تزالْ في إقبال وإدبار حتىٰ صيدت.

قال الأسد: قد فهمت ذلك؛ ولا أظن الثور يغشني ويرجو لي الغوائل[٢١٨]. وكيف يفعل ذلك ولم ير مني سوءاً قطُّ؟ ولم أدع خيراً إلا فعلته معه؟ ولا أمنيةً إلا بلغته إياها؟. فقال دمنة: إن اللئيم لا يزال نافعاً ناصحاً حتىٰ يرفع إلىٰ المنزلة التي ليس لها بأهل؛ فإذا بلغها التمس ما فوقها؛ ولا سيما أهل الخيانة والفجور: فإن اللئيم الفاجر لا يخدم السلطان ولا ينصح له إلا من فرقٍ[٢١٩]. فإذا استغنىٰ وذهبت الهيبة عاد إلىٰ جوهره؛ كذنب الكلب الذي يربط ليستقيم فلا يزال مستوياً ما دام مربوطاً؛ فإذا حل انحنىٰ واعوج كما كان. واعلم أيها الملك أنه من لم يقبل من نُصائِحه ما يثقل عليه مما ينصحون له به، لم يحمد رأيه؛ كالمريض الذي يدع ما يبعث له الطبيب؛ ويعمد إلىٰ ما يشتهيه. وحق علىٰ موازر السلطان أن يبالغ في التخصص له علىٰ ما يزيد من سلطانه قوةً ويزينه؛ والكف عما يضره ويشينه؛ وخير الإخوان والأعوان أقلهم مداهنة في النصيحة؛ وخير الأعمال أحلاها عاقبة، وخير النساء الموافقة لبعلها، وخير الثناء ما كان علىٰ أفواه الأخيار؛ وأشرف الملوك من لم يخالطه بطرٌ؛ وخير الأخلاق أعونها علىٰ الورع. وقد قيل: لو أن امرأ توسد النار وافترش الحيات، كان أحق ألا يهنئه النوم. والرجل إذا أحس من صاحبه بعداوة يريده بها؛ لا يطمئن إليه؛ وأعجز الملوك آخذهم

(٢١٨) جمع غائلة، وهي الداهية.

(٢١٩) أي عن خوف.

بالهوينا، وأقلهم نظراً في مستقبل الأمور. وأشبههم بالفيل الهائج الذي لا يلتفت إلىٰ شيءٍ: فإن حز به أمر تهاون به، وإن أضاع الأمور حمل ذلك علىٰ قرنائه. قال له الأسد: لقد أغلظت في القول؛ وقول الناصح مقبولٌ محمولٌ. وإن كان شتربة معادياً لي، كما تقول، فإنه لا يستطيع لي ضراً؛ وكيف يقدر علىٰ ذلك وهو آكل عشب وأنا آكل لحم؟ وإنما هو لي طعام، وليس علي منه مخافةٌ. ثم ليس إلىٰ الغدر به سبيل بعد الأمان الذي جعلته له، وبعد إكرامي له، وثنائي عليه. وإن غيرت ما كان مني وبدلته. سفهت رأيي وجهلت نفسي وغدرت بذمتي. قال دمنة: لا يغرنك قولك: هو لي طعام وليس علي منه مخافةٌ: فإن شتربة إن لم يستطعك بنفسه احتال لك من قبل غيره. ويقال: إن استضافك ضيفٌ ساعةَ من نهارٍ، وأنت لا تعرف أخلاقه فلا تأمنه علىٰ نفسك؛ ولا تأمن أن يصلك منه أو بسببه ما أصاب القملة من البرغوث. قال الأسد: وكيف كان ذلك؟

قال دمنة: زعموا أن قملة لزمت فراش رجل من الأغنياء دهراً فكانت تصيب من دمه وهو نائمٌ لا يشعر، وتدب دبيباً رفيقاً؛ فمكث كذلك حيناً حتىٰ استضافها ليلةً من الليالي برغوثٌ؛ فقالت له: بت الليلة عندنا في دم طيبٍ وفراشٍ لينٍ؛ فأقام البرغوث عندها حتىٰ إذا أوىٰ الرجل إلىٰ فراشه وثب عليه البرغوث فلدغه لدغةً أيقظته؛ وأطارت النوم عنه؛ فقام الرجل وأمر أن يفتش فراشه؛ فنظر فلم ير إلا القملة؛ فأخذت فقصعت[٢٢٠] وفر البرغوث. وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن صاحب الشر لا يسلم من شره أحد، وإن هو ضعف عن ذلك جاء الشر بسببه. وإن كنت لا تخاف من شتربة، فخف غيره من جندك الذين قد حملهم عليك وعلىٰ عداوتك. فوقع في نفس الأسد كلام دمنة. فقال:

(٢٢٠) قتلت سحقاً بالأظافر.

فما الذي ترىٰ إذاً؟ وبماذا تشير؟ قال دمنة: إن الضرس لا يزال متآكلاً، ولا يزال صاحبه منه في ألم وأذًىٰ حتىٰ يفارقه. والطعام الذي قد عفن في البطن، الراحة في قذفه. والعدو المخوف، دواؤه قتله. قال الأسد: لقد تركتني أكره مجاورة شتربة إياي؛ وأنا مرسلٌ إليه، وذاكراً له ما وقع في نفسي منه؛ ثم آمره باللحاق حيث أحب. فكره دمنة ذلك، وعلم أن الأسد متىٰ كلم شتربة في ذلك وسمع منه جواباً عرف باطل ما أتىٰ به، واطلع علىٰ غدره وكذبه؛ ولم يخف عليه أمره. فقال للأسد: أما إرسالك إلىٰ شتربة فلا أراه لك رأياً ولا حزماً؛ فلينظر الملك في ذلك: فإن شتربة متىٰ شعر بهذا الأمر، خفت أن يعاجل الملك بالمكابرة. وهو إن قاتلك قاتلك مستعداً؛ وإن فارقك، فارقك فراقاً يليك منه النقص، ويلزمك منه العار. مع أن ذوي الرأي من الملوك لا يعلنون عقوبة من لم يعلن ذنبه؛ ولكن لكل ذنب عندهم عقوبةٌ: فلذنب العلانية عقوبة العلانية، ولذنب السر عقوبة السر. قال الأسد: إن الملك إذا عاقب أحداً عن ظنةٍ ظنها من غير تيقن بجرمه، فنفسه عاقب وإياها ظلم. قال دمنة: أما إذا كان هذا رأي الملك، فلا يدخلن عليك شتربة إلا وأنت مستعدٌ له؛ وإياك أن تصيبك منه غرةٌ أو غفلةٌ: فإني لا أحسب الملك حين يدخل عليه إلا سيعرف أنه قد هم بعظيمةٍ. ومن علامات ذلك أنك ترىٰ لونه متغيراً؛ وترىٰ أوصاله ترعد؛ وتراه ملتفتاً يميناً وشمالاً؛ وتراه يهز قرنيه فعل الذي هم بالنطاح والقتال. قال الأسد: سأكون منه علىٰ حذر؛ وإن رأيت منه ما يدل علىٰ ما ذكرت علمت أن ما في أمره شكٌ.

فلما فرغ دمنة من حمل الأسد علىٰ الثور، وعرف أنه قد وقع في نفسه ما كان يلتمس، وأن الأسد سيحذر الثور، ويتهيأ له، أراد أن يأتي الثور ليغريه بالأسد؛ وأحب أن يكون إتيانه من قبل الأسد مخافة أن يبلغه ذلك فيتأذىٰ به. فقال: أيها الملك ألا آتي بشتربة فأنظر إلىٰ حاله وأمره؛

وأسمع كلامه: لعلي اطلع علىٰ سره، فأطلع الملك علىٰ ذلك، وعلىٰ ما يظهر لي منه؟ فأذن له الأسد في ذلك. فانطلق فدخل علىٰ شتربة كالكئيب الحزين. فلما رآه الثور رحب به، وقال: ما كان سبب انقطاعك عني؟ فإني لم أرك منذ أيامٍ؛ ولعلك في سلامةٍ! قال دمنة: ومتىٰ كان من أهل السلامة من لا يملك نفسه، وأمره بيد غيره ممن لا يوثق به، ولا ينفك علىٰ خطرٍ وخوف. حتىٰ ما من ساعة تمر ويأمن فيها علىٰ نفسه. قال شتربة: وما الذي حدث؟ قال دمنة: حدث ما قدر وهو كائنٌ. ومن ذا الذي غالب القدر؟ ومن ذا الذي بلغ من الدنيا جسيماً من الأمور فلم يبطر؟ ومن ذا الذي بلغ مناه فلم يغتر؟ ومن ذا الذي تبع هواه فلم يخسر؟ ومن ذا الذي طلب من اللئام فلم يحرم؟ ومن ذا الذي خالط الأشرار فسلم؟ ومن ذا الذي صحب السلطان فدام له منه الأمن والإحسان؟ قال شتربة: إني أسمع منك كلاماً يدل علىٰ أنه قد رابك من الأسد ريبٌ، وهالك منه أمرٌ. قال دمنة: أجل، لقد رابني منه ذلك، وليس هو في أمر نفسي، قال شتربة: ففي نفس من رابك؟ قال دمنة: قد تعلم ما بيني وبينك، وتعلم حقك علي، وما كنت جعلت لك من العهد والميثاق أيام أرسلني الأسد إليك، فلم أجد بداً من حفظك وإطلاعك علىٰ ما أطلعت عليه مما أخاف عليك منه. قال شتربة: وما الذي بلغك؟ قال دمنة: حدثني الخبير الصدوق الذي لا مرية في قوله أن الأسد قال لبعض أصحابه وجلسائه: قد أعجبني سمن الثور؛ وليس لي إلىٰ حياته حاجةٌ، فأنا آكله ومطعم أصحابي من لحمه. فلما بلغني هذا القول، وعرفت غدره ونقض عهده؛ أقبلت إليك لأقضي حقك؛ وتحتال أنت لأمرك. فلما سمع شتربة كلام دمنة، وتذكر ما كان من دمنة جعل له من العهد والميثاق، وفكر في أمر الأسد، ظن أن دمنة قد صدَقَهُ ونصح له؛ ورأىٰ أن الأمر شبيهٌ بما قال دمنة. فأهمه ذلك؛ وقال: ما كان للأسد أن يغدر بي

ولم آت إليه ذنباً، ولا إلىٰ أحد من جنده، منذ صحبته؛ ولا أظن الأسد إلا قد حمل علي بالكذب وشبه عليه أمري: فإن الأسد قد صحبه قوم سوءٍ؛ وجرَّب منهم الكذب وأموراً هي تصدق عنده ما بلغه من غيرهم: فإن صحبة الأشرار ربما أورثت صاحبها سوء الظن بالأخيار؛ وحملته تجربته علىٰ الخطأ كخطأ البطة التي زعموا أنها رأت في الماء ضوء كوكبٍ، فظنته سمكةً، فحاولت أن تصيدها، فلما جربت ذلك مراراً، علمت أنه ليس بشيء يصاد فتركته. ثم رأت من غد ذلك اليوم سمكة، فظنت أنها مثل الذي رأته بالأمس، فتركتها ولم تطلب صيدها. فإن كان الأسد بلغه عني كذبٌ فصدقه علي وسمعه في، فما جرىٰ علىٰ غيري يجري علي. وإن كان لم يبلغه شيءٌ، وأراد السوء بي من غير علةٍ، فإن ذلك لمن أعجب الأمور. وقد كان يقال: إن من العجب أن يطلب الرجل رضا صاحبه ولا يرضىٰ. وأعجب من ذلك أن يلتمس رضاه فيسخط. فإذا كانت الموجدة[٢٢١] عن علةٍ، كان الرضا موجوداً والعفو مأمولًا. وإذا كانت عن غير علةٍ، انقطع الرجاء: ذلك لأن العلة إذا كانت الموجدة في ورودها، كان الرضا مأمولاً في صدورها.

قد نظرت: فلا أعلم بيني وبين الأسد جرماً، ولا صغير ذنب، ولا كبيره. ولعمري ما يستطيع أحد أطال صحبة صاحب أن يحترس في كل شيءٍ من أمره، ولا أن يتحفظ من أن يكون منه صغيرةٌ أو كبيرةٌ يكرهها صاحبه؛ ولكن الرجل ذا العقل وذا الوفاء إذا سقط عنده صاحبه سقطةً نظر فيها، وعرف قدر مبلغ خطئه عمداً كان أو خطأً. ثم ينظر هل في الصفح عنه أمرٌ يخاف ضره وشينه؟ فلا يؤاخذ صاحبه بشيء يجد فيه إلىٰ الصفح عنه سبيلاً. فإن كان الأسد قد اعتقد علي ذنباً؛ فلست أعلمه؛ إلا أني خالفته في بعض رأيه نصيحة له؛ فعساه أن يكون قد أنزل أمري علىٰ الجراءة

(٢٢١) الغضب.

عليه والمخالفة له؛ ولا أجد لي في هذا المحضر إثمًا ما: لأني لم أخالفه في شيءٍ إلا ما قد ندر من خالفة الرّشد والمنفعة والدِّين، ولم أجاهر بشيءٍ من ذلك علىٰ رؤوس جنده وعند أصحابه؛ ولكني كنت أخلو به وأكلمه سراً كلام الهائب الموقر وعلمت أنه من التمس الرخص[٢٢٢] من الإخوان عند المشاورة، ومن الأطباء عند المرض، ومن الفقهاء عند الشبهة، أخطأ منافع الرأي؛ وازداد فيما وقع فيه من ذلك تورطًا، وحمل الوزر. وإن لم يكن هذا، فعسىٰ أن يكون ذلك من بعض سكرات السلطان: فإن مصاحبة السلطان خطرةٌ، وإن صوحب بالسلامة والثقة والمودة وحسن الصحبة. وإن لم يكن هذا، فبعض ما أوتيت من الفضل قد جعل لي فيه الهلاك. وإن لم يكن هذا ولا هذا، فهو إذاً من مواقع القضاء والقدر الذي لا يدفع عنه؛ والقدر هو الذي يسلب الأسد قوته وشجاعته ويدخله القبر، وهو الذي يحمل الرجل الضعيف علىٰ ظهر الفيل الهائج؛ وهو الذي يسلط علىٰ الحية ذات الحمة[٢٢٣] من ينزع حمتها ويلعب بها؛ وهو الذي يجعل العاجز حازمًا، ويثبط[٢٢٤] الشهم، ويوسع علىٰ المقتر[٢٢٥]، ويشجع الجبان، ويجبن الشجاع عندما تعتريه المقادير من العلل التي وضعت عليه الأقدار.

قال دمنة: إن إرادة الأسد بك ليست من تحميل الأشرار ولا سكرة السلطان ولا غير ذلك، ولكنها الغدر والفجور منه: فإنه فاجرٌ خوانٌ غدارٌ: لطعامه حلاوةٌ وآخره سمٌ مميتٌ. قال شتربة: فأراني قد استلذذت الحلاوة إذ ذقتها: وقد انتهيت إلىٰ آخرها الذي هو الموت؛ ولولا الحين ما كان مقامي عند الأسد، وهو آكل لحمٍ وأنا آكل عشبٍ؟ فأنا

(٢٢٢) جمع رخصة، وهي الإذن أو التسهيل.
(٢٢٣) حمة الحية سمها أو سنها الحاد الذي تلدغ به.
(٢٢٤) يثبط أي يعيق.
(٢٢٥) أي الفقير.

في هذه الورطة كالنحلة التي تجلس على نور النيلوفر[٢٢٦] إذ تستلذ ريحه وطعمه، فتحبسها تلك اللذة؛ فإذا جاء الليل ينضم عليها، فترتبك فيه وتموت. ومن لم يرض من الدنيا بالكفاف الذي يغنيه وطمحت عينه إلى ما سوى ذلك، ولم يتخوف من عاقبتها، كان كالذباب الذي لا يرضى بالشجرة والرياحين، ولا يقنعه ذلك، حتى يطلب الماء الذي يسيل من أذن الفيل، فيضربه الفيل بآذانه فيهلكه. ومن يبذل وده ونصيحته لمن لا يشكره، فهو كمن يبذر في السباخ. ومن يشر على المعجب، فهو كمن يشاور الميت أو يسار الأصم. قال دمنة: دع عنك هذا الكلام واحتل لنفسك. قال شتربة: بأي شيء أحتال لنفسي، إذا أراد الأسد أكلي، مع ما عرفتني به من رأي الأسد وسوء أخلاقه؟ وأعلم أنه لو لم يرد بي إلا خيراً، ثم أراد أصحابه بمكرهم وفجورهم هلاكي لقدروا على ذلك فإنه إذا اجتمع المكرة الظلمة على البريء الصحيح، كانوا خلقاء أن يهلكوه، وإن كانوا ضعفاء وهو قوي؛ كما أهلك الذئب والغراب وابن آوى الجمل، حين اجتمعوا عليه بالمكر والخديعة والخيانة. قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

قال شتربة: زعموا أن أسداً كان في أجمة مجاورة لطريق من طرق الناس؛ وكان له أصحابٌ ثلاثةٌ: ذئبٌ وغرابٌ وابن آوى؛ وأن رعاةً مروا بذلك الطريق، ومعهم جمالٌ، فتخلف منها جملٌ، فدخل تلك الأجمة حتى انتهى إلى الأسد؛ فقال له الأسد: من أين أقبلت؟ قال: من موضع كذا. قال: فما حاجتك؟ قال: ما يأمرني به الملك. قال: تقيم عندنا في السعة والأمن والخصب. فأقام الأسد والجمل معه زمناً طويلاً. ثم إن الأسد مضى في بعض الأيام لطلب الصيد، فلقي فيلاً عظيماً، فقاتله قتالاً شديداً؛ وأفلت منه مثقلاً مثخناً بالجراح، يسيل منه الدم، وقد خدشه

(٢٢٦) نوع من أنواع الورد.

الفيل بأنيابه. فلما وصل إلىٰ مكانه، وقع لا يستطيع حراكًا، ولا يقدر علىٰ طلب الصيد؛ فلبث الذئب والغراب وابن آوىٰ أياما لا يجدون طعاما: لأنهم كانوا يأكلون من فضلات الأسد وطعامه؛ فأصابهم جوعٌ شديدٌ وهزالٌ، وعرف الأسد ذلك منهم؛ فقال: لقد جهدتم[٢٢٧] واحتجتم إلىٰ ما تأكلون. فقالوا لا تهمنا أنفسنا: لكنا نرىٰ الملك علىٰ ما نراه. فليتنا نجد ما يأكله ويصلحه. قال الأسد: ما أشك في نصيحتكم، ولكن انتشروا لعلكم تصيبون صيدا تأتونني به؛ فيصيبني ويصيبكم منه رزقٌ. فخرج الذئب والغراب وابن آوىٰ من عند الأسد؛ فتنحوا ناحيةً، وتشاوروا فيما بينهم، وقالوا: مالنا ولهذا الأكل العشب الذي ليس شأنه من شأننا، ولا رأيه من رأينا؟ ألا نزين للأسد فيأكله ويطعمنا من لحمه؟ قال ابن آوىٰ: هذا مما لا نستطيع ذكره للأسد: لأنه قد أمن الجمل، وجعل له من ذمته عهداً. قال الغراب: أنا أكفيكم أمر الأسد. ثم انطلق فدخل علىٰ الأسد؛ فقال له الأسد: هل أصبت شيئاً؟ قال الغراب: إنما يصيب من يسعىٰ ويبصر. وأما نحن فلا سعي لنا ولا بصر: لما بنا من الجوع؛ ولكن قد وفقنا لرأي واجتمعنا عليه؛ إن وافقنا الملك فنحن له مجيبون. قال الأسد: وما ذاك؟ قال الغراب: هذا الجمل آكل العشب المتمرّغ بيننا من غير منفعة لنا منه، ولا رد عائدةٍ، ولا عمل يعقب مصلحةً. فلما سمع الأسد ذلك غضب وقال: ما أخطأ رأيك، وما اعجز مقالك، وأبعدك من الوفاء والرحمة؟ وما كنت حقيقاً أن تجتري علي بهذه المقالة، وتستقبلني بهذا الخطاب؛ مع ما علمت من أني قد أمنت الجمل، وجعلت له من ذمتي. أو لم يبلغك أنه لم يتصدق متصدقٌ بصدقة هي أعظم أجراً ممن أمن نفساً خائفةً، وحقن دماً مهدراً؟ وقد أمنته ولست بغادر به. قال الغراب: إني لأعرف ما يقول

(٢٢٧) أي أصابكم التعب والمشقة

الملك؛ ولكن النفس الواحدة يفتدىٰ بها أهل البيت؛ وأهل البيت تفتدىٰ بهم القبيلة؛ والقبيلة يفتدىٰ بها أهل المصر؛ وأهل المصر فداء الملك. وقد نزلت بالملك الحاجة؛ وأنا أجعل له من ذمته مخرجًا، علىٰ ألا يتكلف الملك ذلك، ولا يليه بنفسه، ولا يأمر به أحداً؛ ولكنا نحتال بحيلةٍ لنا وله فيها إصلاحٌ وظفرٌ. فسكت الأسد عن جواب الغراب عن هذا الخطاب. فلما عرف الغراب إقرار الأسد أتىٰ أصحابه، فقال لهم: قد كلمت الأسد في أكله الجمل؛ علىٰ أن نجتمع نحن والجمل عند الأسد، فنذكر ما أصابه، ونتوجع له اهتمامًا منا بأمره، وحرصًا علىٰ صلاحه؛ ويعرض كل واحدٍ منا نفسه عليه تجملاً ليأكله، فيرد الآخران عليه، ويسفها رأيه، ويبينان الضرر في أكله. فإذا فعلنا ذلك، سلمنا كلنا ورضي الأسد عنا. ففعلوا ذلك، وتقدموا إلىٰ الأسد؛ فقال الغراب: قد احتجت أيها الملك إلىٰ ما يقويك؛ ونحن أحق أن نهب أنفسنا لك: فإنا بك نعيش؛ فإذا هلكت فليس لأحدٍ منا بقاءٌ عندك، ولا لنا في الحياة من خيرةٍ؛ فليأكلني الملك: فقد طبت بذلك نفسًا. فأجابه الذئب وابن آوىٰ أن اسكت؛ فلا خير للملك في أكلك؛ وليس فيك شبعٌ. قال ابن آوىٰ لكن أنا أشبع الملك، فليأكلني: فقد رضيت بذلك، وطبت عنه نفسًا. فرد عليه الذئب والغراب بقولهما: إنك لمنتنٌ قذرٌ. قال الذئب: إني لست كذلك، فليأكلني الملك، فقد سمحت بذلك، وطبت عنه نفسًا؛ فاعترضه الغراب وابن آوىٰ وقالا: قد قالت الأطباء: من أراد قتل نفسه فليأكل لحم ذئب. فظن الجمل أنه إذا عرض نفسه علىٰ الأكل، التمسوا له عذراً كما التمس بعضهم لبعضٍ الأعذار، فيسلم ويرضىٰ الأسد عنه بذلك، وينجو من المهالك. فقال: لكن أنا في للملك شبعٌ وريٌّ؛ لحمي طيبٌ هنيٌّ، وبطني نظيفٌ، فليأكلني الملك، ويطعم أصحابه وخدمه: فقد رضيت بذلك، وطابت نفسي عنه، وسمحت به. فقال

الذئب والغراب وابن آوىٰ: لقد صدق الجمل وكرم؛ وقال ما عرف، ثم إنهم وثبوا عليه فمزقوه. وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنه إن كان أصحاب الأسد قد اجتمعوا علىٰ هلاكي فإني لست أقدر أن أمتنع منهم، ولا أحترس؛ وإن كان رأي الأسد لي علىٰ غير ما هم من الرأي في، فلا ينفعني ذلك، ولا يغني عني شيئًا. وقد يقال: خير السلاطين من عدل في الناس. ولو أن الأسد لم يكن في نفسه لي إلا الخير والرحمة، لغيرته كثرة الأقاويل: فإنها إذا كثرت لم تلبث دون أن تذهب الرقة والرأفة. ألا ترىٰ الماء ليس كالقول؛ وأن الحجر أشد من الإنسان، فالماء إذا دام انحداره علىٰ الحجر لم يلبث حتىٰ يثقبه ويؤثر فيه. وكذلك القول في الإنسان. قال دمنة: فماذا تريد أن تصنع الآن؟ قال شتربة: ما أرىٰ إلا الاجتهاد والمجاهدة بالقتال: فإنه ليس للمصلي في صلاته، ولا للمتصدق في صدقته، ولا للورع في ورعه من الأجر ما للمجاهد عن نفسه، إذا كانت مجاهدته علىٰ الحق. قال دمنة: لا ينبغي لأحد أن يخاطر بنفسه، وهو يستطيع غير ذلك، ولكن ذا الرأي جاعل القتال آخر الحيل؛ وبادئٌ قبل ذلك بما استطاع من رفقٍ وتمحل. وقد قيل: لا تحقرن العدو الضعيف المهين، ولا سيما إذا كان ذا حيلةٍ ويقدر علىٰ الأعوان؛ فكيف بالأسد علىٰ جراءته وشدته؟ فإن من حقر عدوه لضعفه أصابه ما أصاب وكيل البحر من الطيطوىٰ(٢٢٨) قال شتربة: وكيف كان ذلك، قال دمنة: زعموا أن طائراً من طيور البحر يقال له الطيطوىٰ كان وطنه علىٰ ساحل البحر، ومعه زوجةٌ له، فلما جاء أوان تفريخها قالت الأنثىٰ للذكر: لو التمسنا مكاناً حريزاً(٢٢٩) نفرخ فيه: فإني أخشىٰ من وكيل البحر إذا مد الماء أن يذهب بفراخنا. فقال لها: أفرخي مكانك: فإنه موافق لنا؛ والماء والزهر منا قريبٌ. قالت له: يا غافل ليحسن نظرك: فإني أخاف وكيل البحر

(٢٢٨) هي نوع من أنواع القطا.
(٢٢٩) آمنا محصن.

أن يذهب بفراخنا. فقال لها أفرخي مكانك: فإنه لا يفعل ذلك فقالت له: ما أشد تعنتك[٢٣٠] أما تذكر وعيده وتهديده إياك؟ ألا تعرف نفسك وقدرك؟ فأبىٰ أن يطيعها. فلما أكثرت عليه ولم يسمع قولها، قالت له: إن من لم يسمع قول الناصح يصيبه ما أصاب السلحفاة حين لم تسمع قول البطتين. قال الذكر: وكيف كان ذلك؟ قالت الأنثىٰ: زعموا أن غديراً كان عنده عشبٌ، وكان فيه بطتان وكان في الغدير سلحفاةٌ، بينها وبين البطتين مودةٌ وصداقةٌ. فاتفق أن غيض[٢٣١] ذلك الماء؛ فجاءت البطتان لوداع السلحفاة، وقالتا: السلام عليك فإننا ذاهبتان عن هذا المكان لأجل نقصان الماء عنه. فقالت: إنما يبين نقصان الماء علىٰ مثلي: فإني كالسفينة لا أقدر علىٰ العيش إلا بالماء. فأما أنتما فتقدران علىٰ العيش حيث كنتما. فاذهبا بي معكما. قالتا لها: نعم. قالت: كيف السبيل إلىٰ حملي؟ قالتا: نأخذ بطرفي عودٍ، وتتعلقين بوسطه؛ ونطير بك في الجو. وإياك، إذا سمعت الناس يتكلمون، أن تنطقي. ثم أخذتاها فطارتا بها في الجو. فقال الناس: عجبٌ: سلحفاة بين بطتين، قد حملتاها. فلما سمعت ذلك قالت: فقأ الله أعينكم أيها الناس، فلما فتحت فاها بالنطق وقعت علىٰ الأرض فماتت. قال الذكر: قد سمعت مقالتك؛ فلا تخافي وكيل البحر. فلما مد الماء ذهب بفراخها. فقالت الأنثىٰ: قد عرفت في بدء الأمر أن هذا كائنٌ. قال الذكر: سوف أنتقم منه. ثم مضىٰ إلىٰ جماعة الطير فقال لهن: إنكن أخواتي وثقاتي: فأعنني. قلن: ما تريد أن نفعل؟ قال: تجتمعن وتذهبن معي إلىٰ سائر الطير، فنشكو إليهن ما لقيت من وكيل البحر؛ ونقول لهن: إنكن طيرٌ مثلنا: فأعننا. فقالت له جماعة الطير: إن العنقاء هي سيدتنا وملكتنا: فاذهب بنا إليها حتىٰ نصيح بها، فتظهر لنا؛ فنشكو إليها ما نالك من وكيل البحر؛ ونسألها

(٢٣٠) التعنت هو إدخال الصعوبة في الأمر.

(٢٣١) من غاض.

أن تنتقم لنا بقوة ملكها. ثم إنهن ذهبن إليها مع الطيطوىٰ، فستغثنها؛ وصحن بها؛ فتراءت لهن فأخبرنها بقصتهن؛ وسألنها أن تسير معهن إلىٰ محاربة وكيل البحر، فأجابتهن إلىٰ ذلك. فلما علم وكيل البحر أن العنقاء قد قصدته في جماعة الطير خاف من محاربة ملكٍ لا طاقة له به. فرد فراخ الطيطوىٰ؛ وصالحه فرجعت العنقاء عنه.

وإنما حدثتك بهذا الحديث لتعلم أن القتال مع الأسد لا أراه لك رأياً.

قال شتربة: فما أنا بمقاتل الأسد، ولا ناصب له العداوة سراً ولا علانية لا متغيرٍ له عما كنت عليه، حتىٰ يبدو لي منه ما أتخوف فأغالبه. فكره دمنة قوله، وعلم أن الأسد إن لم ير من الثور العلامات التي ذكرها له اتهمه وأساء به الظن. فقال دمنة لشتربة: اذهب إلىٰ الأسد فستعرف حين ينظر إليك ما يريد منك. قال شتربة: وكيف أعرف ذلك؟ قال دمنة: سترىٰ الأسد حين تدخل عليه مقعياً علىٰ ذنبه(٢٣٢)، رافعاً صدره إليك، ماداً بصره نحوك، قد صر أذنيه(٢٣٣) وفغر فاه، واستوىٰ للوثبة.

قال شتربة: إن رأيت هذه العلامات من الأسد عرفت صدقك في قولك.

ثم إن دمنة لما فرغ من حمل الأسد علىٰ الثور، والثور علىٰ الأسد توجه إلىٰ كليلة. فلما التقيا، قال كليلة: إلام انتهىٰ عملك الذي كنت فيه؟ قال دمنة: قريبٌ من الفراغ علىٰ ما أحب وتحب. ثم إن كليلة ودمنة انطلقا جميعاً ليحضرا قتال الأسد والثور، وينظرا ما يجري بينهما، ويعاينا ما يؤول إليه أمرهما. وجاء شتربة، فدخل علىٰ الأسد، فرآه مقعياً كما وصفه له دمنة، فقال: ما صاحب السلطان إلا كصاحب الحية التي في مبيته ومقيله، فلا يدري متىٰ تهيج به. ثم إن الأسد نظر إلىٰ الثور فرأىٰ الدلالات التي ذكرها له دمنة: فلم يشك أنه جاء لقتاله. فواثبه، ونشأ بينهما الحرب، واشتد قتال الثور والأسد، وطال، وسالت بينهما

---

(٢٣٢) جالساً علىٰ ذيله.

(٢٣٣) رفع أذنيه للاستماع.

الدماء. فلما رأىٰ كليلة أن الأسد قد بلغ منه ما قد بلغ. قال لدمنة: أيها الفسل[٢٣٤] ما أنكر جهلتك وأسوأ عاقبتك في تدبيرك! قال دمنة: وما ذاك؟ قال كليلة: جرح الأسد وهلك الثور. وإن أخرق الخرق من حمل صاحبه علىٰ سوء الخلق والمبارزة والقتال، وهو يجد إلىٰ غير ذلك سبيلاً. وإن العاقل يدبر الأشياء ويقيسها قبل مباشرتها: فما رجا أن يتم له منها أقدم عليه، وما خاف أن يتعذر عليه منها انحرف عنه، ولم يلتفت إليه. وإني لأخاف عليك عاقبة بغيك هذا: فإنك قد أحسنت القول ولم تحسن العمل. أين معاهدتك إياي أنك لا تضر بالأسد في تدبيرك؟ وقد قيل: لا خير في القول إلا مع العمل، ولا في الفقه إلا مع الورع، ولا في الصدقة إلا مع النية، ولا في المال إلا مع الجود، ولا في الصدق إلا مع الوفاء، ولا في الحياة إلا مع الصحة، ولا في الأمن إلا مع السرور.

واعلم أن الأدب يذهب عن العاقل الطيش، ويزيد الأحمق طيشاً؛ كما أن النهار يزيد كل ذي بصر نظراً، ويزيد الخفاش سوء النظر.

وقد أذكرني أمرك شيئا سمعته، فإنه يقال: إن السلطان إذا كان صالحاً، ووزراؤه وزراء سوءٍ، منعوا خيره، فلا يقدر أحدٌ أن يدنو منه. ومثله في ذلك مثل الماء الطيب الذي فيه التماسيح: لا يقدر أحدٌ أن يتناوله، وإن كان إلىٰ الماء محتاجاً. وأنت يا دمنة أردت ألا يدنو من الأسد أحد سواك. وهذا أمرٌ لا يصح ولا يتم أبداً. وذلك للمثل المضروب: إن البحر بأمواجه، والسلطان بأصحابه. ومن الحمق الحرص علىٰ التماس الإخوان بغير الوفاء لهم، وطلب الآخرة بالرياء، ونفع النفس بغير الضر. وما عظتي وتأديبي إياك إلا كما قال الرجل للطائر: لا تلتمس تقويم ما لا يستقيم، ولا تعالج تأديب من لا يتأدب. قال دمنة: وكيف كان ذلك؟ قال كليلة: زعموا أن جماعة من القردة كانوا سكانا في جبل، فالتمسوا في

(٢٣٤) المنحط الذي لا وفاء عنده ولا مروءة.

ليلةٍ باردةٍ ذات رياح وأمطارٍ ناراً، فلم يجدوا، فرأوا يراعةً[٢٣٥] تطير كأنها شرارة نارٍ، فظنوها ناراً، وجمعوا حطباً كثيراً فألقوه عليها، وجعلوا ينفخون طمعاً أن يوقدوا ناراً يصطلون[٢٣٦] بها من البرد. وكان قريباً منهم طائر على شجرةٍ، ينظرون إليه وينظر إليهم، وقد رأى ما صنعوا، فجعل يناديهم ويقول: لا تتعبوا فإن الذي رأيتموه ليس بنارٍ. فلما طال ذلك عليه عزم على القرب منهم لينهاهم عما هم فيه، فمر به رجلٌ فعرف ما عزم عليه. فقال له: لا تلتمس تقومي ما لا يستقيم: فإن الحجر المانع[٢٣٧] الذي لا ينقطع لا تجرب عليه السيوف، والعود الذي لا نحني لا يعمل منه القوس: فلا تتعب. فأبى الطائر أن يطيعه، وتقدم إلى القردة ليعرفهم أن اليراعة ليسن بنار. فتناوله بعض القردة فضرب به الأرض فمات. فهذا مثلي معك في ذلك. ثم قد غلب عليك الخبّ[٢٣٨] والفجور، وهما خلتا سوءٍ، والخصب شرهما عاقبةً. ولهذا مثل. قال دمنة: وما ذلك المثل؟ قال كليلة: زعموا أن خباً ومغفلاً اشتركا في تجارةٍ وسافرا، فبينما هما في الطريق، إذ تخلف المغفل لبعض حاجته، فوجد كيساً فيه ألف دينار، فأخذه؛ فأحس به الخب، فرجعا إلى بلدهما؛ حتى إذا دنوا من المدينة قعدا لاقتسام المال. فقال المغفل: خذ نصفه وأعطني نصفه؛ وكان الخب قد قرر في نفسه أن يذهب بالألف جميعه. فقال له: لا نقتسم، فإن الشركة والمفاوضة أقرب إلى الصفاء والمخالطة؛ ولكن آخذ نفقةً، وتأخذ مثلها؛ وندفن الباقي في أصل هذه الشجرة: فهو مكانٌ حريزٌ. فإذا احتجنا جئنا أنا وأنت فنأخذ حاجتنا منه؛ ولا يعلم بموضعنا أحدٌ. فأخذا منه يسيراً، ودفنا الباقي في أصل دوحةٍ[٢٣٩]، ودخلا البلد.

---

(٢٣٥) نوع من الحشرات يشع في الظلام.

(٢٣٦) يستدفئون.

(٢٣٧) الصلد.

(٢٣٨) الخب صفة مذمومة، ويقال رجلا خب أي مخادع مفسد كثير الشر.

(٢٣٩) من أسماء الأشجار العظيمة.

ثـم إن الخـب خالـف[٢٤٠] المغفـل إلـىٰ الدنانيـر فأخذهـا، وسـوىٰ الأرض كما كانـت. وجاء المغفل بعد ذلـك بأشهر فقال للخـب: قـد احتجـت إلىٰ نفقةٍ فانطلق بنا نأخـذ حاجتنا؛ فقام الخـب معه وذهبا إلىٰ المكان فحفرا، فلـم يجـدا شيئًا. فأقبـل الخـب علىٰ وجهـه يلطمـه يقـول: لا تغتر بصحبة صاحـب: خالفتنـي إلـىٰ الدنانيـر فأخذتها. فجعـل المغفـل يحلـف ويلعن آخذهـا ولا يـزداد الحـب إلا شـدة في اللطـم. وقـال: مـا أخذهـا غيـرك. وهـل شعر بها أحدٌ سـواك؟ ثـم طـال ذلـك بينهمـا، فترافعـا إلـىٰ القاضـي، فاقتص القاضي قصتهمـا، فادعىٰ الخب أن المغفل آخذهـا، وجحـد المغفـل. فقـال للخـب: ألـك علىٰ دعـواك بينـة؟ قـال: نعـم الشـجرة التـي كانـت الدنانيـر عندهـا تشـهد لـي أن المغفـل أخذهـا. وكان الخـب قـد أمـر أبـاه أن يذهـب فيتـوارىٰ في الشـجرة بحيـث إذا سـئلت أجـاب. فذهـب أبـو الخـب فدخـل جـوف الشـجرة. ثـم إن القاضـي لمـا سـمع ذلـك مـن الخـب أكبـره، وانطلـق هـو وأصحابـه والخـب والمغفـل معـه؛ حتـىٰ وافىٰ الشـجرة؛ فسـألها عـن الخبر. فقـال الشـيخ مـن جوفهـا: نعـم المغفـل أخذهـا. فلمـا سـمع القاضـي ذلـك اشـتد تعجبـه. فدعـا بحطـب وأمر أن تحـرق الشـجرة. فأضرمـت حولهـا النيـران فاسـتغاث أبـو الخـب عنـد ذلـك. فأخـرج وقـد أشـرف علـىٰ الهـلاك. فسـأله القاضـي عـن القصـة فأخـبره بالخـبر؛ فأوقـع بالخـب ضربـًا، وبأبيـه صفعـًا[٢٤١]، وأركبـه مشـهورًا[٢٤٢]، وغـرّم الخـب الدنانيـر فأخذهـا وأعطاهـا المغفـل.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن الحب والخديعة ربما كان صاحبهما هو المغبون. وإنك يا دمنة جامعٌ للخب والخديعة والفجور. وإني أخشىٰ عليك ثمرة عملك، مع أنك لست بناج من العقوبة: لأنك ذو لونين ولسانين. وإنما

(٢٤٠) أي ذهب مخالفا لصاحبه.
(٢٤١) الصفع هو الضرب علىٰ القفا.
(٢٤٢) نوع من العقوبة، وهي أن يُركب المذنب علىٰ دابة فيطاف به في الشوارع وإعلان ذنبه وجريرته علىٰ الناس.

عذوبة ماء الأنهار ما لم تبلغ إلىٰ البحار. وصلاح أهل البيت ما لم يكن فيهم المفسد. وإنه لا شيء أشبه بك من الحية ذات اللسانين التي فيها السم: فإن قد يجري من لسانك كسمها. وإني لم أزل لذلك السم من لسانك خائفاً، ولما يحل بك متوقعاً، والمفسد بين الإخوان والأصحاب كالحية يربيها الرجل ويطعمها ويمسحها ويكرمها، ثم لا يكون له منها غير اللدغ. وقد يقال: الزم ذا العقل وذا الكرم، واسترسل إليهما، وإياك ومفارقتهما؛ واصحب الصاحب إذا كان عاقلاً كريماً أو عاقلاً غير كريم: فالعاقل الكريم كاملٌ، والعاقل غير الكريم أصحبه، وإن كان غير محمود الخليقة، وأحذر من سوء أخلاقه وانتفع بعقله، والكريم غير العاقل، الزمه ولا تدع مواصلته، وإن كنت لا تحمد عقله، وانتفع بكرمه، وانفعه بعقلك؛ والفرار كل القرار من اللئيم الأحمق. وإني بالفرار منك لجديرٌ. وكيف يرجو إخوانك عندك كرماً ووداً وقد صنعت بملكك الذي أكرمك وشرفك ما صنعت؟ وإن مثلك مثل التاجر الذي قال: إن أرضاً تأكل جرذانها مائة منٍّ[٢٤٣] حديداً، ليس بمستنكر علىٰ بزاتها أن تختطف الأفيال. قال دمنة: وكيف كان ذلك؟ قال كليلة: زعموا أنه كان بأرض كذا تاجرٌ، فأراد الخروج إلىٰ بعض الوجوه لابتغاء الرزق؛ وكان عنده مائة من حديدٍ؛ فأودعها رجلاً من إخوانه، وذهب في وجهه. ثم قدم بعد ذلك بمدةٍ؛ فجاء والتمس الحديد، فقال له: إنه قد أكلته الجرذان. فقال: قد سمعت أنه لا شيء أقطع من أنيابها للحديد. ففرح الرجل بتصديقه علىٰ ما قال وادعىٰ. ثم إن التاجر خرج، فلقي ابناً للرجل؛ فأخذه وذهب به إلىٰ منزله؛ ثم رجع إليه الرجل من الغد فقال له: هل عندك علم بابني: فقال له التاجر: إني لما خرجت من عندك بالأمس، رأيت بازياً[٢٤٤] قد اختطف صبياً، ولعله ابنك. فلطم الرجل علىٰ رأسه وقال: يا قوم هل سمعتم أو رأيتم أن البزاة تخطف الصبيان؟ فقال: نعم. وإن أرضاً تأكل جرذانها مائة من من حديد ليس بعجب

(٢٤٣) المن هو وحدة من وحدات الكيل وتعادل رطلين.
(٢٤٤) الباز نوع من الصقور، وقد يقال له بازي، وجمعه بزاة.

ا، تختطف بزاتها الفيلة. قال له الرجل: أنا أكلت حديدك وهذا ثمنه. فاردد ابني. وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنك إذا غدرت بصاحبك فلا ك أنك بمن سواه أغدر؛ وأنه إذا صاحب أحد صاحبًا وغدر بمن سواه فقد علم صاحبه أنه ليس عنده للمودة موضعٌ: فلا شيء أضيع من مودةٍ تمنح من لا وفاء له، وحباءٍ يصطنع عند من لا شكر له، وأدبٍ يحمل إلىٰ من لا يتأدب به ولا يسمعه، وسر يستودع من لا يحفظه؛ فإن صحبة الأخيار تورث الخير، وصحبة الأشرار تورث الشر: كالريح إذا مرت بالطيب حملت طيبا، وإذا مرت بالنتن حملت نتنا، وقد طال وثقل كلامي عليك.

فانتهىٰ كليلة من كلامه إلىٰ هذا المكان وقد فرغ الأسد من الثور، ثم فكر في قتله بعد أن قتله وذهب عنه الغضب. وقال: لقد فجعني شتربة بنفسه؛ وقد كان ذا عقلٍ ورأيٍ وخلقٍ كريم، ولا أدري لعله كان بريئًا أو مكذوبًا عليه؛ فحزن وندم علىٰ ما كان منه، وتبين ذلك في وجهه؛ وبصر به دمنة، فترك محاورة كليلة، وتقدم إلىٰ الأسد فقال له: ليهنئك الظفر إذ أهلك الله أعداءك. فماذا يحزنك أيها الملك؟ قال: أنا حزينٌ علىٰ عقل شتربة ورأيه وأدبه. قال له دمنة: لا ترحمه أيها الملك: فإن العاقل لا يرحم من يخافه. وإن الرجل الحازم ربما أبغض الرجل وكرهه، ثم قربه وأدناه: لما يعلم عنده من الغناء والكفاية، فعل الرجل المتكاره علىٰ الدواء الشنيع رجاء منفعته. وربما أحب الرجل، وعز عليه، فأقصاه وأهلكه، مخافة ضرره؛ كالذي تلدغه الحية في إصبعه فيقطعها، ويتبرأ منها مخافة أن يسر سمها إلىٰ بدنه. فرضي الأسد بقول دمنة. ثم علم بعد ذلك بكذبه وغدره وفجوره فقتله شر قتلة.

(انتهىٰ باب الأسد والثور)

باب الفحص عن أمر دمنة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد حدثتني عن الواشي الماهر المحتال، كيف يفسد بالنميمة المودة الثابتة بين المتحابين. فحدثني حينئذ بما كان من حال دمنة وما آل أمره إليه بعد قتل شتربة، وما كان من معاذيره عند الأسد وأصحابه حين راجع الأسد رأيه في الثور، وتحقق النميمة من دمنة، وما كانت حجته التي احتج بها؛ قال الفيلسوف: أنا وجدت في حديث دمنة أن الأسد حين قتل شتربة ندم علىٰ قتله، وذكر قديم صحبته وجسيم خدمته، وأنه كان أكرم أصحابه عليه. وأخصهم منزلةً لديه، وأقربهم وأدناهم إليه؛ وكان يواصل له المشورة دون خواصه. وكان من أخص أصحابه عنده بعد الثور النمر. فاتفق أنه أمسىٰ النمر ذات ليلةٍ عند الأسد؛ فخرج من عنده جوف الليل يردي منزله، فاجتاز علىٰ منزل كليلة ودمنة. فلما انتهىٰ إلىٰ الباب سمع كليلة يعاتب دمنة علىٰ ما كان منه، ويلومه علىٰ النميمة واستعمالها؛ خصوصاً مع الكذب والبهتان في حق الخاصة. وعرف النمر عصيان دمنة وترك القبول له. فوقف يستمع ما يجري بينهما فكان فيما قال كليلة لدمنة: لقد ارتكبت مركباً صعباً، ودخلت مدخلاً ضيقاً، وجنيت علىٰ نفسك جنايةً موبقةً، وعاقبتها وخيمةٌ؛ وسوف يكون مصرعك شديداً، إذا انكشف للأسد أمرك، واطلع عليه، وعرف غدرك ومحالك(٢٤٥)، وبقيت لا ناصر لك؛ فيجتمع عليك الهوان والقتل، مخافة شرك، وحذراً من غوائلك؛ فلست بمتخذك بعد اليوم خليلاً، ولا مفشٍ إليك سراً؛ لأن العلماء قد قالوا: تباعد عمن لا رغبة فيه. وأنا جدير بمباعدتك، والتماس الخلاص

(٢٤٥) أي عرف كيدك واحتيالك.

لـي ممـا وقـع في نفس الأسـد مـن هـذا الأمـر.

فلمـا سـمع النمـر هـذا مـن كلامهمـا قفـل راجعـًا، فدخـل علىٰ أم الأسـد؛ فأخـذ عليهـا العهـود ومواثيـق أن لا تفشـي مـا يسـر إليهـا، فعاهدتـه علـىٰ ذلـك فأخبرهـا بمـا سـمع مـن كلام كليلـة ودمنـة. فلمـا أصبحـت دخلـت علىٰ الأسـد، فوجدتـه كئيبـًا حزينـًا مهمومـًا: لمـا ورد عليـه مـن قتل شـتربة. فقالـت لـه: مـا هـذا الهـم الـذي قـد أخـذ منـك، وغلـب عليـك؟ قـال: يحزننـي قتـل شـتربة؛ إذ تذكـرت صحبتـه ومواظبتـه علىٰ خدمتـي، ومـا كنـت أسـمع مـن مناصحتـه. قالـت أم الأسـد: إن أشـد مـا شـهد امـرؤٌ علـىٰ نفسـه، وهـذا خطـأ عظيـم، كيـف أقدمـت علىٰ قتـل الثـور بـلا علـم ولا يقيـن؟ ولـو لا مـا قالـت العلمـاء في إذاعـة الأسـرار ومـا فيهـا مـن الإثـم والشـنار[٢٤٦]، لذكـرت لـك ولأخبرتـك بمـا علمـت. قـال الأسـد: إن أقـوال العلمـاء لهـا وجـوهٌ كثيـرةٌ، ومعـانٍ مختلفـةٌ. وإني لأعلـم صـواب مـا تقوليـن: وإن كان عنـدك رأي فـلا تطويـه عنـي؛ وإن كان قـد أسـر إليـك أحـدٌ سـراً فأخبرينـي بـه، وأطلعينـي عليـه، وعلىٰ جملـة الأمـر. فأخبرتـه بجميـع مـا ألقـاه إليهـا النمـر مـن غيـر أن تخبـره باسـمه. وقالـت: إني لـم أجهـل قـول العلمـاء في تعظيـم العقوبـة وتشـديدها، ومـا يدخـل علـىٰ الرجـل مـن العـار في إذاعـة الأسـرار؛ ولكنـي أحببـت أن أخـبرك بمـا فيـه المصلحـة لـك؛ وإن وصـل خطـؤه وضـرره إلـىٰ العامـة فإصرارهـم علىٰ خيانـة الملـك ممـا لا يدفـع الشـر عنهـم، وبـه يحتـج السـفهاء، ويستحسـنون مـا يكـون مـن أعمالهـم القبيحـة. وأشـد معارهـم[٢٤٧] إقدامهـم علىٰ ذي الحـزم. فلمـا قضـت أم الأسـد هـذا الكلام استدعىٰ أصحابه وجنـده فأدخلـوا عليـه. ثـم أمـر أن يؤتـىٰ بدمنـة. فلمـا وقـف بيـن يـدي الأسـد، ورأىٰ مـا هـو عليـه مـن الحـزن والكآبـة، التفـت إلـىٰ بعـض الحاضريـن فقـال: مـا الـذي حـدث؟ ومـا الـذي أحـزن الملـك؟ فالتفتـت أم الأسـد إليـه وقالـت:

(٢٤٦) الشنار هو القبيح من الأفعال المعيبة.

(٢٤٧) المعار هو جمع المعرة، وهي الفعل الجالب للعار.

قد أحزن الملك بقاؤك ولو طرفة عين؛ ولن يدعك بعد اليوم حيّاً! قال دمنة: ما ترك الأول للآخر شيئا: لأنه يقال: أشد الناس في توقي الشر، يصيبه الشر قبل المستسلم له. فلا يكونن الملك وخاصته وجنوده المثل السوء؛ وقد علمت أنه قد قيل: من صحب الأشرار، وهو يعلم حالهم، كان أذاه من نفسه: ولذلك انقطعت النساك بأنفسها عن الخلق، واختارت الوحدة على المخالطة، وحب العمل لله على حب الدنيا وأهلها. ومن يجزي بالخير خيرا وبالإحسان إحسانا إلا الله؟ ومن طلب الجزاء على الخير من الناس. وإن حقيقاً أن يحظى بالحرمان إذ يخطئ الصواب في خلوص العمل لغير الله تعالى وطلب الجزاء من الناس، وإن أحق ما رغبت فيه رعية الملك هو محاسن الأخلاق ومواقع الصواب وجميل السير؛ وقد قالت العلماء: من صدق ما ينبغي أن يكذب، وكذب ما ينبغي أن يصدق، خرج من مصاف العقلاء، وكان جديراً بالازدراء. فينبغي ألا يعجل الملك في أمري بشبهةٍ. ولست أقول هذا كراهةً للموت: فإنه وإن كان كريهاً، لا منجى منه. وكل حيٍّ هالكٌ. ولو كانت لي مائة نفسٍ وأعلم أن هوى الملك في إتلافهن، لطبت له بذلك نفساً.

فقال بعض الجند: لم ينطق بهذا لحبه بالملك، ولكن لخلاص نفسه، والتماس العذر لها. فقال لها دمنة: ويلك! وهل علي في التماس العذر لنفسي عيبٌ؟ وهل أحدٌ أقرب إلى الإنسان من نفسه؟ وإذا لم يلتمس لها العذر، فمن يلتمسه؟ لقد ظهر منك ما لم تكن تملك كتمانه من الحسد والبغضاء؛ ولقد عرف من سمع منك ذلك أنك لا تحب لأحد خيرا؛ وأنك عدو نفسك، فمن سواها بالأولى. فمثلك لا يصلح أن يكون مع البهائم، فضلاً عن أن يكون مع الملك، وأن يكون ببابه. فلما أجابه دمنة بذلك، خرج مكتئبا حزينا مستحيا. فقالت أم الأسد لدمنة: لقد عجبت منك، أيها المحتال، في قلة حيائك، وكثرة وقاحتك،

وسرعة جوابك لمن كلمك. قال دمنة: لأنك تنظرين إلىٰ بعينٍ واحدةٍ، وتسمعين مني بأذنٍ واحدةٍ، مع أن شقاوة جدي قد زوت(٢٤٨) عني كل شيء، حتىٰ لقد سعوا إلىٰ الملك بالنميمة علي، ولقد صار من بباب الملك لاستخفافهم به، وطول كرامته إياهم، وما هم فيه من العيش والنعمة، لا يدرون في أي وقت ينبغي لهم الكلام، ولا متىٰ يجب عليهم السكوت. قالت: ألا تنظرون إلىٰ هذا الشقي، مع عظم ذنبه، كيف يجعل نفسه بريئا كمن لا ذنب له؟ قال دمنة: إن الذين يعملون غير أعمالهم ليسوا علىٰ شيء؛ كالذي يضع الرماد موضعاً ينبغي أن يضع فيه الرمل؛ ويستعمل فيه السرجين(٢٤٩) والرجل الذي يلبس لباس المرأة، والمرأة التي تلبس لباس الرجل، والضيف الذي يقول: أنا رب البيت، والذي ينطق بين الجماعة بما لا يسأل عنه. وإنما الشقي من لا يعرف الأمور ولا أحوال الناس لا يقدر علىٰ دفع الشر عن نفسه، ولا يستطيع ذلك. قالت أم الأسد: أتظن أيها الغادر المحتال بقولك هذا أنك تخدع الملك، ولا يسجنك؟ قال دمنة: الغادر الذي لا يأمن عدوه مكره، وإذا استمكن من عدوه قتله علىٰ غير ذنب. قالت أم الأسد: أيها الغادر الكذوب، أتظن أنك ناجٍ من عاقبة كذبك؟ وأن محالك هذا ينفعك مع عظم جرمك؟ قال دمنة: الكذوب الذي يقول ما لم يكن، ويأتي بما لم يقل ولم يفعل، وكلامي واضحٌ مبينٌ. قالت أم الأسد: العلماء منكم هم الذين يوضحون أمره بفصل الخطاب. ثم نهضت فخرجت. فدفع الأسد دمنة إلىٰ القاضي، فأمر بحبسه، فألقي في عنقه حبلٌ، وانطلق به إلىٰ السجن.

فلما انتصف الليل أخبر كليلة أن دمنة في الحبس. فأتاه مستخفياً؛ فلما رآه وما هو عليه من ضيق القيود، وحرج المكان، بكىٰ، وقال له: ما

(٢٤٨) أبعدت.

(٢٤٩) مخلفات الحيوانات من الروث وما شابهه.

، ملت إلىٰ ما وصلت إليه إلا لاستعمالك الخديعة والمكر، وإضرابك ، ن العظة؛ ولكن لم يكن لدي بدٌّ فيما مضىٰ من إنذارك والنصيحة لك ، المسارعة إليك في خلوص الرغبة فيك: فإنه لكل مقام مقالٌ؛ ولكل ، وضعٍ مجالٌ. ولو كنت قصرت في عظتك حين كنت في عافيةٍ، لكنت اليوم شريكك في ذنبك؛ غير أن العجب دخل منك مدخلاً قهر رأيك، ، غلب علىٰ عقلك؛ وكنت أضرب لك الأمثال كثيراً، وأذكرك قول العلماء. وقد قالت العلماء: إن المحتال يموت قبل أجله. قال دمنة: قد عرفت صدق مقالتك. وقد قالت العلماء: لا تجزع من العذاب إذا وقفت منك علىٰ خطيئة؛ ولأن تعذب في الدنيا بجرمك، خيرٌ من أن تعذب في الآخرة بجهنم مع الإثم. قال كليلة: قد فهمت كلامك؛ ولكن ذنبك عظيمٌ، وعقاب الأسد شديدٌ أليمٌ. وكان بقربهما في السجن فهدٌ معتقلٌ يسمع كلامهما، ولا يريانه؛ فعرف معاتبة كليلة لدمنة علىٰ سوء فعله، وما كان منه؛ وأن دمنة مقرٌّ بسوء عمله، وعظيم ذنبه؛ فحفظ المحاورة بينهما، وكتمها ليشهد بها إن سئل عنها. ثم إن كليلة انصرف إلىٰ منزله، ودخلت أم الأسد حين أصبحت علىٰ الأسد؛ وقالت له: يا سيد الوحوش، حوشيت[٢٥٠] أن تنسىٰ ما قلت بالأمس؛ وأنك أمرت به لوقته؛ وأرضيت به رب العباد. وقد قالت العلماء: لا ينبغي للإنسان أن يتوانىٰ في الجد للتقوىٰ؛ بل لا ينبغي أن يدافع عن ذنب الأثيم. فلما سمع الأسد كلام أمه، أمر أن يحضر النمر، وهو صاحب القضاء. فلما حضر قال له وللجوّاس[٢٥١] العادل: اجلسا في موضع الحكم، وناديا في الجند صغيرهم وكبيرهم أن يحضروا وينظروا في حال دمنة، ويبحثوا في شأنه، ويفحصوا عن ذنبه، ويثبتوا قوله وعذره في كتب القضاء؛ وارفعا إلىٰ ذلك يوماً فيوماً. فلما سمع ذلك النمر والجواس العادل وكان هذا الجواس

(٢٥٠) أي حاشاك، ومعناها نزهت.
(٢٥١) الجواس الأسد.

عم الأسد، قالا: سمعًا وطاعةً لما أمر الملك. وخرجا من عنده؛ فعملا بمقتضىٰ ما أمرهما به؛ حتىٰ إذا مضىٰ من اليوم الذي جلسوا فيه ثلاث ساعات، أمر القاضي أن يؤتىٰ بدمنة؛ فأتي به، فأوقف بين يديه، والجماعة حضور فلما استقربه المكان نادىٰ سيد الجمع بأعلىٰ صوته: أيها الجمع. إنكم قد علمتم أن سيد السباع لم يزل منذ قتل شتربة خاثر(٢٥٢) النفس، كثير الهم والحزن، يرىٰ أنه قد قتل شتربة بغير ذنب؛ وأنه آخذه بكذب دمنة ونميمته. وهذا القاضي قد أمر أن يجلس مجلس القضاء، ويبحث عن شأن دمنة. فمن علم منكم شيئًا في أمر دمنة من خير أو شر، فليقل ذلك، وليتكلم به علىٰ رؤوس الجمع والأشهاد، ليكون القضاء في أمره أولىٰ، والعجلة من الهوىٰ، ومتابعة الأصحاب علىٰ الباطل ذل. فعندها قال القاضي: أيها الجمع اسمعوا قول سيدكم، ولا تكتموا ما عرفتم من أمره؛ واحذروا في الستر عليه ثلاث خصال: إحداهن، وهي أفضلهن، ألا تزدروا فعله، ولا تعدوه يسيراً: فمن أعظم الخطايا قتل البريء الذي لا ذنب له بالكذب والنميمة؛ ومن علم من أمر هذا الكذاب الذي اتهم البريء بكذبه ونميمته شيئًا، فستر عليه فهو شريكه في الإثم والعقوبة. والثانية إذا اعترف المذنب بذنبه، كان أسلم له، وأحرىٰ بالملك وجنده أن يعفوا عنه ويصفحوا. والثالثة ترك مراعاة أهل الذم والفجور، وقطع أسباب مواصلاتهم ومودتهم عن الخاصة والعامة؛ فمن علم من أمر هذا المحتال شيئًا، فليتكلم به علىٰ رؤوس الأشهاد ممن حضر، ليكون ذلك حجة عليه؛ وقد قيل: إنه من كتم شهادة ميتٍ، ألجم بلجام من نار يوم القيامة؛ فليقل كل واحد منكم ما علم. فلما سمع ذلك الجمع كلامه، أمسكوا عن القول. فقال دمنة: ما يسكتكم؟ تكلموا بما علمتم؛ واعلموا أن لكل كلمة جوابا. وقد قالت العلماء:

---

(٢٥٢) ضعيف.

ـ ن يشهد بما لم يرىٰ، ويقول ما لا يعلم، أصابه ما أصاب الطبيب الذي قال لما لا يعلمه: إني أعلمه. قالت الجماعة: وكيف كان ذلك؟

قال دمنة: زعموا أنه كان في بعض المدن طبيب له رفق وعلم، وكان ذا فطنة فيما يجري علىٰ يديه من المعالجات، فكبر ذلك الطبيب وضعف بصره. وكان لملك تلك المدينة ابنة قد زوجها لابن أخ له، فعرض لها ما يعرض للحوامل من الأوجاع. فجيء بهذا الطبيب، فلما حضر، سأل الجارية عن وجعها وما تجد، فأخبرته، فعرف دائها ودواءها، وقال: لو كنت أبصر، لجمعت الأخلاط علىٰ معرفتي بأجناسها، ولا أثق في ذلك بأحد غيري. وكان في المدينة رجل سفيه، فبلغه الخبر، فأتاهم وادعىٰ علم الطب، وأعلمهم انه خبير بمعرفة أخلاط الأدوية والعقاقير، عارف بطبائع الأدوية المركبة والمفردة، فأمره الملك أن يدخل خزانة الأدوية فيأخذ من أخلاط الدواء حاجته، فلما دخل السفيه الخزانة، وعرضت عليه الأدوية، ولا يدري ما هي، ولا له بها معرفة، أخذ في جملة ما أخذ منها صرة فيها سمّ قاتل لوقته، وخلطه في الأدوية، ولا علم له به، ولا معرفة عنده بجنسه. فما تمت أخلاط الأدوية، سقىٰ الجارية منه، فماتت لوقتها. فلما عرف الملك ذلك، دعا بالسفيه، فسقاه من ذلك الدواء، فمات من ساعته. وإنما ضربت لكم هذا المثل لتعلموا ما يدخل علىٰ القائل والعامل من الذلة بالشبه في الخروج عن الحد، فمن خرج منكم عن حده أصابه ما أصاب ذلك الجاهل، ونفسه الملومة.

وقد قالت العلماء: ربما جزىٰ المتكلم بقوله. والكلام بين أيديكم: فانظروا لأنفسكم. فتكلم سيد الخنازير، لإدلاله وتيهه بمنزلته عند الأسد، فقال: يا أهل الشرف من العلماء، اسمعوا مقالتي، وعوا بأحلامكم كلامي، فالعلماء قالوا في شأن الصالحين: إنهم يعرفون بسيماهم، وأنتم معاشر ذوي الاقتدار، بحسن صنع الله لكم، وتمام

نعمته لديكم، تعرفون الصالحين بسيماهم وصورهم، وتخبرون بالشيء الصغير، وهاهنا أشياء كثيرة تدل علىٰ هذا الشقي دمنة، وتخبر عن شره، فاطلبوها علىٰ ظاهر جسمه: لتستيقنوا وتسكنوا إلىٰ ذلك. قال القاضي لسيد الخنازير: قد علمت، وعلم الجماعة الحاضرون، أنك عارف بما في الصور من علامات السوء، ففسر لنا ما تقول، وأطلعنا علىٰ ما ترىٰ في صورة هذا الشقي. فأخذ سيد الخنازير يذم دمنة، وقال: إن العلماء قد كتبوا وأخبروا: أنه من كانت عينه اليسرىٰ أصغر من عينه اليمنىٰ وهي لا تزال تختلج، وكان أنفه مائلاً إلىٰ جنبه الأيمن، فهو شقي خبيث. قال له دمنة: شأنك عجب، أيها القذر، ذو العلامات الفاضحة القبيحة، ثم العجب من جرائتك علىٰ طعام الملك، وقيامك بين يديه، مع ما بجسمك من القذر والقبح، ومع ما تعرفه أنت ويعرفه غيرك من عيوب نفسك، أفتتكلم في النقي الجسم الذي لا عيب فيه؟ ولست أنا وحدي أطلع علىٰ عيبك، لكن جميع من حضر قد عرف ذلك. وقد كان يحجزني[٢٥٣] عن إظهاره ما بيني وبينك من الصداقة. فأما إذا قد كذبت عليّ وبهتني[٢٥٤] في وجهي، وقمت بعداوتي، فقلت ما قلت فيّ بغير علم علىٰ رؤوس الحاضرين، فإني أقتصر علىٰ إظهار ما أعرف من عيوبك، وتعرف الجماعة، وحق علىٰ من عرفك حق معرفتك أن يمنع الملك من استعماله إياك علىٰ طعامه، فلو كلّفت أن تعمل الزراعة لكنت جديراً بالخذلان فيها، فالأحرىٰ بك ألاّ تدنو إلىٰ عمل من الأعمال، وألاّ تكون دباغاً ولا حجاماً لعامّيّ فضلاً عن خاصّ خدمة الملك. قال سيد الخنازير: أتقول لي هذه المقالة، وتلقاني بهذا الملقىٰ؟ قال دمنة: نعم، وحقاً قلت فيك، وإياك أعني، أيها الأعرج المكسور الأفدع[٢٥٥] الرِّجل،

(٢٥٣) يقيدني ويمنعني.
(٢٥٤) أي رميتني بالبهتان، وهو قولك ما لم أفعل.
(٢٥٥) الأعوج.

المنفوخ البطن، الأفلح الشفتين[٢٥٦]، السيءِ المنظر والمخبر. فلما قال ذلك دمنة، تغير وجه سيد الخنازير واستعبر[٢٥٧] واستحىٰ، وتلجلج لسانه، واستكان[٢٥٨] وفتر نشاطه. فقال دمنة، حين رأىٰ انكساره وبكاءه: إنما ينبغي أن يطول بكاؤك، إذا اطلع الملك علىٰ قذرك وعيوبك فعزلك عن طعامه، وحال بينك وبين خدمته، وأبعدك عن حضرته. ثم إن شغبراً قد جربه فوجد فيه أمانة وصدقًا، فرتبه في خدمته، وأمره أن يحفظ ما يجري بينهم ، ويطلعه علىٰ ذلك. فقام الشغبر فدخل علىٰ الأسد فحدثه بالحديث كله علىٰ جليته. فأمر الأسد بعزل سيد الخنازير عن عمله، وأمر ألا يدخل عليه، ولا يرىٰ وجهه، وأمر بدمنة أن يسجن، وقد مضىٰ من النهار أكثره، وجميع ما جرىٰ وقالوا وقال قد كُتب وخُتم عليه بخاتم النمرن ورجع كل واحد منهم إلىٰ منزله.

ثم إن شغبراً[٢٥٩] يقال له روزبة، كان بينه وبين كليلة إخاء ومودة، وكان عند الأسد وجيهًا، وعليه كريمًا، واتفق أن كليلة أخذه الوجد إشفاقًا وحذراً علىٰ نفسه وأخيه، فمرض ومات، فانطلق هذا الشغبر إلىٰ دمنة، فأخبره بموت كليلة فبكىٰ وحزن، وقال: ما أصنع بالدنيا بعد مفارقة الأخ الصفي؟ ولكن أحمد الله تعالىٰ حيث لم يمت كليلة حتىٰ أبقىٰ لي من ذوي قرابتي أخًا مثلك: فإني قد وثقت بنعمة الله تعالىٰ وإحسانه إليّ فيما رأيت من اهتمامك بي ومراعاتك لي، وقد علمت أنك رجائي وركني فيما أنا فيه، فأريد من إنعامك أن تنطلق إلىٰ مكان كذا، فتنظر إلىٰ ما جمعته أنا وأخي بحيلتنا وسعينا ومشيئة الله تعالىٰ، فتأتيني به، ففعل الشغبر ما أمره به دمنة. فلما وضع المال بين يديه أعطاه شطره، وقال له: إنك علىٰ الدخول والخروج علىٰ الأسد أقدر من غيرك،

---

(٢٥٦) أي مشقوق الشفتين.

(٢٥٧) أي سالت عبراته، بكىٰ وسال دمعه.

(٢٥٨) من السكون، أي سكنت حركاته.

(٢٥٩) الشغبر من أسماء ابن آوىٰ.

فتفرغ لشأني، واصرف اهتمامك إلي، واسمع ما أذكر به عند الأسد، إذا رفع إليه ما يجري بيني وبين الخصوم، وعلىٰ ما يبدو من أم الأسد في حقي، وما ترىٰ من متابعة الأسد لها، ومخالفته إياها في أمري، وأحفظ ذلك كله. فأخذ الشغبر ما أعطاه دمنة وانصرف عنه علىٰ هذا العهد. فانطلق إلىٰ منزله فوضع المال فيه.

ثم إن الأسد بكّر من الغد فجلس، حتىٰ إذا مضىٰ من النهار ساعتان، استأذن عليه أصحابه فأذن لهم، فدخلوا عليه، ووضعوا الكتاب بين يديه. فلما عرف قولهم وقول دمنة دعا أمه فقرأ عليها ذلك. فلما سمعت ما في الكتاب نادت بأعلىٰ صوتها: إن أنا أغلظت في القول فلا تلمني: فإنك لست تعرف ضرك من نفعك. أليس هذا مما كنت أنهاك عن سماعه: لأنه كلام هذا المجرم المسيء إلينا، الغادر بذمتنا؟ ثم إنها خرجت مغضبة، وذلك بعين الشغبر الذي أخاه دمنة وبسمعه. فخرج في أثرها مسرعًا، حتىٰ أتىٰ دمنة، فحدثه بالحديث. فبينما هو عنده إذ جاء رسول فانطلق بدمنة إلىٰ الجمع عند القاضي. فلما مثل بين يدي القاضي استفتح سيد المجلس فقال: يا دمنة قد أنبأني بخبرك الأمين الصادق وليس ينبغي لنا أن نفحص عن شأنك أكثر من هذا، لأن العلماء قالوا: إن الله تعالىٰ جعل الدنيا سببًا ومصداقًا للآخرة، لأنها دار الرسل والأنبياء الدالين علىٰ الخير الهادين إلىٰ الجنة الداعين إلىٰ معرفة الله تعالىٰ. وقد ثبت شأنك عندنا وأخبرنا عنك من وثقنا بقوله إلا أن سيدنا أمرنا بالعودة في أمرك والفحص عن شأنك وإن كان عندنا ظاهراً بينا. قال دمنة: أراك أيها القاضي لم تتعود العدل في القضاء وليس في عدل الملوك دفع المظلومين ومن لا ذنب له إلىٰ قاض غير عادل بل المخاصمة عنهم والذود. فكيف ترىٰ أن أقتل ولم أخاصم؟ وتعجل ذلك موافقة لهواك ولم تمض بعد ذلك ثلاثة أيام. ولكن صدق الذي قال: إن الذي

تعود عمل البر، هين عليه عمله وإن أضربه. قال القاضي: إنا نجد في كتب الأولين: أن القاضي ينبغي له أن يعرف عمل المحسن والمسيء ليجازئ المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته فإذا ذهب إلى هذا ازداد المحسنون حرصاً علىٰ الإحسان والمسيؤون اجتناباً للذنوب. والرأي لك يا دمنة أن تنظر الذي وقعت فيه وتعترف بذنبك وتقر به وتتوب. فأجابه دمنة: إن صالحي القضاة لا يقطعون بالظن ولا يعملون به لا في الخاصة ولا في العامة: لعلمهم أن الظن لا يغني من الحق شيئا. وأنتم إن ظننتم أني مجرم فيما فعلت فإني أعلم بنفسي منكم وعلمي بنفسي يقين لا شك فيه وعلمكم بي غاية الشك وإنما قبح أمري عندكم أني سعيت بغيري فما عذري عندكم إذا سعيت بنفسي كاذباً عليها فأسلمتها للقتل والعطب علىٰ معرفة مني ببراءتي وسلامي مما قرفت[٢٦٠] به؟ ونفسي لأعظم الأنفس علىٰ حرمة وأوجبها حقاً. فلو فعلت هذا بأقصاكم وأدناكم، لما وسعني في ديني، ولا حسن بي في مروءتي، ولا حق لي أن أفعله فكيف أفعله بنفسي؟ فاكفف أيها القاضي عن هذه المقالة: فإنها إن كانت منك نصيحة فقد أخطأت موضعها وإن كانت خديعة فإن أقبح الخداع ما نظرته وعرفت أنه من غير أهله مع أن الخداع والمكر ليسا من أعمال صالحي القضاة ولا تقاة الولاة واعلم أن قولك مما يتخذه الجهال والأشرار سنة يقتدون بها: لأن أمور القضاة يأخذ بصوابها أهل الصواب وبخطئها أهل الخطأ والباطل والقليلو الورع وأنا خائف عليك أيها القاضي من مقالتك هذه أعظم الرزايا والبلايا وليس من البلاء و المصيبة أنك لم تزل في نفس الملك والجند والخاصة والعامة فاضلا في رأيك مقنعاً في عدلك مرضياً في حكمك وعفافك وفضلك وإنما البلاء كيف أنسيت ذلك في أمري.

(٢٦٠) اتهمت به.

فلما سمع القاضي ذلك من لفظ دمنة نهض فرفعه إلىٰ الأسد علىٰ وجهه فنظر فيه الأسد ثم دعا أمه فعرضه عليها. فقالت حين تدبرت كلام دمنة للأسد: لقد صار اهتمامي بما أتخوف من احتيال دمنة لك بمكره ودهائه حتىٰ يقتلك أو يفسد عليك أمرك أعظم من اهتمامي بما سلف من ذنبه إليك في الغش والسعاية حتىٰ قتلت صديقك بغير ذنب. فوقع قولها في نفسه. فقال لها: أخبريني عن الذي أخبرك عن دمنة بما أخبرك فيكون حجة لي في قتل دمنة. فقالت: إني لأكره أن أفشي سرا استكتمنيه، فلا يهنئني سروري بقتل دمنة إذا تذكرت أني استظهرت عليه بركوب ما نهت عنه العلماء من كشف السر ولكني أطالب الذي استودعنيه أن يجعلني في حل من ذكره لك ويقوم هو بعلمه وما سمع منه.

ثم انصرفت وأرسلت إلىٰ النمر وذكرت له ما يحق عليه من حسن معاونته الأسد علىٰ الحق وإخراج نفسه من الشهادة التي لا يكتمها مثله مع ما يحق عليه من نصر المظلومين وتثبيت حجة الحق في الحياة والممات: فإنه قد قالت العلماء: من كتم حجة ميت أخطأ حجته يوم القيامة. فلم تزل به حتىٰ قام فدخل علىٰ الأسد فشهد عنده بما سمع من إقرار دمنة. فلما شهد النمر بذلك أرسل الفهد المحبوس الذي سمع إقرار دمنة وحفظه إلىٰ الأسد فقال: إن عندي شهادة. فأخرجوه. فشهد علىٰ دمنة بما سمع من إقراره. فقال لهما الأسد: ما منعكما أن تقوما بشهادتكما وقد علمتما أمرنا واهتمامنا بالفحص عن أمر دمنة فقال كل واحد منهما: قد علمنا أن شهادة الواحد لا توجب حكماً فكرهنا التعرض لغير ما يمضي به الحكم حتىٰ إذا شهد أحدنا قام الآخر بشهادته فقبل الأسد قولهما. وأمر بدمنة أن يقتل في حبسه: فقتل أشنع قتلة.

فمن نظر في هذا فليعلم أن من أراد منفعة نفسه بضر غيره بالخلابة والمكر فإنه سيجري علىٰ خلابته[٢٦١] ومكره.

(٢٦١) الخديعة بمعسول الكلام الكاذب.

باب الحمامة المطوقة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت مثل المتحابين كيف قطع بينهما الكذوب وإلىٰ ماذا صار عاقبة أمره من بعد ذلك. فحدثني، إن رأيت؛ عن إخوان الصفاء كيف يبتدأ تواصلهم ويستمع بعضهم ببعض؟ قال الفيلسوف: إن العاقل لا يعدل بالإخوان شيئا فالإخوان هم الأعوان على الخير كله، والمواسون عند ما ينوب من المكروه. ومن أمثال ذلك مثل الحمامة المطوقة والجرذ والظبي والغراب. قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال بيدبا: زعموا أنه كان بأرض سكاوندجين، عند مدينة داهر، مكان كثير الصيد، ينتابه الصيادون؛ وكان في ذلك المكان شجرة كثيرة الأغصان ملتفة الورق فيها وكر غراب فبينما هو ذات يوم ساقط في وكره إذ بصر بصياد قبيح المنظر، سيئ الخلق، علىٰ عاتقه شبكة، وفي يده عصًا مقبلاً نحو الشجرة، فذعر منه الغراب؛ وقال: لقد ساق هذا الرجل إلىٰ هذا المكان إما حيني أو حين غيري. فلأثبتن مكاني حتىٰ أنظر ماذا يصنع. ثم إن الصياد نصب شبكته، ونثر عليها الحب، وكمن[٢٦٢] قريبا منها، فلم يلبث إلا قليلا، حتىٰ مرت به حمامة يقال لها المطوقة، وكانت سيدة الحمام ومعها حمام كثير؛ فعميت هي وصواحبها عن الشرك، فوقعن علىٰ الحبِّ يلتقطنه فعلقن في الشبكة كلهن؛ وأقبل الصياد فرحًا مسروراً. فجعلت كل حمامة تضطرب في حبائلها وتلتمس الخلاص لنفسها. قالت المطوقة: لا تخاذلن[٢٦٣] في المعالجة ولا تكن نفس إحداكن أهم إليها من نفس صاحبتها؛ ولكن نتعاون جميعا فنقلع الشبكة

(٢٦٢) توارىٰ.

(٢٦٣) لا يدركنكن العجز عن عون بعضكن البعض.

فينجو بعضنا ببعض؛ فقلعن الشبكة جميعهن بتعاونهن، وعلون في الجو؛ ولم يقطع الصياد رجاءه منهن وظن أنهن لا يجاوزن إلا قريباً ويقعن. فقال الغراب: لأتبعهن وانظروا ما يكون منهن. فالتفتت المطوقة فرأت الصياد يتبعهن. فقالت للحمام: هذا الصياد مجد في طلبكن، فإن نحن أخذنا في الفضاء لم يخف عليه أمرنا ولم يزل يتبعنا وإن نحن توجهنا إلىٰ العمران خفي عليه أمرنا، وانصرف. وبمكان كذا جرذٌ هو لي أخ؛ فلو انتهينا إليه قطع عنا هذا الشرك. ففعلن ذلك. وأيس الصياد منهن وانصرف. وتبعهن الغراب. فلما انتهت الحمامة المطوقة إلىٰ الجرذ، أمرت الحمام أن يسقطن، فوقعن؛ وكان للجرذ مائة جحر للمخاوف فنادته المطوقة باسمه، وكان اسمه زيرك، فأجابها الجرذ من جحره: من أنت؟ قالت: أنا خليلتك المطوقة. فأقبل إليها الجرذ يسعىٰ، فقال لها: ما أوقعك في هذه الورطة؟ قالت له: ألم تعلم أنه ليس من الخير والشر شيء إلا هو مقدرٌ علىٰ من تصيبه المقادير، وهي التي أوقعتني في هذه الورطة؛ فقد لا يمتنع من القدر من هو أقوىٰ مني وأعظم أمراً؛ وقد تنكسف الشمس والقمر إذا قضي ذلك عليهما. ثم إن الجرذ أخذ في قرض العقد الذي فيه المطوقة. فقالت له المطوقة: ابدأ بقطع عقد سائر الحمام، وبع ذلك أقبل علىٰ عقدي؛ وأعادت ذلك عليه مراراً، وهو لا يلتفت إلىٰ قولها، فلما أكثرت عليه القول وكررت، قال لها: لقد كررت القول عليّ كأنك ليس لك في نفسك حاجة، ولا لك عليها شفقة، ولا ترعين لها حقاً. قالت: إني أخاف، إن أنت بدأت بقطع عقدي أن تمل وتكسل عن قطع ما بقي؛ وعرفت أنك إن بدأت بهن قبلي، وكنت أنا الأخيرة لم ترضَ وإن أدركك الفتور أن أبقىٰ في الشرك قال الجرذ: هذا مما يزيد الرغبة والمودة فيك. ثم إن الجرذ أخذ في قرض الشبكة حتىٰ فرغ منها، فانطلقت المطوقة وحمامها معها.

فلما رأىٰ الغراب صنع الجرذ، رغب في مصادقته، فجاء وناداه باسمه، فأخرج الجرذ رأسه، فقال له: ما حاجتك؟ قال: إني أريد مصادقتك. قال الجرذ: ليس بيني وبينك تواصل، وإنما العاقل ينبغي له أن يلتمس ما يجد إليه سبيلاً، ويترك التماس ما ليس إليه سبيلٌ، فإنما أنت الآكل، وأنا طعام لك. قال الغراب: إن أكلي إياك، وإن كنت لي طعامًا، مما لا يغني عني شيئًا؛ وإن مودتك آنس لي مما ذكرت ولست بحقيق، إذا جئت أطلب مودتك، أن تردني خائبًا. فإنه قد ظهر لي منك من حسن الخلق ما رغبني فيك، وإن لم تكن تلتمس إظهار ذلك: فإن العاقل لا يخفي فضله، وإن هو أخفاه؛ كالمسك الذي يكتم ثم لا يمنعه ذلك من النشر الطيب والأرج الفائح. قال الجرذ. إن أشد العداوة عداوة الجوهر وهي عداوتان: منها ما هو متكافئ كعداوة الفيل والأسد. فإنه ربما قتل الأسد الفيل أو الفيل الأسد، ومنها ما قوَّته من أحد الجانبين علىٰ الآخر كعداوة ما بيني وبين السنور[٢٦٤] وبيني وبينك: فإن العداوة التي بيننا ليست تضرك، وإنما ضررها عائد عليَّ: فإن الماء لو أطيل إسخانه لم يمنعه ذلك من إطفائه النار إذا صب عليها، وإنما مصاحب العدوّ ومصالحه كصاحب الحية يحملها في كمه، والعاقل لا يستأنس إلىٰ العدو الأريب.

قال الغراب: قد فهمت ما تقول، وأنت خليق أن تأخذ بفضل خليقتك، وتعرف صدق مقالتي ولا تصعب عليّ الأمر بقولك: ليس إلىٰ التواصل بيننا سبيل: فإن العقلاء الكرام لا يبتغون علىٰ معروف جزاء، والمودة بين الصالحين سريع اتصالها بطيءٌ انقطاعها. ومثل ذلك مثل الكوز من الذهب: بطيء الانكسار، سريع الإعادة، هيّن الإصلاح، إن أصابه ثلم أو كسر، والمودة بين الأشرار سريعٌ انقطاعها، بطيء اتصالها. ومثل ذلك

(٢٦٤) نوع من أنواع القطط.

مثل الكوز من الفخار سريع الانكسار ينكسر من أدنىٰ عيب ولا وصل له أبداً. والكريم يودّ الكريم واللئيم لا يودّ أحداً إلا عن رغبة أو رهبة. وأنا إلىٰ ودّك ومعروفك محتاج: لأنك كريم وأنا ملازم لبابك غير ذائق طعامًا حتىٰ تؤاخيني. قال الجرذ: قد قبلت إخاءك فإني لم أردد أحداً عن حاجة قطُّ، وإنما بدأت بما بدأتك به إرادة التوثق لنفسي فإن أنت غدرت بي لم تقل: إني وجدت الجرذ سريع الانخداع. ثم خرج من جحره، فوقف عند الباب. فقال له الغراب: ما يمنعك من الخروج إليّ، والاستئناس بي؟ فهل في نفسك بعد ذلك مني ريبة؟ قال الجرذ: إن أهل الدنيا يتعاطون فيما بينهم أمرين ويتواصلون عليهما وهما ذات النفس، وذات اليد. فالمتباذلون ذات النفس هم الأصفياء، وأما المتباذلون ذات اليد فهم المتعاونون الذين يلتمس بعضهم الانتفاع ببعض. ومن كان يصنع المعروف لبعض منافع الدنيا فإنما مثله فيما يبذل ويعطىٰ كمثل الصياد وإلقائه الحب للطير، لا يريد بذلك نفع الطير وإنما يريد نفع نفسه. فتعاطىٰ ذات النفس أفضل من تعاطي ذات اليد. وإني وثقت منك بذات نفسك، ومنحتك من نفسي مثل ذلك. وليس يمنعني من الخروج إليك سوء ظنٍّ بك، ولكن قد عرفت أن لك أصحابًا جوهرهم كجوهرك، وليس رأيهم فيَّ رأيك.

قال الغراب: إن من علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقًا، ولعدو صديقه عدواً؛ وليس لي بصاحب ولا صديق من لا يكون لك محبًا؛ وإنه يهون عن قطيعة من كان كذلك من جوهري. ثم إن الجرذ خرج إلىٰ الغراب فتصافحا وتصافيا، وأنس كل واحد منهما بصاحبه؛ حتىٰ إذا مضت لهما أيام قال الغراب للجرذ: إن جحرك قريب من طريق الناس، وأخاف أن يرميك بعض الصبيان بحجر؛ ولي مكان في عزلة، ولي فيه صديقٌ من السلاحف وهو مخصب من السمك ونحن واجدون

هناك ما نأكل فأريد أن أنطلق بك إلىٰ هناك لنعيش آمنين. قال الجرذ: إن لي أخباراً وقصصاً سأقصها عليك إذا انتهينا حيث تريد فافعل ما تشاء. فأخذ الغراب بذنب الجرذ وطار به حتىٰ بلغ به حيث أراد. فلما دنىٰ من العين التي فيها السلحفاة بصرت السلحفاة بغراب ومعه جرذ فذعرت منه ولم تعلم أنه صاحبها، فناداها فخرجت إليه وسألته من أين أقبلت؟ فأخبرها بقصته حين تبع الحمام وما كان من أمره وأمر الجرذ حتىٰ انتهىٰ إليها. فلما سمعت السلحفاة شأن الجرذ عجبت من عقله ووفائه ورحبت به وقالت له: ما ساقك إلىٰ هذه الأرض؟ قال الغراب للجرذ: اقصص عليّ الأخبار التي زعمت أنك تحدثني بها فأخبرني بها مع جواب ما سألت السلحفاة: فإنها عندك بمنزلتي، فبدأ الجرذ وقال: كان منزلي أول أمري بمدينة ماروت في بيت رجل ناسك وكان خالياً من الأهل والعيال، وكان يؤتىٰ في كل يوم بسلة من الطعام فيأكل منها حاجته ويعلق الباقي، وكنت أرصد الناسك، حتىٰ يخرج وأثب إلىٰ السلة، فلا أدع فيها طعاماً إلا أكلته، وأرمي به إلىٰ الجرذان. فجهد الناسك مراراً أن يعلق السلة مكاناً لا أناله فلم يقدر علىٰ ذلك، حتىٰ نزل به ذات ليلة ضيف فأكلا جميعاً، ثم أخذا في الحديث فقال الناسك للضيف: من أي أرض أقبلت؟ وأين تريد الآن؟ وكان الرجل قد جاب الآفاق ورأىٰ عجائب فأنشأ يحدث الناسك عمّا وطئ من البلاد، ورأىٰ من العجائب، وجعل الناسك خلال ذلك يصفق بيديه لينفّرني عن السلة، فغضب الضيف وقال: أنا أحدثك وأنت تهزأ بحديثي! فما حملك علىٰ أن سألتني؟ فاعتذر إليه الناسك، وقال: إنما أصفق بيدي لأنفّر جرذا قد تحيرت في أمره، ولست أضع في البيت شيئاً إلا أكله، فقال الضيف: جرذٌ واحد يفعل ذلك أم جرذان كثيرة؟ فقال الناسك: جرذان البيت كثيرة، ولكن فيها جرذ واحد، هو الذي غلبني فما أستطيع له حيلة. قال

الضيف: لقد ذكرتني قول الذي قال: لأمر ما باعت هذه المرأة سمسماً مقشوراً بغير مقشور! قال الناسك: وكيف كان ذلك؟

قال الضيف: نزلت مرة علىٰ رجل بمكان كذا، فتعشينا، ثم فرش لي. وانقلب الرجل علىٰ فراشه، فسمعته يقول في آخر الليل لامرأته: إني أريد أن أدعو غداً رهطاً[٢٦٥] ليأكلوا عندنا، فاصنعي لهم طعاماً. فقالت المرأة: كيف تدعو الناس إلىٰ طعامك، وليس في بيتك فضل عن عيالك؟ وأنت رجل لا تبقي شيئاً ولا تدخره. قال الرجل: لا تندمي علىٰ شيءٍ أطعمناه وأنفقناه: فإن الجمع والادخار ربما كانت عاقبته كعاقبة الذئب. قالت المرأة وكيف كان ذلك؟ قال الرجل: زعموا أنه خرج ذات يوم رجل قانصٌ، ومعه قوسه ونشابه[٢٦٦] فلم يجاوز غير بعيد، حتىٰ رمىٰ ظبياً، فحمله ورجع طالباً منزله، فاعترضه خنزير بريٌّ فرماه بنشابةٍ نفذت فيه، فأدركه الخنزير وضربه بأنيابه ضربة أطارت من يده القوس، ووقعا ميتين، فأتىٰ عليهم ذئب فقال: هذا الرجل والظبي والخنزير يكفيني أكلهم مدةً، ولكن أبدأ بهذا الوتر فآكله، فيكون قوت يومي، فعالج الوتر حتىٰ قطعه فلما انقطع طارت سية[٢٦٧] القوس فضربت حلقه فمات. وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلمي أن الجمع والادخار وخيم العاقبة. فقالت المرأة: نعم ما قلت! وعندنا من الأرز والسمسم ما يكفي ستة نفر أو سبعة، فأنا غاديةٌ علىٰ اصطناع الطعام، فادع من أحببت. وأخذت المرأة حين أصبحت سمسماً فقشرته، وبسطته في الشمس ليجفّ، وقالت لغلام لهم: اطرد عنه الطير والكلاب وتفرغت المرأة لصنعها؛ وتغافل الغلام عن السمسم؛ فجاء كلبٌ، فعاث[٢٦٨] فيه؛ فاستقذرته المرأة، وكرهت أن تصنع منه طعاماً ما؛ فذهبت به إلىٰ

(٢٦٥) جماعة من الناس.
(٢٦٦) النشابة هي السهم.
(٢٦٧) طرف القوس.
(٢٦٨) أفسده.

السوق، فأخذت به مقايضة سمسمًا غير مقشور: مثلاً بمثل، وأنا واقفٌ في السوق؛ فقال رجلٌ: لأمرٍ ما باعت هذه المرأة سمسماً مقشوراً بغير مقشورٍ. وكذلك قولي في هذا الجرذ الذي ذكرت أنه علىٰ غير علةٍ ما يقدر علىٰ ما شكوت منه. فالتمس لي فأسًا لعلي أحتفر جحره فأطلع علىٰ بعض شأنه. فاستعار الناسك من بعض جيرانه فأسًا، فأتىٰ بها الضيف، وأنا حينئذٍ في جحر غير جحري أسمع كلامهما، وفي جحري كيس فيه مائة دينار، لا أدري من وضعها، فاحتفر الضيف حتىٰ انتهىٰ إلىٰ الدنانير فأخذها وقال الناسك: ما كان هذا الجرذ يقوىٰ علىٰ الوثوب حيث كان يثب إلا بهذه الدنانير: فإن المال جعل له قوة وزيادة في الرأي والتمكن. وسترىٰ بعد هذا أنه لا يقدر علىٰ الوثوب حيث كان يثب. فلما كان من الغد اجتمع الجرذان التي كانت معي فقالت: قد أصابنا الجوع، وأنت رجاؤنا فانطلقت ومعي الجرذان إلىٰ المكان الذي كنت أثب منه إلىٰ السلة فحاولت ذلك مراراً: فلم أقدر عليه فاستبان للجرذان نقص حالي فسمعتهن يقلن: انصرفن عنه، ولا تطمعن فيما عنده: فإنا نرىٰ له حالاً لا نحسبه إلا قد احتاج معها إلىٰ من يعوله. فتركني، ولحقن بأعدائي وجفونني، وأخذن في غيبتي عند من يعاديني ويحسدني. فقلت في نفسي: ما الإخوان ولا الأعوان ولا الأصدقاء إلا بالمال ووجدت من لا مال له، إذا أراد أمراً قعد به العدم عمّا يريده: كالماء الذي يبقىٰ في الأودية من مطر الشتاء: لا يمر إلىٰ نهر ولا يجري إلىٰ مكان، فتشربه أرضه. ووجدت من لا إخوان له لا أهل له، ومن لا ولد له لا ذكر له: ومن لا مال له لا عقل له، ولا دنيا ولا آخرة له: لأن الرجل إذا افتقر قطعه أقاربه وإخوانه: فإن الشجرة النابتة في السباخ، المأكولة من كل جانب، كحال الفقير المحتاج إلىٰ ما في أيدي الناس. ووجدت الفقر رأس كل بلاء، وجالبا إلىٰ صاحبه كل مقت، ومعدن النميمة. ووجدت

الرجل إذا افتقر اتهمه من كان له مؤتمنـاً، وأساء به الظن من كان يظن فيه حسناً: فإن أذنب غيره كان هو للتهمة موضعاً. وليس من خلة هي للغني مدح إلا وهي للفقير ذمٌّ، فإن كان شجاعاً قيل: أهوج، وإن كان جواداً سمّي مبذراً، وإن كان حليماً سمي ضعيفاً، وإن كان وقوراً سمي بليداً. فالموت أهون من الحاجة التي تحوج صاحبها إلىٰ المسألة، ولا سيما مسألة الأشحاء واللئام: فإن الكريم لو كلف أن يدخل يده في فم الأفعىٰ، فيخرج منه سماً فيبتلعه كان ذلك أهون عليه وأحب إليه من مسألة البخيل اللّئيم. وقد كنت رأيت الضيف حين أخذ الدنانير فقاسمها الناسك، فجعل الناسك نصيبه في خريطة عند رأسه ولما جنّ الليل، فطمعت أن أصيب منها شيئاً فأرده إلىٰ جحري، ورجوت أن يزيد ذلك في قوتي، ويراجعني بسببه بعض أصدقائي. فانطلقت إلىٰ الناسك وهو نائم، حتىٰ انتهيت عند رأسه، ووجدت الضيف يقظان، وبيده قضيب، فضربني علىٰ رأسي ضربة موجعة، فسعيت إلىٰ جحري. فلما سكن عني الألم، هيجني الحرص والشره، فخرجت طمعاً كطمعي الأول، وإذا الضيف يرصدني، فضربني ضربة أسالت مني الدم، فتقلبت ظهراً لبطن إلىٰ جحري، فخررت مغشياً عليّ، فأصابني من الوجع ما بغض إلي المال، حتىٰ لا أسمع بذكره إلا تداخلني رعدة وهيبة. ثم تذكرت فوجدت البلاء في الدنيا إنما يسوقه الحرص والشره، ولا يزال صاحب الدنيا في بلية وتعب ونصب، ووجدت تجشم[٢٦٩] الأسفار البعيدة في طلب الدنيا أهون عليّ من بسط اليد إلىٰ السَّخيِّ بالمال، ولم أر كالرضا شيئاً، فصار أمري إلىٰ أن رضيت وقنعت، وانتقلت من بيت الناسك إلىٰ البرية، وكان لي صديق من الحمام، فسيقت إلي بصداقته صداقة. ثم ذكر لي الغراب ما بينك وبينه من المودة، وأخبرني أنه يريد إتيانك،

(٢٦٩) القبول بالأمر ذي المشقة.

فأحببت أن آتيك معه، فكرهت الوحدة، فإنه لا شيء من سرور الدنيا يعدل صحبة الإخوان، ولا غم فيها يعدل البعد عنهم. وجربت: فعلمت أنه لا ينبغي للعاقل أن يلتمس من الدنيا غير الكفاف الذي يدفع به الأذىٰ عن نفسه: وهو اليسير من المطعم والمشرب، إذا اشتمل علىٰ صحة البدن ورفاهة البال. ولو أن رجلاً وهبت له الدنيا بما فيهان لم يك ينتفع من ذلك إلا بالقليل الذي يدفع به عن نفسه الحاجة: فأقبلت مع الغراب إليك علىٰ هذا الرأي، وأنا لك أخ، فلتكن منزلتي عندك كذلك. فلما فرغ الجرذ من كلامه أجابته السلحفاة بكلام رقيقٍ عذب، وقالت: قد سمعت كلامك، وما أحسن ما تحدثت به! إلا أني رأيتك تذكر بقايا أمور هي في نفسك. واعلم أن حسن الكلام لا يتم إلا بحسن العمل، وأن المريض الذي قد علم دواء مرضه إن لم يتداو به، لم يغن علمه به شيئاً، ولم يجد لدائه راحة ولا خفةً. فاستعمل رأيك، ولا تحزن لقلة المال: فإن الرجل ذا المروءة قد يكرم علىٰ غير مال: كالأسد الذي يهاب، وإن كان رابضاً، والغني الذي لا مروءة له يهان وإن كان كثير المال: كالكلب لا يحفل به، وإن طوق وخلخل[٢٧٠] بالذهب. فلا تكبرنّ عليك غربتك: فإن العاقل لا غربة له: كالأسد الذي لا ينقلب إلا ومعه قوته. فلتحسن تعاهدك لنفسك: فإنك إذا فعلت ذلك جاءك الخير يطلبك كما يطلب الماء انحداره. وإنما جُعلَ الفضل للحازم البصير بالأمور، وأما الكسلان المتردد فإن الفضل لا يصحبه. وقد قيل في أشياء ليس لها ثباتٌ ولا بقاء: ظل الغمامة في الصيف، وخلة الأشرار، والبناء علىٰ غير أساس، والمال الكثير: فالعاقل لا يحزن لقلته، وإنما مال العاقل عقله، وما قدّم من صالح، فهو واثق بأنه لا يسلب ما عمل ولا يؤاخذ بشيءٍ لم يعمله، وهو خليق ألا يغفل عن أمر آخرته: فإن الموت لا يأتي إلا بغتةً، ليس له وقت

(٢٧٠) خلخل بالذهب، أي ألبس خلخالاً من الذهب.

معين. وأنت عن موعظتي غني بما عندك من العلم. ولكن رأيت أن أقضي مالك من حق قبلنا: لأنك أخونا وما عندنا من النصح مبذول لك. فلما سمع الغراب كلام السلحفاة للجرذ وردها عليه وملاطفتها إياه فرح بذلك وقال: لقد سررتني وأنعمت عليّ، وأنت جديرة أن تسرّي نفسك بمثل ما سررتني به. وإن أولىٰ أهل الدنيا بشدّة السرور من لا يزال ربعه من إخوانه وأصدقائه من الصالحين معموراً، ولا يزال عنده منهم جماعة يسرهم ويسرونه، ويكون من وراء أمورهم وحاجاتهم بالمرصاد: فإن الكريم إذا عثر لا يأخذ بيده إلا الكرام: كالفيل إذا وحل لا تخرجه إلا الفيلة. فبينما الغراب في كلامه، إذ أقبل نحوهم ظبي يسعىٰ، فذعرت منه السلحفاة، فغاصت في الماء، وخرج الجرذ إلىٰ جحره، وطار الغراب فوقع علىٰ شجرة. ثم إن الغراب حلّق في السماء لينظر هل للظبي طالب؟ فنظر فلم ير شيئًا؛ فنادىٰ الجرذ والسلحفاة، وخرجا، فقالت السلحفاة للظبي، حين رأته ينظر إلىٰ الماء: اشرب إن كان بك عطش، ولا تخف: فإنه لا خوف عليك. فدنا الظبي فرحبت به السلحفاة وحيّته وقالت له: من أين أقبلت؟ قال: كنت أسنح[٢٧١] بهذه الصحارىٰ فلم تزل الأساورة[٢٧٢] تطردني من مكان إلىٰ مكان حتىٰ رأيت اليوم شبحًا. فخفت أن يكون قانصًا قالت: لا تخف: فإنا لم نرَ هاهنا قانصًا قط، ونحن نبذل لك ودّنا ومكاننا والماء والمرعىٰ كثيران عندنا فارغب في صحبتنا. فأقام الظبي معهم وكان لهم عريش[٢٧٣] يجتمعون فيه ويتذاكرون الأحاديث والأخبار. فبينما الغراب والجرذ والسلحفاة ذات يوم في العريش غاب الظبي فتوقعوه ساعة فلم يأت. فلما أبطأ أشفقوا[٢٧٤]

(٢٧١) أرعىٰ، ويقال السانح للطريدة اذا تنقلت من يسار المرعىٰ الىٰ يمينه، أما البارح فهي الطريدة التي تتنقل عكس اتجاه ما سبق.
(٢٧٢) أي رماة السهام، ومفردها إسوار.
(٢٧٣) المكان الذي يستظل به.
(٢٧٤) خافوا عليه.

أن يكـون قـد أصابـه عنتٌ[٢٧٥]، فقـال الجـرذ والسـلحفاة للغـراب: انظر هـل ترىٰ مما يلينـا شـيئـًا؟ فحلـق الغـراب في السـماء فنظر: فـإذا الظبي في الحبائل مقتنصـًا فانقـض مسـرعـًا فأخبرهمـا بذلـك فقالـت السـلحفاة والغـراب للجـرذ: هـذا أمـر لا يرجىٰ فيه غيـرك، فأغـث أخـاك، فسـعىٰ الجـرذ مسـرعـًا، فأتـىٰ الظبي، فقـال لـه: كيف وقعت في هـذه الورطـة وأنت من الأكيـاس[٢٧٦]؟ قـال الظبـي: هـل يغنـي الكيس مـع المقاديـر شيئـًا، فبينمـا همـا في الحديث إذ وافتهمـا السـلحفاة فقـال لهـا الظبـي. مـا أصبت بمجيئك إلينـا: فـإن القانـص لـو انتهـىٰ إلينـا وقـد قطـع الجـرذ الحبائـل اسـتبقه عـدواً، وللجـرذ أجحـارٌ كثيـرة، والغـراب يطيـر وأنـت ثقيلـة: لا سـعىٰ لـك ولا حركـة وأخـاف عليك القانـص. فقالـت: لا عيـش مـع فـراق الأحبـة وإذا فـارق الأليـف أليفـه فقـد سـلب فـؤاده، وحـرم سـروره، وغشـىٰ بصـره، فلـم ينتـهِ كلامهمـا حتـىٰ وافىٰ القانـص، ووافـق ذلـك فـراغ الجـرذ مـن قطـع الشـرك، فنجـا الظبـي بنفسـه، وطـار الغـراب محلقـًا ودخـل الجـرذ بعـض الأجحـار ولـم يبـق غيـر السـلحفاة، ودنـا الصيـاد فوجـد حبالتـه مقطّعـة، فنظـر يمينـًا وشـمالاً فلـم يجـد غيـر السـلحفاة تـدب، فأخذهـا وربطهـا، فلـم يلبـث الغـراب والجـرذ والظبـي أن اجتمعـوا فنظـروا القانـص قـد ربـط السـلحفاة فاشـتد حزنهـم، وقـال الجـرذ: مـا أرانـا نجـاوز عقبـة مـن البـلاء إلا صرنـا في أشـد منهـا. ولقـد صـدق الـذي قـال: لا يـزال الإنسـان مستمراً في إقبالـه مـا لـم يعثـر، فـإذا عثر لـجَّ[٢٧٧] بـه العثـار وإن مشـىٰ في جـدد الأرض[٢٧٨]. وحـذري علـىٰ السـلحفاة خيـر الأصدقـاء التـي خلتهـا[٢٧٩] ليسـت للمجـازاة ولا لالتمـاس مكافـأة، ولكنهـا خلـة الكـرم والشـرف، خلـة هـي أفضـل مـن خلـة الوالـد لولـده، خلـة

(٢٧٥) العنت هو المشقة، وقد يقال للأمر المتعب أو الصعب عنت.

(٢٧٦) جمع كيس، وهو الذكي الظريف.

(٢٧٧) تمادى واستفحل.

(٢٧٨) الأرض المستوية الصلبة.

(٢٧٩) الخلة ومنها الخليل أي الصداقة والأخوة.

لا يزيلها إلا الموت. ويحٌ لهذا الجسد الموكل به البلاء الذي لا يزال في تصرف وتقلب، ولا يدوم له شيء، ولا يلبث معه أمر: كما لا يدوم للطالع من النجوم طلوع، ولا للآفل منها أفولٌ، لكن لا يزال للطالع منها آفلاً، والآفل طالعاً، وكما تكون آلام الكلوم(٢٨٠) وانتقاض الجراحات، كذلك من قرحت كلومه بفقد إخوانه بعد اجتماعه بهم. فقال الظبي والغراب للجرذ: إنّ حذرنا وحذرك وكلامك، وإن كان بليغاً، كلٌّ منها لا يغني عن السلحفاة شيئاً، وإنه كما يقال: إنما يختبر الناس عند البلاء، وذو الأمانة عند الأخذ والعطاء، والأهل والولد عند الفاقة، كذلك يختبر الإخوان عند النوائب. قال الجرذ: أرىٰ من الحيلة أن تذهب أيها الظبي فتقع بمنظر من القانص: كأنك جريح، ويقع الغراب عليك كأنه يأكل منك، وأسعىٰ أنا فأكون قريباً من القانص، مراقباً له، فعلّه أن يرمي ما معه من الآلة، ويضع السلحفاة، ويقصدك طامعاً فيك، راجياً تحصيلك. فإذا دنا منك ففر عنه رويداً: بحيث لا ينقطع طمعه منك، ومكنه من أخذك مرة بعد مرة، حتىٰ يبعد عنا، وانْحُ منه هذا النحو ما استطعت: فإني أرجو ألا ينصرف إلا وقد قطعت الحبائل عن السلحفاة، وأنجو بها. ففعل الغراب والظبي ما أمرهما به الجرذ، وتبعهما القانص، فاستجره الظبي، حتىٰ أبعده عن الجرذ والسلحفاة، والجرذ مقبلٌ علىٰ قطع الحبائل، حتىٰ قطعها، ونجا بالسلحفاة، وعاد القانص مجهوداً لاغباً(٢٨١) فوجد حبالته مقطعة. ففكر في أمره مع الظبي المتضالع، فظن أنه خولط في عقله وفكر في أمر الظبي والغراب الذي كأنه يأكل منه وقرض حبالته فاستوحش من الأرض وقال: هذه أرض جنّ أو سحرة. فرجع مولياً لا يلتمس شيئاً ولا يلتفت إليه. واجتمع الغراب والظبي والجرذ والسلحفاة إلىٰ عريشهم سالمين آمنين كأحسن ما كانوا عليه. فإذا كان هذا الخلق

(٢٨٠) الكلوم هي الجروح.
(٢٨١) أي متعبا واللغوب هو التعب.

مع صغره وضعفه قد قدر على التخلص من مرابط الهلكة مرة بعد أخرى بمودته وخلوصها وثبات قلبه عليها واستمتاعه مع أصحابه بعضهم ببعض فالإنسان الذي قد أعطي العقل والفهم. وألهم الخير ولا شر ومنح التميز والمعرفة، أولى وأحرى بالتواصل والتعاضد. فهذا مثل إخوان الصفاء وإئتلافهم في الصحبة.

(انقضى باب الحمامة المطوقة)

باب البوم والغربان

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت مثل إخوان الصفاء وتعاونهم، فاضرب لي مثل العدوّ الذي لا ينبغي أن يغتر به، وإن أظهر تضرعًا وملقًا، قال الفيلسوف: من اغتر بالعدو الذي لم يزل عدواً، أصابه ما أصاب البوم من الغربان. قال الملك وكيف كان ذلك؟

قال بيدبا: زعموا أنه كان في جبل في الجبال شجرة من شجر الدوح[٢٨٢]، فيها وكر ألف غراب، وعليهن والٍ من أنفسهن، وكان عند هذه الشجرة كهف فيه ألف بومة، وعليهن والٍ منهن. فخرج ملك البوم لبعض غدواته[٢٨٣] وروحاته، وفي نفسه العداوة لملك الغربان، وفي نفس الغربان وملكها مثل ذلك للبوم، فأغار ملك البوم في أصحابه علىٰ الغربان في أوكارها، فقتل وسبىٰ منها خلقًا كثيراً، وكانت الغارة ليلاً، فلما أصبحت الغربان اجتمعت إلىٰ ملكها فقلن له: قد علمت ما لقينا الليلة من ملك البوم، وما منّا إلا من أصبح قتيلاً أو جريحًا أو مكسور الجناح أو منتوف الريش أو مقطوف الذنب، وأشد مما أصابنا ضراً علينا جراءتهن علينا، وعلمهن بمكاننا، وهنّ عائدات إلينا غير منقطعات عنّا: لعلمهنّ بمكاننا: فإنما نحن لك، ولك الرأي، أيها الملك، فانظر لنا ولنفسك، وكان في الغربان خمسة معترف لهن بحسن الرأي، يسند إليهنّ في الأمور، ويلقىٰ عليهن أزمة الأحوال. وكان الملك كثيراً ما يشاورهن في الأمور، ويأخذ آراءهن في الحوادث والنوازل. فقال الملك للأول من الخمسة: ما رأيك في هذا الأمر؟ قال: رأي قد سبقتنا إليه العلماء، وذلك

(٢٨٢) الدوح جمع دوحة، وهي الأشجار العظيمة.
(٢٨٣) جمع غدوة وهي الخروج المبكر.

أنهم قالوا: ليس للعدو الحنق[٢٨٤] إلا الهرب منه. قال الملك للثاني: ما رأيك في هذا الأمر؟ قال: رأي ما رأىٰ هذا من الهرب. قال الملك: لا أرىٰ لكما ذلك رأياً، أن نرحل عن أوطاننا ونخليها لعدونا من أول نكبة أصابتنا منه ولا ينبغي لنا ذلك ولكن نجمع أمرنا ونستعد لعدونا ونذكي[٢٨٥] نار الحرب فيما بيننا وبين عدونا ونحترس من الغرة[٢٨٦] إذا أقبل إلينا فنلقاه مستعدين ونقاتله قتالاً غير مراجعين فيه، ولا مقصرين عنه وتلقىٰ أطرافنا أطراف العدو ونتحرز بحصوننا وندافع عدونّا: بالأناة مرة وبالجلاد[٢٨٧] أخرىٰ حيث نصيب فرصتنا وبغيتنا، وقد ثنينا عدونا عنّا. ثم قال الملك للثالث: ما رأيك أنت؟ قال: ما أرىٰ ما قالا رأياً. ولكن نبث العيون ونبعث الجواسيس ونرسل الطلائع بيننا وبين عدونا فنعلم أيريد صلحنا أم يريد حربنا أم يريد الفدية؟ فإن رأينا أمره أمر طامع في مال، لم نكره الصلح علىٰ خراج نؤديه إليه كل سنة، ندفع به عن أنفسنا ونطمئن في أوطاننا: فإن من آراء الملوك إذا أشتدت شوكة عدوهم، فخافوه علىٰ أنفسهم وبلادهم، أن يجعلوا الأموال جنة البلاد والملك والرعية. قال الملك للرابع: فما رأيك في هذا الصلح؟ قال لا أراه رأياً بل أن نفارق أوطاننا ونصبر علىٰ الغربة وشدة المعيشة خيرٌ من أن نضيع أحسابنا ونخضع للعدو الذي نحن أشرف منه مع أن البوم لو عرضنا ذلك عليهن لما رضين منّا إلا بالشَّطط[٢٨٨]. ويقال في الأمثال: قارب عدوك بعض المقاربة: لتنال حاجتك. ولا تقاربه كل المقاربة: فيتجرأ عليك ويضعف جندك وتذلَّ نفسك. ومثل ذلك مثل الخشبة المنصوبة في الشمس: إذا أملتها قليلاً زاد ظلها، وإذا جاوزت بها الحد

(٢٨٤) أي الغاضب المغتاظ.
(٢٨٥) توقد أو تشعل.
(٢٨٦) أي الغفلة.
(٢٨٧) الضرب بالسيف.
(٢٨٨) الشطط هو مجاوزة الحدود.

في إمالتها نقص الظلّ. وليس عدونا راضياً منّا بالدون في المقاربة، فالرأي لنا ولك المحاربة. قال الملك للخامس: ما تقول أنت؟ وماذا ترىٰ: القتال أم الصلح أم الجلاء عن الوطن؟ قال: أما القتال فلا سبيل للمرء إلىٰ قتال من لا يقوىٰ عليه وقد يقال: إنه من لا يعرف نفسه وعدوه وقاتل من لا يقوىٰ عليه، حمل نفسه علىٰ حتفها مع أن العاقل لا يستصغر عدواً: فإن من استصغر عدوه اغتر به، ومن اغتر بعدوه لم يسلم منه. وأنا للبوم شديد الهيبة وإن أضربن عن قتالنا وقد كنت أهابها قبل ذلك، فإن الحازم لا يأمن عدوه علىٰ كل حال فإن كان بعيداً لم يأمن سطوته، وإن كان مكثباً[٢٨٩] لم يأمن من وثبته، وإن كان وحيداً لم يأمن من مكره. وأحزم الأقوام وأكيسهم من كره القتال لأجل النفقة فيه: فإن ما دون القتال النفقة فيه من الأموال والقول والعمل، والقتال النفقة فيه من الأنفس والأبدان. فلا يكونن القتال للبوم من رأيك، أيها الملك: فإن من قاتل من لا يقوىٰ عليه فقد غرر بنفسه[٢٩٠]. فإذا كان الملك محصناً للأسرار، متخيراً للوزراء، مهيباً في أعين الناس، بعيداً من أن يقدر عليه، كان خليقاً ألا يسلب صحيح ما أوتىٰ من الخير. وأنت، أيها الملك، كذلك. وقد استشرتني في أمر جوابك منّي عنه، في بعضه علانية، وفي بعضه سرٌّ وللأسرار منازل: منها ما يدخل فيه الرهط، ومنها ما يستعان فيه بالقوم، ومنها ما يدخل فيه الرجلان. ولست أرىٰ لهذا السر علىٰ قدر منزلته أن يشارك فيه إلا أربع آذانٍ ولسانان. فنهض الملك من ساعته، وخلا به، فاستشاره، فكان أول ما سأله عنه الملك أنه قال: هل يعلم ابتداء عداوة ما بيننا وبين البوم؟ قال: نعم: كلمة تكلم بها غراب. قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الغراب: زعموا أن جماعة من الكراكي لم يكن لها ملك، فأجمعت أمرها علىٰ أن يملكن عليهن

(٢٨٩) أي قريبا

(٢٩٠) أي عرضها للتهلكة.

ملك البوم فبينما هي في مجمعها إذ وقع لها غراب، فقالت: لو جاءنا هذا الغراب. لاستشرناه؛ فلم يلبثن دون أن جاءهن الغراب. فاستشرنه، فقال: لو أن الطير بادت من الأقاليم، وفقد الطاووس والبط والنعام والحمام من العالم لما اضطررتن إلىٰ أن تملّكن عليكنّ البوم التي هي أقبح الطير منظراً، وأسوأها خلقاً، وأقلها عقلاً، وأشدها غضباً وأبعدها من كل رحمة، مع عماها وما بها من العشا[٢٩١] بالنهار، وأشد من ذلك وأقبح أمورها سفهها وسوء أخلاقها، إلا أن ترين أن تملكنها وتكن أنتن تدبرن الأمور دونها برأيكن وعقولكن، كما فعلت الأرنب التي زعمت أن القمر ملكها، ثم عملت برأيها، قال الطير: وكيف كان ذلك؟

قال الغراب: زعموا أن أرضاً من أراضي الفيلة تتابعت عليها السنون، وأجدبت، وقل ماؤها، وغارت عيونها، وذوىٰ نبتها، ويبس شجرها، فأصاب الفيلة عطش شديد: فشكون ذلك إلىٰ ملكهن، فأرسل الملك رسله ورواده في طلب الماء، في كل ناحية. فرجع إليه بعض الرسل، فأخبره إني قد وجدت بمكان كذا عيناً يقال لها عين القمر، كثيرة الماء. فتوجه ملك الفيلة بأصحابه إلىٰ تلك العين ليشرب منها هو وفيلته. وكانت العين في أرض للأرانب، فوطئن الأرانب في أجحارهن، فأهلكن منهن كثيراً، فاجتمعت الأرانب إلىٰ ملكها فقلن له: قد علمت ما أصابنا من الفيلة فقال: ليحضرن منكن كل ذي رأي رأيه. فتقدمت أرنبٌ من الأرانب يقال لها فيروز. وكان الملك يعرفها بحسن الرأي والأدب، فقالت: إن رأىٰ الملك أن يبعثني إلىٰ الفيلة ويرسل معي أميناً، ليرىٰ ويسمع ما أقول، ويرفعه إلىٰ الملك، فقال لها الملك: أنت أمينة، ونرضىٰ بقولك، فانطلقي إلىٰ الفيلة، وبلغي عني ما تريدين. واعلمي أن الرسول برأيه وعقله، ولينه وفضله، يخبر عن عقل المرسل. فعليك باللين والرفق

---

(٢٩١) العشا والعشو سوء النظر.

والحلم والتأني: فإن الرسول هو الذي يلين الصدور إذا رفق، ويخشن الصدور إذا خرق[٢٩٢]. ثم إن الأرنب انطلقت في ليلة قمراء، حتىٰ انتهت إلىٰ الفيلة، وكرهت أن تدنو منهن: مخافة أن يطأنها بأرجلهن، فيقتلنها، وإن كنّ غير متعمدات. ثم أشرفت علىٰ الجبل ونادت ملك الفيلة وقالت له: إن القمر أرسلني إليك، والرسول غير ملوم فيما يبلغ، وإن أغلظ في القول. قال ملك الفيلة: فما الرسالة؟ قالت: يقول لك: إن من عرف فضل قوته علىٰ الضعفاء، فاغتر بذلك في شأن الأقوياء، قياساً لهم علىٰ الضعفاء، كانت قوته وبالاً عليه. وأنت قد عرفت فضل قوتك علىٰ الدواب، فغرّك ذلك، فعمدت إلىٰ العين التي تسمىٰ باسمي، فشربت منها، وكدّرتها. فأرسلني إليك: فأنذرك ألا تعود إلىٰ مثل ذلك. وإنك إن فعلت أُغشّ بصرك، وأتلف نفسك. وإن كنت في شكٍّ من رسالتي، فهلم إلىٰ العين من ساعتك: فإني موافيك بها. فعجب ملك الفيلة من قول الأرنب، فانطلق إلىٰ العين مع فيروز الرسول. فلما نظر إليها، رأىٰ ضوء القمر فيها. فقالت له فيروز الرسول: خذ بخرطومك من الماء فاغسل به وجهك، واسجد للقمر. فأدخل الفيل خرطومه في الماء، فتحرك فخيل للفيل أن القمر ارتعد. فقال: ما شأن القمر ارتعد؟ أتراه غضب من إدخالي الخرطوم في الماء؟ قالت فيروز الأرنب: نعم. فسجد الفيل للقمر مرة أخرىٰ، وتاب إليه مما صنع، وشرط ألا يعود إلىٰ مثل ذلك هو ولا أحد من فيلته. قال الغراب: ومع ما ذكرت من أمر البوم إن فيها الخبّ والمكر والخديعة، وشر الملوك الخادع، ومن ابتلىٰ بلسان مخادع، وخدمه، أصابه ما أصاب الأرنب والصفرد[٢٩٣] حين احتكما إلىٰ السنور. قالت الكراكي: وكيف كان ذلك؟

قال الغراب: كان لي جار من الصفاردة في أصل شجرة قريبة من وكرىٰ

(٢٩٢) أي إذا ارتكب أي حماقة.

(٢٩٣) نوع من الطيور يضرب به المثل لشدة جبنه وخوفه.

وكان يكثر مواصلتي ثم فقدته فلم أعلم أين غاب وطالت غيبته عني. فجاءت أرنب إلىٰ مكان الصفرد فسكنته فكرهت أن أخاصم الأرنب فلبثت فيه زمانا. ثم إن الصفرد عاد بعد زمان فأتىٰ منزله فوجد فيه الأرنب. فقال لها: هذا المكان لي، فانتقلي عنه. قالت الأرنب: المسكن لي، وتحت يدي؛ وأنت مدّع له. فإن كان لك حقٌّ فاستعد بإثباته عليّ. قال الصفرد: القاضي منا قريب: فهلمي بنا إليه. قالت الأرنب: ومن القاضي؟ قال الصفرد: إن بساحل البحر سنورا متعبدا، يصوم النهار، ويقوم الليل كله؛ ولا يؤذي دابة، ولا يهرق دما، عيشه من الحشيش ومما يقذفه إليه البحر. فإن أحببت تحاكمنا إليه، ورضينا به. قالت الأرنب: ما أرضاني به إذا كان كما وصفت. فانطلقا إليه فتبعهما لأنظر إلىٰ حكومة الصوام القوام ثم إنهما ذهبا إليه فلما أبصر السنور بالأرنب والصفرد مقبلين نحوه، انتصب قائما يصلي، وأظهر الخشوع والتنسك. فعجبا لما رأيا من حاله ودنوا منه هائبين له، وسلما عليه وسألاه أن يقضي بينهما. فأمرهما أن يقصا عليه القصة ففعلا. فقال لهما: قد بلغني الكبر وثقلت أذناي: فادنوا مني فأسمعانىٰ ما تقولان. فدنوا منه، وأعادا عليه القصة وسألاه الحكم فقال قد فهمت ما قلتما، وأنا مبتدئكما بالنصيحة قبل الحكومة بينكما: فأنا آمركما بتقوىٰ الله وألا تطلبا إلا الحق هو الذي يفلح، وأن قضىٰ عليه وطالب الحق هو الذي يفلح وإن قضىٰ عليه وطالب الباطل مخصوم وإن قضىٰ له. وليس لصاحب الدنيا من دنياه شيء لا مال ولا صديق سوىٰ العمل الصالح يقدمه فذو العقل حقيق أن يكون سعيه في طلب ما يبقىٰ ويعود نفعه عليه غدا، وأن يمقت بسعيه فيما سوىٰ ذلك من أمور الدنيا: فإن منزلة المال عند العاقل بمنزلة المدر[٢٩٤]، ومنزلة الناس عنده فيما يحب أهم من الخير ويكره

(٢٩٤) جمع مدرة، وهي الحجارة أو الطين المتيبس.

من الشر بمنزلة نفسه. ثم إن السّنّور لم يزل يقصّ عليهما من جنس هذا وأشباهه، حتىٰ أنسا إليه، وأقبلا عليه، ودنوا منه، ثم وثب عليهما فقتلهما. قال الغراب: ثم إن البوم تجمع مع ما وصفت لكن من الشؤم سائر العيوب: فلا يكونن تمليك البوم من رأيكن. فلما سمع الكراكىٰ ذلك من كلام الغراب أضربن عن تمليك البوم. وكان هناك بوم حاضر قد سمع ما قالوا، فقال الغراب: لقد وترتني(٢٩٥) أعظم الوترة، ولا أعلم أنه سلف مني إليك سوءٌ أوجب هذا. وبعد فاعلم أن الفأس يقطع به الشجر فيعود ينبت، والسيف يقطع اللحم ثم يعود فيندمل واللسان لا يندمل جرحه ولا تؤسىٰ(٢٩٦) مقاطعه. والنصل من السهم يغيب في اللحم ثم ينزع فيخرج، وأشباه النصل من الكلام إذا وصلت إلىٰ القلب لم تنزع ولم تستخرج. ولكل حريق مطفئٌ: فللنار الماء، وللسم الدواء وللحزن الصبر ونار الحقد لا تخبو أبداً. وقد غرستم معاشر الغربان بيننا وبينكم شجر الحقد والعداوة والبغضاء. فلما قضىٰ البوم مقالته، ولّىٰ مغضباً، فأخبر ملك البوم بما جرىٰ وبكل ما كان من قول الغراب، ثم إن الغراب ندم علىٰ ما فرط منه(٢٩٧)، وقال: والله لقد خرقت في قولي الذي جلبت به العداوة والبغضاء علىٰ نفسي وقومي! وليتني لم أخبر الكراكي بهذه الحال! ولا أعلمتها بهذا الأمر! ولعل أكثر الطير قد رأىٰ أكثر مما رأيت، وعلم أضعاف ما علمت، فمنعها من الكلام بمثل ما تكلمت اتقاء ما لم أتق، والنظر فيما لم أنظر فيه من حذار العواقب، لا سيما إذا كان الكلام أفظع كلام، يلقىٰ منه سامعه وقائله المكروه مما يورث الحقد والضغينة، فلا ينبغي لأشباه هذا الكلام، أن تسمىٰ كلاماً، ولكن سهاماً. والعاقل، وإن كان واثقاً بقوته وفضله، لا ينبغي أن يحمل ذلك علىٰ أن

(٢٩٥) أي أصبتني ببالغ الأذية التي استوجبت الحقد الذي لا ينتهي.
(٢٩٦) تتعالج وتتداوىٰ.
(٢٩٧) ما بدر منه سالفا.

يجلب العداوة على نفسه اتكالاً على ما عنده من الرأي والقوة، كما أنه وإن كان عنده الترياق[٢٩٨] لا ينبغي له أن يشرب السم اتكالًا على ما عنده. وصاحب حسن العمل، وإن قصر به القول في مستقبل الأمر، كان فضله بيّنًا واضحًا في العاقبة والاختبار، وصاحب حسن القول، وإن أعجب الناس منه حسن صفته للأمور لم تحمد عاقبة أمره. وأنا صاحب القول الذي لا عاقبة له محمودة. أليس من سفهي اجترائي على التكلم في الأمر الجسيم لا أستشير فيه أحدا، ولم أعمل فيه رأيا؟ ومن لم يستشر النصحاء الأولياء، وعمل برأيه من غير تكرار النظر والروية، لم يغتبط بمواقع رأيه. فما كان أغناني عما كسبت يومي هذا، وما وقعت فيه من الهم! وعاتب الغراب نفسه بهذا الكلام وأشباهه وذهب. فهذا ما سألتني عنه من ابتداء العداوة بيننا وبين البوم.

وأما القتال فقد علمت رأيي فيه، وكراهتي له، ولكن عندي من الرأي والحيلة غير القتال ما يكون فيه الفرج إن شاء الله تعالى: فإنه ربَّ قوم قد احتالوا بآرائهم حتى ظفروا بما أرادوا. ومن ذلك حديث الجماعة الذين ظفروا بالناسك، وأخذوا عريضه[٢٩٩] قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الغراب: زعموا أن ناسكا اشترى عريضا ضخما ليجعله قربانا، فانطلق به يقوده فبصر به قوم من المكرة، فأتمروا بينهم أن يأخذوه من الناسك. فعرض له أحدهم فقال له: أيها الناسك، ما هذا الكلب الذي معك؟ ثم عرض له الآخر فقال لصاحبه: ما هذا ناسكا، لأن الناسك لا يقود كلبا. فلم يزالوا مع الناسك على هذا ومثله حتى لم يشك أنَّ الذي يقوده كلبٌ، وأن الذي باعه إياه سحر عينه، فأطلقه من يده، فأخذه الجماعة المحتالون ومضوا به. وإنما ضربت لك هذا المثل لما أرجو أن نصيب من حاجتنا بالرفق والحيلة. وإني أريد من الملك أن ينقرني

(٢٩٨) دواء السم، أو قد يقال للدواء عموما ترياق.
(٢٩٩) العريض اسم من أسماء العنزة.

علىٰ رؤوس الأشهاد، وينتف ريشي وذنبي، ثم يطرحني في أصل هذه الشجرة، ويرتحل الملك هو وجنوده إلىٰ مكان كذا. فأرجو أنّي أصبر وأطلع علىٰ أحوالهم، ومواضع تحصينهم وأبوابهم، فأخادعهم وآتي إليكم لنهجم عليهم، وننال منهم غرضنا إن شاء الله تعالىٰ.

قال الملك: أتطيب نفسك لذلك؟ قال: نعم، وكيف لا تطيب نفسي لذلك وفيه أعظم الراحات للملك وجنوده؟ ففعل الملك بالغراب ما ذكر، ثم ارتحل عنه فجعل الغراب يئن ويهمس حتىٰ رأته البوم وسمعته يئن، فأخبرن ملكهن بذلك، فقصد نحوه ليسأله عن الغربان فلما دنا منه أمر بومًا أن يسأله فقال له: من أنت؟ وأين الغربان؟ فقال: أما اسمي ففلان، وأما ما سألتني عنه فإني أحسبك ترىٰ أن حالي حال من لا يعلم الأسرار فقيل لملك البوم: هذا وزير ملك الغربان وصاحب رأيه، فنسأله بأي ذنب صنع به ما صنع؟ فسئل الغراب عن أمره فقال: إن ملكنا استشار جماعتنا فيكنَّ: وكنت يومئذٍ بمحضرٍ من الأمر، فقال: أيها الغربان، ما ترون في ذلك؟ فقلت: أيها الملك لا طاقة لنا بقتال البوم: لأنهن أشد بطشًا، وأحد قلبًا منَّا ولكن أرىٰ أن نلتمس الصلح، ثم نبذل الفدية في ذلك، فإن قبلت البوم ذلك منّا، وإلا هربنا في البلاد وإذا كان القتال بيننا وبين البوم كان خيراً لهنّ وشراً لنا، فالصلح أفضل من الخصومة وأمرتهنَّ بالرجوع عن الحرب، وضربت لهن الأمثال في ذلك، وقلت لهن: إن العدوّ الشديد لا يرد بأسه وغضبه مثل الخضوع له: ألا ترين إلىٰ الحشيش كيف يسلم من عاصف الريح للينه وميله معها حيث مالت فعصينني في ذلك وزعمن أنهن يردن القتال واتهمنني في ما قلت، وقلنا إنك قد مالأت(٣٠٠) البوم علينا ورددنَ قولي ونصيحتي وعذبنني بهذا العذاب وتركني الملك وجنوده وارتحل ولا علم لي بهن

(٣٠٠) انحزت للبوم وساعدتها.

بعد ذلك، فلما سمع ملك البوم مقالة الغراب قال لبعض وزرائه: ما تقول في الغراب؟ وما ترىٰ فيه؟ قال: ما أرىٰ إلا المعاجلة له بالقتل: فإن هذا أفضل عُدَدِ الغربان، وفي قتله لنا راحة من مكره وفقده علىٰ الغربان شديد ويقال: من ظفر بالساعة التي فيها ينجح العمل ثم لا يعاجله بالذي ينبغي له فليس بحكيم، ومن طلب الأمر الجسيم فأمكنه ذلك فأغفله فاته الأمر وهو خليق ألا تعود له الفرصة ثانية ومن وجد عدوه ضعيفا ولم ينجز قتله ندم إذا استقوىٰ ولم يقدر عليه قال الملك لوزير آخر: ما ترىٰ أنت في هذا الغراب؟ قال: أرىٰ ألا تقتله: فإن العدو الذليل الذي لا ناصر له أهلٌ لأن يستبقىٰ ويرحم ويصفح عنه ولا سيما المستجير الخائف: فإنه أهلٌ لأن يؤمن.

قال ملك البوم لوزير آخر من وزرائه: ما تقول في الغراب؟ قال: أرىٰ أن تستبقيه وتحسن إليه: فإنه خليق أن ينصحك والعاقل يرىٰ معاداة بعض أعدائه بعضًا ظفراً حسنًا ويرىٰ اشتغال بعض أعدائه ببعض خلاصًا لنفسه منهم ونجاة كنجاة الناسك من اللص والشيطان حين اختلفا عليه قال الملك له: وكيف كان ذلك؟

قال الوزير: زعموا أن ناسكًا أصاب من رجل بقرة حلوبًا فانطلق بها يقودها إلىٰ منزله، فعرض له لص أراد سرقتها واتبعه شيطان يريد اختطافه. فقال الشيطان للص: من أنت؟ قال أنا اللص، أريد أن أسرق البقرة من الناسك إذا نام. فمن أنت؟ قال: أنا الشيطان أريد اختطافه إذا نام وأذهب به. فانتهيا علىٰ هذا إلىٰ المنزل فدخل الناسك منزله ودخلا خلفه وأدخل البقرة فربطها في زاوية من المنزل وتعشىٰ ونام. فأقبل اللص والشيطان يأتمران فيه واختلفا علىٰ من يبدأ بشغله أولاً فقال الشيطان للص: إن أنت بدأت بأخذ البقرة فربما استيقظ وصاح، واجتمع الناس: فلا أقدر علىٰ أخذه فأنظرني ريثما آخذه، وشأنك وما

تريد. فأشفق اللص إن بدأ الشيطان باختطافه فربما استيقظ فلا يقدر على أخذ البقرة، فقال: لا، بل انظرني أنت حتى آخذ البقرة وشأنك زما تريد فلم يزالا في المجادلة هكذا حتى نادى اللص: أيها الناسك انتبه: فهذا الشيطان يريد اختطافك، ونادى الشيطان: أيها الناسك انتبه: فهذا اللص يريد أن يسرق بقرتك فانتبه الناسك وجيرانه بأصواتهما، وهرب الخبيثان.

قال الوزير الأول الذي أشار بقتل الغراب: أظن أن الغراب قد خدعكنَّ ووقع كلامه في نفس الغبي منكنّ موقعه، فتردن أن تضعنّ الرأي في غير موضعه فمهلاً مهلاً أيها الملك عن هذا الرأي. فلم يلتفت الملك إلى قوله وأمر الغراب أن يحمل إلى منازل البوم، ويكرم ويستوصى به خيراً. ثم إن الغراب قال للملك يوما وعنده جماعة من البوم وفيهن الوزير الذي أشار بقتله: أيها الملك قد علمت ما جرى عليّ من الغربان وأنه لا يستريح قلبي إلا بأخذي بثأري منهن، وإني قد نظرت في ذلك فإذا بي لا أقدر على ما رمت: لأني غراب وقد روى عن العلماء أنهم قالوا: من طابت نفسه بأن يحرقها فقد قرب لله أعظم القربان[٣٠١]، لا يدعو عند ذلك بدعوة إلا استجيب له فإن رأى الملك أن يأمرني فأحرق نفسي وأدعو ربي أن يحولني بوماً فأكون أشد عداوة وأقوى بأساً على الغربان لعلي أنتقم منهن! قال الوزير الذي أشار بقتله: ما أشبهك في خير ما تظهر وشر ما تخفي إلا بالخمرة الطيبة الطعم والريح المنقع فيها السم أرأيت لو أحرقنا جسمك بالنار كان جوهرك وطباعك متغيرة! أليست أخلاقك تدور معك حيثما درت، وتصير بعد ذلك إلى أصلك وطويتك؟ كالفأرة التي خيرت في الأزواج بين الشمس والريح والسحاب والجبل فلم يقع اختيارها إلا على الجرذ، قيل له: وكيف كان ذلك؟

قال: زعموا أنه كان ناسكا مستجاب الدعوة فبينما هو ذات يوم جالسا

(٣٠١) طقس هندي معروف يتمثل باحراق القرابين

علىٰ ساحل البحر إذ مرت به حدأة[٣٠٢] في رجلها درص[٣٠٣] فأرة فوقعت منها عند الناسك، وأدركته لها رحمة، فأخذها ولفها في ورقة، وذهب بها إلىٰ منزله، ثم خاف أن تشق علىٰ أهله تربيتها فدعا ربه أن يحولها جارية: فتحولت جارية حسناء فانطلق بها إلىٰ امرأته، فقال لها هذه ابنتي فاصنعي معها صنيعك بولدي. فلما كبرت قال لها الناسك: يا بنية اختاري من أحببت حتىٰ أزوجك به. فقالت، أما إذا خيرتني فإني أختار زوجًا يكون أقوىٰ الأشياء. فقال الناسك لعلك تريدين الشمس! ثم انطلق إلىٰ الشمس فقال: أيها الخلق العظيم إن لي جارية وقد طلبت زوجًا يكون أقوىٰ الأشياء، فهل أنت متزوجها؟ فقالت الشمس أنا أدلك علىٰ من هو أقوىٰ مني: السحاب الذي يغطيني، ويرد حر شعاعي ويكسف أشعة أنواري. فذهب الناسك إلىٰ السحاب فقال له ما قال للشمس، فقال السحاب: وأنا أدلك علىٰ من هو أقوىٰ مني: فاذهب إلىٰ الريح التي تقبل بي وتدبر وتذهب بي شرقًا وغربًا، فجاء الناسك إلىٰ الريح فقال لها كقوله للسحاب فقالت: وأنا أدلك علىٰ من هو أقوىٰ مني وهو الجبل الذي لا أقدر علىٰ تحريكه، فمضىٰ إلىٰ الجبل وقال له القول المذكور فأجابه الجبل وقال له: أنا أدلك علىٰ من هو أقوىٰ مني: الجرذ الذي لا أستطيع الامتناع منه إذا ثقبني واتخذني مسكنًا. فانطلق الناسك إلىٰ الجرذ فقال له: هل أنت متزوج هذه الجارية؟ فقال وكيف أتزوجها وجحري ضيق؟ إنما يتزوج الجرذ الفأرة فدعا الناسك ربه أن يحولها فأرة كما كانت وذلك برضىٰ الجارية، فأعادها الله إلىٰ عنصرها الأول فانطلقت مع الجرذ، فهذا مثلك أيها المخادع فلم يلتفت ملك البوم إلىٰ ذلك القول، ورفق بالغراب ولم يزدد له إلا إكرامًا حتىٰ إذا طاب عيشه ونبت ريشه واطلع علىٰ ما أراد أن يطلع عليه راغ روغة.

(٣٠٢) نوع من الطيور.
(٣٠٣) درص الفأرة هو ابنها أو صغيرها.

فأتىٰ أصحابه بما رأىٰ وسمع فقال للملك: إني قد فرغت مما كنت أريد ولم يبقىٰ إلا أن تسمع وتطيع، فقال له: أنا والجند تحت أمرك، فاحتكم كيف شئت. قال الغراب: إن البوم بمكان كذا في جبل كثير الحطب وفي ذلك الموضع قطيع من الغنم مع رجل راع، ونحن مصيبون هناك ناراً، ونلقيها في أنقاب[٣٠٤] البوم ونقذف عليها من يابس الحطب ونتراوح عليها ضرباً بأجنحتنا حتىٰ تضطرم[٣٠٥] النار في الحطب: فمن خرج منهن احترق ومن لم يخرج مات بالدخان موضعه ففعل الغربان ذلك: فأهلكنّ البوم قاطبةً ورجعن إلىٰ منازلهن سالمات آمنات. ثم إن ملك الغربان قال لذلك الغراب: كيف صبرت علىٰ صحبة البوم ولا صبر للأخيار علىٰ صحبة الأشرار؟ فقال الغراب: إن ما قلته أيها الملك لك ذلك؛ لكن العاقل إذا أتاه الأمر الفظيع العظيم الذي يخاف من عدم تحمله الجائحة[٣٠٦] علىٰ نفسه وقومه لم يجزع من شدة الصبر عليه، لما يرجو من أن يعقبه صبره حسن العاقبة وكثير الخير فلم يجد لذلك ألماً، ولم تكره نفسه الخضوع لمن هو دونه حتىٰ يبلغ حاجته فيغتبط بخاتمة أمره وعاقبة صبره. فقال الملك: أخبرني عن عقول البوم: فقال الغراب: لم أجد فيهن عاقلاً إلا الذي كان يحثهن علىٰ قتلي، وكان حرضهن علىٰ ذلك مراراً فكن أضعف شيء رأياً! فلم ينظرن في رأيه ويذكرن أني قد كنت ذا منزلة في الغربان، وأني أعد من ذوي الرأي ولم يتخوفن مكري وحيلتي ولا قبلنّ من الناصح الشفيق ولا أخفين دوني أسرارهن وقد قال العلماء: ينبغي للملك أن يحصن أموره من أهل النميمة ولا يطلع أحد منهم علىٰ مواضع سره فقال الملك: ما أهلك البوم في نفسي إلا البغي، وضعف رأي الملك وموافقته وزراء السوء فقال الغراب: صدقت أيها

(٣٠٤) جمع نقب، وهو عموماً الثقب.
(٣٠٥) تشتعل.
(٣٠٦) كل أمر شديد مهلك.

الملك، إنه قلما ظفر أحد بغنىً ولم يطع، وقلّ من أكثر من الطعام إلا مرض. وقلّ من وثق بوزراء السوء وسلم من أن يقع في المهالك وكان يقال: لا يطمعنّ ذو الكبر في حسن الثناء، ولا الخبُّ في كثرة الصديق، ولا السّيّ الأدب في الشرف، ولا الشحيح في البرّ، ولا الحريص في قلة الذنوب ولا الملك المحتال، المتهاون بالأمور، الضعيف الوزراء في ثبات ملكه، وصلاح رعيّته قال الملك: لقد احتملت مشقّة شديدة في تصنعك للبوم، وتضرعك لهنّ قال الغراب: إنه من احتمل مشقة يرجو نفعها، ونحىٰ عن نفسه الأنفة والحمية، ووطنها[٣٠٧] علىٰ الصبر حمد غب[٣٠٨] رأيه، كما صبر الأسود علىٰ حمل ملك الضفادع علىٰ ظهره، وشبع بذلك وعاش قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الغراب: زعموا أن أسود من الحيات كبر، وضعف بصره وذهبت قوته: فلم يستطع صيداً ولم يقدر علىٰ طعام وأنه انساب يتلمس شيئًا يعيش به، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ عين كثيرة الضفادع، قد كان يأتيها قبل ذلك، فيصيب من ضفادعها رزقه فرمىٰ نفسه قريبًا منهنّ مظهراً للكآبة والحزن فقال له ضفدع: ما لي أراك أيها الأسود كئيبًا حزينًا؟ قال: ومن أحرىٰ بطول الحزن مني! وإنما كان أكثر معيشتي مما كنت أصيب من الضفادع فابتليت ببلاء وحرمت علىٰ الضفادع من أجله، حتىٰ إني إذا التقيت ببعضها لا أقدر علىٰ إمساكه. فانطلق الضفدع إلىٰ ملك الضفادع، فبشره بما سمع من الأسود فقال له: كيف كان أمرك؟ قال سعيت منذ أيام في طلب ضفدع وذلك عند المساء فاضطررته إلىٰ بيت ناسك، ودخلت في أثره في ظلمة وفي البيت ابن الناسك، فأصبت إصبعه، فظننت أنها الضفدع، فلدغته فمات فخرجت هاربًا، فتبعني الناسك في أثري، ودعا عليّ ولعنني وقال: كما قتلت ابني البريء ظلما وتعديا، أدعو عليك أن تذل وتصير مركبا

(٣٠٧) عودها.
(٣٠٨) عاقبة.

الملك الضفادع، فلا تستطيع أخذها، ولا أكل شيء منها، إلا ما يتصدق به عليك ملكها فأتيت إليك لتركبني مقراً بذلك راضياً به فرغب ملك الضفادع بركوب الأسود، وظن أن ذلك فخر له وشرف ورفعة فركب واستطاب له ذلك.

فقال له الأسود: قد علمت أيها الملك أني محروم فاجعل لي رزقاً أعيش به فقال ملك الضفادع: لعمري لابد من رزق يقوم بك، إذا كنت مركبي فأمر له بضفدعين يؤخذان في كل يوم ويدفعان إليه فعاش بذلك، ولم يضره خضوعه للعدو الذليل، بل انتفع بذلك وصار له رزقاً ومعيشة. وكذلك كان صبري على ما صبرت عليه، التماساً لهذا النفع العظيم الذي اجتمع لنا فيه الأمن الظفر، وهلاك العدو والراحة منه ووجدت صرعة اللين والرفق أسرع وأشد استئصالاً للعدو من صرعة المكابرة: فإن النار لا تزيد بحدتها وحرها إذا أصابت الشجرة على أن تحرق ما فوق الأرض منها والماء ببرده ولينه يستأصل ما تحت الأرض منها ويقال أربعة أشياء لا يستقل قليلها: النار والمرض والعدو والدين. قال الغراب: وكل ذلك من رأي الملك وأدبه وسعادة جدّه وإنه كان يقال: إذا طلب اثنان أمراً ظفر به منهما أفضلهما مروءة فإن اعتدلا في المروءة فأشدهما عزماً. فإن استويا في العزم فأسعدهما جداً وكان يقال: من حارب الملك الحازم الأريب المتضرع الذي لا تبطره السراء ولا تدهشه الضراء كان هو داعي الحتف إلى نفسه، ولا سيما إذا كان مثلك أيها الملك العالم بفروض الأعمال، ومواضع الشدة واللين، والغضب والرضا والمعاجلة والأناة الناظر في أمر يومه وغده، وعواقب أعماله قال الملك للغراب: بل برأيك وعقلك ونصيحتك ويمن طالعك كان ذلك، فإن رأي الرجل الواحد، العاقل الحازم أبلغ في هلاك العدو من الجنود الكثيرة، من ذوي البأس والنجدة، والعدد والعدة. وإن من عجيب أمرك عندي طول لبثك

بين ظهراني البوم تسمع الكلام الغليظ، ثم لم تسقط بينهن بكلمة! قال الغراب: لم أزل متمسكًا بأدبك أيها الملك: أصحب البعيد والقريب، بالرفق واللين، والمبالغة والمواتاة. قال الملك: أصبحت وقد وجدتك صاحب العمل، ووجدت غيرك من الوزراء أصحاب أقاويل: ليس لها عاقبة حميدة فقد منّ الله علينا بك منّة عظيمة لم نكن قبلها نجد لذة الطعام والشراب، ولا النوم ولا القرار وكان يقال: لا يجد المريض لذة الطعام والنوم حتىٰ يبرأ، ولا الرجل الشره الذي قد أطعمه سلطانه في مال وعمل في يده، حتىٰ ينجزه له، ولا الرجل الذي قد ألح عليه عدوه، وهو يخافه صباحًا ومساءً حتىٰ يستريح منه قلبه ومن وضع الحمل الثقيل عن يديه أراح نفسه ومن أمن عدوه ثلج[٣٠٩] صدره. قال الغراب: أسأل الله الذي أهلك عدوك أن يمتعك بسلطانك، وأن يجعل في ذلك صلاح رعيتك، ويشركهم في قرة العين بملكك! فإن الملك إذا لم يكن في ملكه قرة عيون رعيته، فمثله مثل زنمة[٣١٠] العنز التي يمصها، وهو يحسبها حلمة الضرع، فلا يصادف فيها خيراً. قال الملك: أيها الوزير الصالح، كيف كانت سيرة البوم وملكها في حروبها، وفيما كانت فيه من أمورها؟ قال الغراب: كانت سيرته سيرة بطر، وأشر وخيلاء وعجز وفخر مع ما فيه من الصفات الذميمة وكل أصحابه ووزرائه شبيه به، إلا الوزير الذي كان يشير عليه بقتلي: فإنه كان حكيمًا أريبًا، فيلسوفًا حازمًا عالمًا، قلما يرىٰ مثله في علو الهمة، وكمال العقل، وجودة الرأي قال الملك: وأي خصلة رأيت منه كانت أدل علىٰ عقله؟ قال خلتان: إحداهما رأيه في قتلي والأخرىٰ أنه لم يكتم صاحبه نصيحته وإن استقلها ولم يكن كلامه كلام عنف وقسوة ولكنه كلام رفق ولين حتىٰ إنه ربما أخبره ببعض عيوبه ولا يصرح بحقيقة الحال بل يضرب له الأمثال ويحدثه

(٣٠٩) إطمأن.

(٣١٠) قطعة من اللحم تتدلىٰ من عنق العنز.

بعيب غيره فيعرف عيبه فلا يجد ملكه إلىٰ الغضب عليه سبيلاً وكان مما سمعته يقول لملكه: إنه لا ينبغي للملك أن يغفل عن أمره فإنه أمر جسيم لا يظفر به من الناس إلا قليل ولا يدرك إلا بالحزم فإن الملك عزيز فمن ظفر به فليحسن حفظه وتحصينه، فإنه قد قيل إنه في قلة بقائه بمنزلة قلة بقاء الظل عن ورق النيلوفر وهو في خفة زواله، وسرعة إقباله وإدباره كالريح وفي قلة ثباته كاللبيب مع اللئام، وفي سرعة اضمحلاله كحباب الماء من وقع المطر. فهذا مثل أهل العداوة الذين لا ينبغي أن يغتر بهم، وإن هم أظهروا تودداً وتضرعـاً.

(انقضىٰ باب البوم والغربان)

باب القرد والغيلم[٣١١]

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل ، فاضرب لي مثل الرجل الذي يطلب الحاجة فإذا ظفر بها أضاعها قال الفيلسوف: إن طلب الحاجة أهون من الاحتفاظ بها ومن ظفر بحاجة ثم لم يحسن القيام بها أصابه ما أصاب الغيلم. قال الملك: وكيف ذلك؟ قال بيدبا: زعموا أن قرداً يقال له ماهر كان ملك القردة وكان قد كبر وهرم فوثب عليه قرد شاب من بيت المملكة فتغلب عليه، وأخذ مكانه فخرج هارباً علىٰ وجهه حتىٰ انتهىٰ إلىٰ الساحل فوجد شجرة من شجر التين فارتقىٰ إليها وجعلها مقامه فبينما هو ذات يوم يأكل من ذلك التين، إذ سقطت من يده تينة في الماء فسمع لها صوتاً وإيقاعاً، فجعل يأكل ويرمي في الماء، فأطربه ذلك: فأكثر من طرح التين في الماء، وثم غيلم كلما وقعت تينة أكلها. فما كثر ذلك ظن أن القرد إنما يفعل ذلك لأجله فرغب في مصادقته، وأنس إليه وكلمه، وألف كل واحد منهما صاحبه. وطالت غيبة الغيلم عن زوجته: فجزعت عليه وشكت ذلك إلىٰ جارة لها وقالت: قد خفت أن يكون قد عرض له عارض سوء فاغتاله. فقالت لها: إن زوجك بالساحل قد ألف قرداً وألفه القرد : فهو مؤاكله ومشاربه، وهو الذي قطعه عنك، ولا يقدر أن يقيم عندك حتىٰ تحتالي لهلاك القرد. قالت وكيف أصنع؟ قالت لها جارتها: إذا وصل إليك فتمارضي[٣١٢]، فإذا سألك عن حالك فقولي: إن الحكماء وصفوا لي قلب قرد. ثم إن الغيلم انطلق بعد مدة إلىٰ منزله فوجد زوجته سيئة الحال مهمومة فقال لها الغيلم: مالي أراك هكذا؟ فأجابته جارتها، وقالت: إن زوجتك

(٣١١) الغيلم هو اسم ذكر السلحفاة

(٣١٢) أي ادعي المرض ومثليه.

مريضة مسكنة. وقد وصف لها الأطباء قلب قرد، وليس لها دواء سواه قال الغيلم: هذا أمر عسير من أين لنا قلب قرد، ونحن في الماء؟ لكن سأحتال لصديقي ثم أنطلق إلىٰ ساحل البحر: فقال له القرد يا أخي، ما حبسك عني؟ قال الغيلم: ما حبسني عنك إلا حيائي: فلم أعرف كيف أجازيك علىٰ إحسانك إلي، وأريد أن تتم إحسانك إلي بزيارتك لي في منزلي، فإني ساكن في جزيرة طيبة الفاكهة، فاركب ظهري كي أسبح بك. فرغب القرد في ذلك، ونزل فركب ظهر الغيلم، فسبح به حتىٰ إذا سبح به عرض له قبح ما أضمر في نفسه من الغدر، فنكس رأسه، فقال له القرد: مالي أراك مهتماً؟ قال الغيلم: إنما همي لأني ذكرت أن زوجتي شديدة المرض وذلك يمنعني من كثير مما أريد أن أبلغه من كرامتك وملاطفتك. قال القرد: إن الذي أعرف من حرصك علىٰ كرامتي يكفيك مؤونة التكلف. قال الغيلم: أجل ومضىٰ بالقرد ساعةً، ثم توقف به ثانية: فساء ظن القرد وقال في نفسه: ما احتباس الغيلم وإبطاؤه إلا لأمر ولست آمناً أن يكون قلبه قد تغير لي وحال عن مودتي، فأراد بي سوءاً: فإنه لا شيء أخف وأسرع تقلباً من القلب وقد يقال: ينبغي للعاقل ألا يغفل عن التماس ما نفس أهله وولده وإخوانه وصديقه عند كل أمر، وفي كل لحظة وكلمة وعند القيام والقعود، وعلىٰ كل حال، فإن ذلك كله يشهد علىٰ ما في القلوب. وقد قالت العلماء إذا دخل قلب الصديق من صديقه ريبة فليأخذ بالحزم في الحفظ منه وليتفقد ذلك في لحظاته وحالاته فإن كان ما يظن حقاً ظفر بالسلامة، وإن كان باطلاً ظفر بالحزم، ولم يضره ذلك ثم قال للغيلم: ما الذي يحبسك؟ ومالي أراك مهتماً، كأنك تحدث نفسك مرة أخرىٰ؟ قال: يهمني أنك تأتي منزلي فلا تجد أمري كما أحب: لأن زوجتي مريضة قال القرد: لا تهتم فإن الهم لا يغني عنك شيئا ولكن التمس ما يصلح زوجتك من الأدوية والأغذية: فإنه يقال

ليبذل ذو المال ماله في أربعة مواضع: في الصدقة وفي وقت الحاجة وعلىٰ البنين وعلىٰ الأزواج. قال الغيلم: صدقت. وقد قالت الأطباء إنه لا دواء لها إلا قلب قرد. فقال القرد واأسفاه لقد أدركني الحرص والشره علىٰ كبر سني: حتىٰ وقعت في شر ورطة ولقد صدق الذي قال: يعيش القانع الراضي مستريحًا مطمئنًا وذو الحرص والشره يعيش ما عاش في تعب ونصب.

وأني قد احتجت الآن إلىٰ عقلي في التماس المخرج مما وقعت فيه. ثم قال الغيلم: وما منعك أن تعلمني عند منزلي حتىٰ كنت أحمل قلبي معي؟ فهذه سنة فينا معاشر القردة إذا خرج أحد لزيارة صديق خلّف قلبه عند أهله أوفي موضعه، لننظر إذا نظرنا إلىٰ حرم المزور وليس قلوبنا معنا. قال الغيلم: وأين قلبك الآن؟ قال: خلّفته في الشجرة فإن شئت فارجع بي إلىٰ الشجرة حتىٰ آتيك به. ففرح الغيلم بذلك وقال: لقد وافقني صاحبي بدون أن أغدر به. ثم رجع بالقرد إلىٰ مكانه، فلما قاربا الساحل وثب عن ظهره فارتقىٰ الشجرة، فلما أبطأ علىٰ الغيلم، ناداه: يا خليلي احمل قلبك وانزل فقد حبستني. فقال القرد: هيهات أتظن أنّي كالحمار الذي زعم ابن آوىٰ أنه لم يكن له قلب ولا أذنان قال الغيلم: وكيف ذلك؟ قال القرد: زعموا أنه كان أسد في أجمةٍ، وكان معه ابن آوىٰ يأكل من فواضل طعامه، فأصاب الأسد جرب، وضعف شديد وجهد، فلم يستطع الصيد فقال له ابن آوىٰ: ما بالك يا سيد السباع قد تغيرت أحوالك؟ قال: هذا الجرب الذي قد أجهدني وليس له دواء إلا قلب حمار وأذناه. قال ابن آوىٰ: ما أيسر هذا وقد عرفت بمكان كذا حماراً مع قصار يحمل عليه ثيابه، وأنا آتيك به ثم دلف إلىٰ الحمار فأتاه وسلم عليه فقال له: مالي أراك مهزولا؟ قال ما يطعمني صاحبي شيئا فقال له: وكيف ترضىٰ المقام معه علىٰ هذا؟ قال: فما لي حيلة

في الهرب منه، لست أتوجه إلىٰ جهة إلا جهة أضر بي إنسان فكدني وأجاعني قال ابن آوىٰ: فأنا أدلك علىٰ مكان معزول عن الناس، لا يمر به إنسان، خصيب المرعىٰ فيه قطيع من الحمر لم تر عين مثلها حسناً وسمناً قال الحمار: وما يحبسنا عنها؟ فانطلق بنا إليها، فانطلق به ابن آوىٰ نحو الأسد، وتقدم ابن آوىٰ ودخل الغابة علىٰ الأسد، فأخبره بمكان الحمار فخرج إليه وأراد أن يثب عليه، فلم يستطيع لضعفه، وتخلص الحمار منه فأفلت هلعاً[٣١٣] علىٰ وجهه فلما رأىٰ ابن آوىٰ أن الأسد لم يقدر علىٰ الحمار، قال له: أعجزت يا سيد السباع إلىٰ هذه الغاية؟ فقال له: إن جئتني به مرة أخرىٰ، فلن ينجو مني أبداً فمضىٰ ابن آوىٰ إلىٰ الحمار فقال له: ما الذي جرىٰ عليك؟ إن أحد الحمر رآك غريباً، فخرج يتلقاك مرحباً بك، ولو ثبت له لآنسك، ومضىٰ بك إلىٰ أصحابه فلما سمع الحمار كلام ابن آوىٰ، ولم يكن رأىٰ أسداً قط، صدقه وأخذ طريقه إلىٰ الأسد وأعلمه بمكانه وقال له: استعد له فقد خدعته لك: فلا يدركنَّك الضعف في هذه النوبة إن أفلت فلن يعود معي أبداً فجاش جأش[٣١٤] الأسد لتحريض ابن آوىٰ له، وخرج إلىٰ موضع الحمار فلما بصر به عاجله بوثبة افترسه بها. ثم قال: قد ذكرت الأطباء أنه لا يؤكل إلا بعد الغسل والطهور: فاحتفظ به حتىٰ أعود فآكل قلبه وأذنيه، وأترك ما سوىٰ ذلك قوتاً لك فلما ذهب الأسد ليغتسل، عمد ابن آوىٰ إلىٰ الحمار فأكل قلبه وأذنيه، رجاء أن يتطير الأسد منه، فلا يأكل منه شيئاً، ثم إن الأسد رجع الىٰ مكانه فقال لابن آوىٰ: أين قلب الحمار وآذناه؟ قال ابن آوىٰ: ألم تعلم أنه لو كان له قلب يفقه به، وأذنان يسمع بهما، لم يرجع إليك بعد ما أفلت ونجا من الهلكة؟

وإنَّما ضربت لك هذا المثل لتعلم أني لست كذلك الحمار الذي زعم

(٣١٣) الهلع هو أشد درجات الخوف.

(٣١٤) أي صارت قوته تغلي.

ابن آوى أنه لم يكن له قلب وأذنان، ولكنك احتلت عليَّ وخدعتني فخدعتك بمثل خديعتك، واستدركت فارط أمري[٣١٥]. وقد قيل: إن الذي يفسده الحلم لا يصلحه إلا العلم. قال الغيلم: صدقت، إلا أن الرجل الصالح يعترف بزلته، وإذا أذنب ذنباً لم يستحِ أن يؤدَّب: لصدقه في قوله وفعله، وإن وقع في ورطة أمكنه التخلص منها بحيلته وعقله: كالرجل الذي يعثر على الأرض، ثم ينهض عليها معتمداً فهذا مثل الرجل الذي يطلب الحاجة فإذا ظفر بها أضاعها.

(انقضى باب الغيلم والقرد)

(٣١٥) ما فات من أمري.

باب الناسك وابن عرس

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل. فاضرب لي مثل الرجل العجلان في أمره من غير روية ولا نظر في العواقب قال الفيلسوف: إنه من لم يكن في أمره متثبتاً لم يزل نادماً ويصير أمره إلىٰ ما صار إليه الناسك من قتل ابن عرس وقد كان له ودودا. قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أن ناسكاً من النساك بأرض جرجان[٣١٦] وكانت له امرأة جميلة، فمكثا زمناً لم يرزقا ولدا ثم حملت منه بعد الإياس فسرت المرأة وسر الناسك بذلك فحمد الله تعالىٰ وسأله أن يكون الحمل ذكراً وقال لزوجته: أبشري فإني أرجو أن يكون غلاماً لنا فيه منافع، وقرة عين، أختار له أحسن الأسماء وأحضر له سائر الأدباء. فقالت المرأة: ما يحملك أيها الرجل علىٰ أن تتكلم بما لا تدري أيكون أم لا؟ ومن فعل ذلك أصابه ما أصاب الناسك الذي أراق علىٰ رأسه السمن والعسل. قال لها: وكيف ذلك؟ قالت: زعموا أن ناسكا كان يجري عليه من بيت رجل تاجر، في كل يوم رزق من السمن والعسل وكان يأكل منه قوته وحاجته ويرفع الباقي ويجعله في جرة، فيعلقها في وتد في ناحية البيت حتىٰ امتلأت فبينما الناسك ذات يوم مستلق علىٰ ظهره والعكاز في يده والجرة معلقة علىٰ رأسه، تفكّر في غلاء السمن والعسل، فقال: سأبيع ما في هذه الجرة بدينار وأشتري به عشرة أعنز[٣١٧]، فيحبلن ويلدن في كل خمسة أشهر بطناً، ولا تلبث قليلاً حتىٰ تصير غنماً كثيرة إذا ولدت أولادها، ثم حرر علىٰ هذا النحو بسنين فوجد ذلك أكثر من أربعمائة

(٣١٦) بلد في بلاد فارس.

(٣١٧) جمع عنزة.

عنز، فقال: أنا أشتري بها مائة من البقر، وأشترى أرضاً وبذراً، وأستأجر أكرة[٣١٨] وأزرع علىٰ الثيران، وأنتفع بألبان الإناث ونتاجها فلا يأتي علىٰ خمس سنين إلا وقد أصبت من الزرع مالاً كثيراً، فأبني بيتاً فاخراً وأشتري إماء وعبيد، وأتزوج امرأة جميلة ذات حسن، ثم تأتي بغلام سري نجيب، فأختار له أحسن الأسماء، فإذا ترعرع أدبته وأحسنت تأديبه وأشدد عليه في ذلك، فإن يقبل مني، وإلا ضربته بهذه العكازة وأشار إلىٰ الجرة فكسرها، فسال ما كان فيها علىٰ وجهه. وإنما ضربت لك هذا المثل لكي لا تعجل بذكر ما لا ينبغي ذكره، وما لا تدري أيصح أم لا يصح فاتعظ الناسك بما حكت زوجته. ثم إن المرأة ولدت غلاماً جميلاً ففرح به أبوه، وبعد أيام حان لها أن تتطهر فقالت المرأة للناسك: اقعد عند ابنك حتىٰ أذهب إلىٰ الحمام فأغتسل وأعود. ثم إنها انطلقت إلىٰ الحمام، وخلفت زوجها والغلام فلم يلبث أن جاءه رسول الملك يستدعيه ولم يجد من يخلفه عند ابنه غير ابن عرس داجن عنده، كان قد رباه صغيراً فهو عنده عديل ولده فتركه الناسك عند الصبي وأغلق عليهما البيت وذهب مع الرسول. فخرج من بعض أجحار البيت حية سوداء، فدنت من الغلام فضربها ابن عرس، ثم وثب عليها فقتلها ثم قطعها وامتلأ فمه من دمها ثم جاء الناسك وفتح الباب، فالتقاه ابن عرس كالمبشر له بما صنع من قتل الحية. فلما رآه ملوثاً بالدم وهو مذعور طار عقله وظن أنه قد خنق ولده ولم يتثبت في أمره ولم يترو فيه حتىٰ يعلم حقيقة الحال ويعمل بغير ما يظن من ذلك ولكن عجل علىٰ ابن عرس وضربه بعكازه كانت في يده علىٰ أم رأسه فمات. ودخل الناسك فرأىٰ الغلام سليماً حياً وعنده أسود مقطع. فلما عرف القصة وتبين له سوء فعله في العجلة لطم علىٰ رأسه. وقال: ليتني لم أرزق هذا

(٣١٨) جمع أكار، وهو من يحرث الأرض.

الولد ولم أغدر هذا الغدر. ودخلت امرأته فوجدته على تلك الحال فقالت له: ما شأنك؟ فأخبرها بالخبر من حسن فعل ابن عرس وسوء مكافأته له فقالت: هذه ثمرة العجلة فهذا مثل من لا يتثبت في أمره بل يفعل أغراضه بالسرعة والعجلة.

(انقضىٰ باب الناسك وابن عرس)

باب الجرذ والسنور

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مثل رجل كثر اعداؤه وأحدقوا به من كل جانب، فأشرف معهم علىٰ الهلاك فالتمس النجاة والمخرج بموالاة بعض أعدائه ومصالحته، فسلم من الخوف وأمن ثم وفي لمن صالحه منهم. قال الفيلسوف: إن المودة والعداوة لا تثبتان علىٰ حالة واحدة أبدا. وبما حالت المودة إلىٰ العداوة وصارت العداوة ولاية و صداقة. ولهذا حوادث وعلل وتجارب وذو الرأي يحدث لكل ما يحدث من ذلك رأيا جديداً: أما من قبل العدو فبالبأس وأما من قبل الصديق فبالاستئناس، ولا تمنع ذا العقل عداوة كانت في نفسه لعدوه من مقاربته والاستنجاد به علىٰ دفع مخوف أو جر مرغوب. ومن عمل في ذلك بالحزم ظفر بحاجته. ومثل ذلك مثل الجرذ والسنور حين وقعا في الورطة، فنجوا باصطلاحهما جميعًا من الورطة والشدة. قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال بيدبا: زعموا أن شجرة عظيمة كان في أصلها جحر سنور يقال له رومي، وكان قريبًا منه جحر جرذ يقال له فريدون، وكان الصيادون كثيراً ما يتداولون ذلك المكان يصيدون فيه الوحش والطير، فنزل ذات يوم صياد فنصب حبالته قريبًا من موضع رومي، فلم يلبث أن وقع فيها. فخرج الجرذ يدب، ويطلب ما يأكل، وهو حذر من رومي، فبينما هو يسعىٰ إذ بصر به في الشرك، فسرّ واستبشر، ثم التفت فرأىٰ خلفه ابن عرس، يريد أخذه، وفي الشجرة بوم، يريد اختطافه، فتحيّر في أمره، وخاف إن رجع وراءه أخذه ابن عرس، وإن ذهب يمينا أو شمالا اختطفه البوم، وإن تقدم أمامه افترسه السنور. فقال في نفسه: هذا بلاء قد اكتنفني، وشرور تظاهرت عليّ، ومحنٌ قد أحاطت

بي. وبعد ذلك فمعي عقلي، فلا يفزعني أمري، ولا يهولني شأني، ولا يلحقني الدهش، ولا يذهب قلبي شعاعاً: فالعاقل لا يفرق[٣١٩] عند سداد رأيه ولا يعزب عنه ذهنه[٣٢٠] على حال. وإنما العقل شبيهٌ بالبحر الذي لا يدرك غوره ولا يبلغ البلاء من ذي الرأي مجهوده فيهلكه، وتحقق الرجاء لا ينبغي أن يبلغ منه مبلغاً يبطره ويسكره: فيعمى عليه أمره، ولست أرى لي من هذا البلاء مخلصاً إلا مصالحة السنّور: فإنه قد نزل به من البلاء مثل ما قد نزل بي أو بعضه، ولعل إن سمع كلامي الذي أكلّمه به، ووعى عنّي فَصِيحَ خطابي، ومحض صدقي الذي لا خلاف فيه، ولا خداع معه ففهمه، وطمع في معونتي إياه، نَخلُصْ جميعاً.

ثم إن الجرذ دنا من السنّور فقال له: كيف حالك؟ فقال له السنور: كما تحب: في ضنك وضيق. قال: وأنا اليوم شريكك في البلاء، ولست أرجو لنفسي خلاصاً إلا بالذي أرجو لك فيه الخلاص، وكلامي هذا ليس فيه كذب ولا خديعة وابن عرس ها هو كامنٌ لي، والبوم يرصدني وكلاهما لي ولك عدوٌّ فإن جعلت لي الأمان، قطعت حبائلك، وخلّصتك من هذه الورطة، فإذا كان ذلك تخلّص كل واحد منّا بسبب صاحبه: كالسفينة والركاب في البحر: فبالسفينة ينجون وبهم تنجو السفينة. فلما سمع السنور كلام الجرذ وعرف أنه صادق قال له: إن قولك هذا لشبيه بالحق، وأنا أيضاً راغب فيما أرجو لك ولنفسي به الخلاص. ثم إنك إن فعلت ذلك فسأشكر لك ما بقيت. قال الجرذ: فإني سأدنو منك فأقطع الحبائل كلها إلا حبلاً واحداً أبقيه لأستوثق لنفسي منك. ثم أخذ في قرض حبائله ثم إن البوم وابن عرس لما رأيا دنو الجرذ من السنور أيسا منه وانصرفا. ثم إن الجرذ أبطأ على رومي قطع الحبائل فقال له: ما لي لا أراك مجداً في قطع حبائلي؟ فإن كنت قد كنت ظفرت بحاجتك: فتغيرت عما كنت

(٣١٩) لا يخاف.

(٣٢٠) لا يغيب عنه صفاء ذهنه.

عليه وتوانيت في حاجتي فما ذلك من فعل الصالحين: فإن الكريم لا يتوانىٰ في حق صاحبه. وقد كان لك في سابق مودتي من الفائدة والنفع ما قد رأيت. وأنت حقيق أن تكافئني بذلك ولا تذكر العداوة التي بيني وبينك: فالذي حدث بيني وبينك من الصلح حقيق أن ينسيك ذلك مع ما في الوفاء من الفضل والأجر، وما في الغدر من سوء العاقبة: فإن الكريم لا يكون إلا شكوراً غير حقود، تنسيه الخلة الواحدة من الإحسان الخلال الكثيرة من الإساءة وقد يقال: إن أعجل العقوبة عقوبة الغدر ومن إذا تضرع إليه وسئل العفو فلم يرحم ولم يعف فقد غدر. قال الجرذ: إن الصديق صديقان: طائع ومضطر، وكلاهما يلتمسان المنفعة ويحترسان من المضرة فأما الطائع فيسترسل إليه ويؤمن في جميع الأحوال، وأما المضطر ففي بعض الأحوال يسترسل إليه وفي بعضها يتحذر منه. ولا يزال العاقل يرتهن منه بعض حاجاته لبعض ما يتقي ويخاف، وليس عاقبة التواصل من المتواصل إلا طلب عاجل النفع وبلوغ مأموله، وأنا واف لك بما جعلت لك، ومحترس منك مع ذلك، من حيث أخافك تخوفا أن يصيبني منك ما ألجأني خوفه إلىٰ مصالحتك وألجأك إلىٰ قبول ذلك مني: فإن لكل عمل حيناً. فما لم يكن منه في حينه فلا حسن لعاقبته. وأنا قاطع حبائلك كلها غير أني تارك عقدة واحدة أرتهنك بها ولا أقطعها إلا في الساعة التي أعلم أنك فيها عني مشغول: وذلك عند معاينتي الصياد. ثم إن الجرذ أخذ في قطع حبائل السنور. فبينما هو كذلك إذ وافىٰ الصياد فقال له السنور: الآن جاء الجد في قطع حبائلي. فأجهد الجرذ نفسه في القرض حتىٰ إذا فرغ وثب السنور إلىٰ الشجرة علىٰ دهش من الصياد ودخل الجرذ بعض الأجحار. وجاء الصياد فأخذ حبائله مقطعة، ثم انصرف خائبا.

ثم إن الجرذ خرج بعد ذلك، وكره أن يدنو من السنّور، فناداه السنّور:

أيها الصديق الناصح، ذو البلاء الحسن عندي، ما منعك من الدنوِّ إليّ، لأجازيك بأحسن ما أسديت إليّ، هلمَّ، إليَّ ولا تقطع إخائي: فإنه من اتخذ صديقاً، وقطع إخاءه، وأضاع صداقته، حُرِمَ ثمرة إخائه، وأيس من نفعه الإخوان والأصدقاء. وإن يدك عندي لا تنسىٰ، وأنت حقيقٌ أن تلتمس مكافأة ذلك مني ومن إخواني وأصدقائي. ولا تخافنّ مني شيئاً. واعلم أن ما قبلي لك مبذولٌ. ثم حلف واجتهد علىٰ صدقه فيما قال. فناداه الجرذ: ربَّ صداقة ظاهرة باطنها عداوة كامنة. وهي أشد من العداوة الظاهرة. ومن لم يحترس منها، وقع موقع الرجل الذي يركب ناب الفيل المغتلم، ثم يغلبه النعاس فيستيقظ تحت فراسن[٣٢١] الفيل، فيدوسه ويقتله. وإنما سمي الصديق صديقاً: لما يرجىٰ من نفعه، وسمي العدو عدواً: لما يخاف من ضرره. والعاقل إذا رجا نفع العدو أظهر له الصداقة، وإذا خاف ضرّ الصديق أظهر له العداوة. ألا ترىٰ؟ تتّبع البهائم أمهاتها رجاء ألبانها، فإذا انقطع ذلك انصرفت عنها. وربما قطع الصديق عن صديقه بعض ما كان يصله، فلم يخف شرّه: لأن أصل أمره لم يكن عداوة. فأما من كان أصل أمره عداوة جوهرية، ثم أحدث صداقة لحاجة حملته علىٰ ذلك، فإنه إذا زالت الحاجة التي حملته علىٰ ذلك، زالت صداقته، فتحولت عداوة وصار إلىٰ أصل أمره: كالماء الذي يسخن بالنار، فإذا رفع عنها عاد بارداً. وليس من أعدائي عدوٌّ أضر لي منك. وقد اضطرني وإياك وإلىٰ ما أحدثنا من المصالحة. وقد ذهب الأمر الذي احتجت إليّ واحتجت إليك فيه، وأخاف أن يكون مع ذهابه عود العداوة. ولا خير للضعيف في قرب العدو القوي، ولا للذليل في قرب العدو العزيز. ولا أعلم لك قبلي حاجة إلا أن تريد أكلي، ولا أعلم لي قبلك حاجة، وليس عندي بك ثقة: فإني قد علمت

(٣٢١) جمع فرسن، وهو بمنزلة الحافر أو الخف عند الدواب الأخرىٰ.

أن الضعيف المحترس من العدو القوي، أقرب إلىٰ السلامة من القوي إذا اغتر بالضعيف واسترسل إليه. والعاقل يصالح عدوه إذا اضطر إليه، ويصانعه، ويظهر له ودّه، ويريه من نفسه الاسترسال إليه إذا لم يجد من ذلك بدّا، ثم يعجّل الانصراف عنه، حين يجد إلىٰ ذلك سبيلا. واعلم أن سريع الاسترسال لا تقال عثرته. والعاقل يفي لمن صالحه من أعدائه بما جعل له من نفسه، ولا يثق به كل الثقة، ولا يأمنه علىٰ نفسه مع القرب منه. وينبغي أن يبعد عنه ما استطاع. وأنا أودك من بعيد، وأحب لك من البقاء والسلامة، ما لم أكن أحبه لك من قبل. ولا عليك أن تجازيني علىٰ صنيعي إلا بمثل ذلك: إذ لا سبيل إلىٰ اجتماعنا والسلام.

(انقضىٰ باب الجرذ والسنور)

باب ابن الملك والطائر فنزة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، فاضرب لي مثل أهل التِّرات[٣٢٢] الذين لا بد لبعضهم من اتقاء بعض. قال بيدبا: زعموا أن ملكًا من ملوك الهند كان يقال له بريدون، وكان له طائر يدعىٰ فنزة، وكان له فرخ وكان هذا الطائر وفرخه ينطقان بأحسن منطق، وكان الملك بهما معجبًا، فأمر بهما أن يجعلا عند امرأته، وأمرها بالمحافظة، عليهما. واتفق أن امرأة الملك ولدت غلامًا، فألف الفرخ الغلام. وكلاهما طفلان يلعبان جميعًا، وكان فنزة يذهب إلىٰ الجبل كل يوم فيأتي بفاكهة لا تعرف فيطعم ابن الملك شطرها. ويطعم فرخه شطرها. فأسرع ذلك في نشأتهما، وزاد في شبابهما وبان عليهما أثره عند الملك: فازداد لفنزة إكرامًا وتعظيمًا ومحبة ،حتىٰ إذا كان يوم من الأيام وفنزة غائب في اجتناء الثمرة، وفرخه في حجر الغلام ذرق في حجره، فغضب الغلام وأخذ الفرخ فضرب به الأرض فمات. ثم إن فنزة أقبل فوجد فرخه مقتولاً فصاح وحزن وقال: قبحًا للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء! ويل لمن ابتلىٰ بصحبة الملوك الذين لا حمية لهم ولا حرمة ولا يحبون أحد ولا يكرم عليهم إلا إذا طمعوا فيما عنده من غناء واحتاجوا إلىٰ ما عنده من علم: فيكرمونه لذلك، فإذا ظفروا بحاجتهم منه فلا ود ولا إخاء ولا إحسان ولا غفران ذنب ولا معرفة حق، هم الذين أمرهم مبني علىٰ الرياء والفجور. وهم يستصغرون ما يرتكبونه من عظيم الذنوب ويستعظمون اليسير إذا خولفت فيه أهواؤهم. ومنهم هذا الكفور الذي لا رحمة له، الغادر بأليفه وأخيه. ثم وثب في شدة حنقه علىٰ وجه

(٣٢٢) جمع ترة، وتعني الثأر.

الغلام ففقأ عينه، وطار فوقع علىٰ شرفة المنزل. ثم إنه بلغ الملك ذلك، فجزع أشد الفزع، ثم طمع أن يحتال له فوقف قريباً منه وناداه وقال له: إنك آمن فانزل يا فنزة. فقال له: أيها الملك إن الغادر مأخوذ بغدره وإنه إن أخطأه عاجل العقوبة لم يخطئه الآجل، حتىٰ إنه يدرك الأعقاب وأعقاب الأعقاب، وإن ابنك غدر بابني، فعجلت له العقوبة. قال الملك: لعمري قد غدرنا بابنك، فانتقمت منا: فليس لك قبلنا ولا لنا قبلك وتر مطلوب. فارجع إلينا آمناً. قال فنزة: لست براجع إليك أبداً، فإن ذوي الرأي قد نهوا عن قرب الموتور[٣٢٣] فإنه لا يزيدك لطف الحقود ولينه وتكرمه إياك إلا وحشة منه، وسوء ظن به: فإنك لا تجد للحقود الموتور أماناً هو أوثق لك من الذعر منه ولا أجود من البعد عنه ولأحترس منه أولىٰ. وقد كان يقال: إن العاقل يعد أبويه أصدقاء والأخوة رفقاء والأزواج ألفاء والبنين ذكراً، والبنات خصماء والأقارب غرماء ويعد نفسه فريداً. وأنا الفريد الوحيد الغريب الطريد قد تزودت من عنكم من الحزن عبئاً ثقيلاً لا يحمله معي أحد. وأنا ذاهب. فعليك مني السلام. قال الملك: إنك لو لم تكن اجتزيت[٣٢٤] منا فيما صنعناه بك، بل كان صنيعك بنا من غير ابتداء منا بالغدر كان الأمر كما ذكرت. وأما إذا كنا نحن بدأناك، فما ذنبك؟ وما الذي يمنعك من الثقة بنا؟ هلم فارجع: فإنك آمن. قال فنزة: اعلم أن الأحقاد لها في القلوب مواقع ممكنة موجعة. فالألسن لا تصدق في خبرها عن القلوب، والقلب أعدل شهادة من اللسان علىٰ القلب. وقد علمت أن قلبي لا يشهد للسانك، ولا قلبك للساني. قال الملك: ألم تعلم أن الضغائن والأحقاد تكون بين كثير من الناس: فمن كان ذا عقل كان علىٰ إماتة الحقد أحرص منه علىٰ تربيته. قال فنزة: إن ذلك لكما ذكرت، ولكن ليس ينبغي لذي الرأي

(٣٢٣) الموتور هو الذي قتل له قتيل ولم يتمكن من الثأر له.

(٣٢٤) أخذت منا ما نستحقه من جزاء.

مع ذلك أن يظن أن الموتور الحقود ناس ما وتر به، مصروف عنه فكره فيه. وذو الرأي يتخوف المكر والخديعة والحيل ويعلم أن كثيراً من العدو لا يستطاع بالشدة والمكابرة، حتىٰ يصاد بالرفق والملاينة، كما يصاد الفيل الوحشي بالفيل الداجن. قال الملك: إن العاقل الكريم لا يترك إلفه، ولا يقطع إخوانه ولا يضيع الحفاظ، وإن هو خاف علىٰ نفسه، حتىٰ إن هذا الخلق يكون في أوضع الدواب منزلة: فقد علمت أن اللعابين يلعبون بالكلاب، ثم يذبحونها ويأكلونها. ويرىٰ الكلب الذي قد ألفهم ذلك، فلا يدعوه إلىٰ مفارقتهم، ولا يمنعه من إلفته إياهم. قال فنزة: إن الأحقاد مخوفة حيثما كانت. فأخوفها وأشدها ما كان في أنفس الملوك: فإن الملوك يدينون بالانتقام، ويرون الدرك والطلب بالوتر مكرمة وفخراً. وإن العاقل لا يغتر بسكون الحقد إذا سكن فإنما مثل الحقد في القلب، إذا لم يجد محركاً، مثل الجمر المكنون، ما لم يجد حطباً، فليس ينفك الحقد متطلعاً إلىٰ العلل، كما تبتغي النار الحطب، فإذا وجد علة استعر استعار النار، فلا يطفئه حسن كلام، ولا لين ولا رفق ولا خضوع ولا تضرع ولا مصانعة، ولا شيء دون تلف الأنفس. مع أنه رب واتر يطمع في مراجعة الموتور بما يرجو أن يقدر عليه من النفع له، والدفع عنه. ولكني أنا أضعف عن أن أقدر علىٰ شيء يذهب به ما في نفسك. ولو كانت نفسك منطوية لي علىٰ ما تقول ما كان ذلك عني مغنياً وما أزال في خوف ووحشة وسوء ظن، ما اصطحبنا. فليس الرأي بيني وبينك إلا الفراق. وأنا أقرأ عليك السلام. قال الملك: لقد علمت أنه لا يستطيع أحد لأحد ضراً ولا نفعاً، وأنه لا شيء من الأشياء صغيرا ولا كبيراً يصيب أحداً إلا بقضاء وقدر معلوم. وكما أن خلق ما يخلق، وولادة ما يولد، وبقاء ما يبقىٰ ليس إلىٰ الخلائق منه شيء، كذلك فناء ما يفنىٰ وهلاك ما يهلك. وليس

لك في الذي صنعت بابني ذنب، ولا لا بني فيما صنع لابنك ذنب. إنما كان ذلك كله قدراً مقدوراً، وكلانا له علة: فلا نوأخذ بما أتانا به القدر. قال فنزة: إن القدر لكما ذكرت، لكن لا يمنع ذلك الحازم من توقىٰ المخاوف، والاحتراس من المكاره. ولكنه يجمع تصديقاً بالقدر وأخذاً بالحزم والقوة. وأنا أعلم أنك تكلمني بغير ما في نفسك. والأمر بيني وبينك غير صغير: لأن ابنك قتل ابني، وأنا فقأت عين ابنك، وأنت تريد أن تشتفي بقتلي، وتخلني عن نفسي، والنفس تأبىٰ الموت. وقد كان يقال: الفاقة بلاء والحزن بلاء وقرب العدو بلاء وفراق الأحبة بلاء والسقم بلاء والهرم بلاء، ورأس البلايا كلها الموت. وليس أحد بأعلم بما في نفس الموجع الحزين ممن ذاق مثل ما به. فأنا بما في نفسي عالم بما نفسك: للمثل الذي عندي من ذلك. ولا خير لي في صحبتك: فإنك لن تتذكر صنيعي بابنك، ولن أتذكر صنيع ابنك بابني، إلا أحدث ذلك لقلوبنا تغييراً. قال الملك: لا خير فيمن لا يستطيع الإعراض عما في نفسه، وينساه ويهمله، حتىٰ لا يذكر منه شيئاً، ولا يكون له في نفسه موقع. قال فنزة: إن الرجل الذي في باطن قدمه قرحة، إن هو حرص علىٰ المشي فلا بد أنه لا يزال يشتكي قرحته، والرجل الأرمد العين إذا استقبل بها الريح، تعرض لأن تزداد رمداً. وكذلك الواتر إذا دنا من الموتور، فقد عرض نفسه للهلاك. ولا ينبغي لصاحب الدنيا إلا توقي المهالك والمتالف، وتقدير الأمور وقلة الاتكال علىٰ الحول والقوة، وقلة الاغترار بمن لا يأمن: فإنه من اتكل علىٰ قوته، فحمله ذلك علىٰ أن يسلك الطريق المخوف، فقد سعىٰ في حتف نفسه. ومن لا يقدر لطاقته طعامه وشرابه وحمل نفسه ما لا تطيق ولا تحمل فقد قتل نفسه. ومن لا يقدر لقمته، وعظمها فوق ما يسع فوه، فربما غص بها فمات. ومن اغتر بكلام عدوه، وانخدع له وضيع الحزم، فهو أعدىٰ الحزم لنفسه من عدوه. وليس لأحد النظر في

القدر الذي لا يدري ما يأتيه منه ولا ما يصرف عنه، ولكن عليه العمل بالحزم والأخذ بالقوة ومحاسبة نفسه في ذلك. والعاقل لا يثق بأحد ما استطاع، ولا يقيم علىٰ خوف وهو يجد عنه مذهباً. وأنا كثير المذاهب وأرجو ألا أذهب وجهاً إلا أصبت فيه ما يغنيني: فإن خلالاً خمساً من تزودهن كفينه في كل وجه، وآنسنه في غربة، وقربن له البعيد، وأكسبنه المعاش الإخوان: أولهن كف الأذىٰ، والثانية حسن الأدب، والثالثة مجانبة الريب، والرابعة كرم الخلق، والخامسة النبل في العمل. وإذا خاف الإنسان علىٰ نفسه شيئاً طابت نفسه عن المال والأهل والولد والوطن: فإنه يرجو الخلف من ذلك كله ولا يرجو عن النفس خلفاً. وشر المال ما لا إنفاق منه، وشر الأزواج التي لا تواتي بعلها، وشر الولد العاصي العاق لوالديه، وشر الإخوان الخاذل لأخيه عند النكبات والشدائد، وشر الملوك الذي يخافه البريء، ولا يواظب علىٰ حفظ أهل مملكته، وشر البلاد بلاد بلا خصب فيها ولا أمن، وإنه لا أمن لي عندك أيها الملك ولا طمأنينة لي في جوارك. وثم ودع الملك وطار. فهذا مثل ذوي الأوتار الذين لا ينبغي لبعضهم أن يثق ببعض.

(انقضىٰ باب ابن الملك والطائر)

باب الأسد والشغبر الناسك وهو ابن آوى

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مثل الملك الذي يراجع من أصابته منه عقوبة من غير جرم أو جفوة من غير ذنب. قال الفيلسوف: إن الملك لو لم يراجع من أصابته منه جفوة عن ذنب أو عن غير ذنب، ظلم أولم يظلم لأضر ذلك بالأمور، ولكن الملك حقيق بأن ينظر في حال من ابتلىٰ بذلك، ويخبر ما عنده من المنافع، فإن كان ممن يوثق به في رأيه وأمانته، فإن الملك حقيق بالحرص علىٰ مراجعته: فإن الملك لا يستطاع ضبطه إلا مع ذوي الرأي، وهم الوزراء والأعوان، ولا ينتفع بالوزراء والأعوان إلا بالمودة والنصيحة، ولا مودة ولا نصيحة إلا لذوي الرأي والعفاف. وأعمال السلطان كثيرة، والذين يحتاج إليهم من العمال والأعوان كثيرون. ومن يجمع منهم ما ذكرت من النصيحة والعفاف قليل. والمثل في ذلك مثل الأسد وابن آوىٰ. قال الملك: وكيف كان ذلك

قال الفيلسوف: زعموا أن ابن آوىٰ كان يسكن في بعض الدحال[٣٢٥] وكان متزهداً متعففاً، مع بنات آوىٰ وذئاب وثعالب ولم يكن يصنع ما يصنعن، ولا يغير كما يغرن، ولا يهريق دماً ولا يأكل لحماً. فخاصمه تلك السباع، وقلن لا نرضىٰ بسيرتك ولا رأيك الذي أنت عليه من تزهدك: مع أن تزهدك لا يغني عنك شيئاً. وأنت لا تستطيع أن تكون إلا كأحدنا: تسعىٰ معنا، وتفعل فعلنا فما الذي كفك عن الدماء وعن أكل اللحم؟ قال ابن آوىٰ: إن صحبتي إياكن لا تؤثمني إذا لم أؤثم نفسي: لأن الآثام ليست من قبل الأماكن والأصحاب، ولكنها من قبل

(٣٢٥) الفجوة التي تكون في الجبل او الأرض، والتي يكون مدخلها ضيقا لكنها واسعة التجويف الداخلي.

القلوب والأعمال. ولو كان صاحب المكان الصالح يكون عمله فيه صالحـًا، وصاحب المكان السيئ يكون عمله فيه سيئـًا، كان حينئذ من قتل الناسك في محرابه لم يأثم، ومن استحياه في معركة القتال أثم. وإني إنما صحبتكن بنفسي، ولم أصحبكن بقلبي وأعمالي: لأني أعرف ثمرة الأعمال: فلزمت حالي: وثبت ابن آوىٰ علىٰ حاله تلك، واشتهر بالنسك والتزهد حتىٰ بلغ ذلك أسداً كان ملك تلك الناحية فرغب فيه: لما بلغه عنه من العفاف والنزاهة والزهد والأمانة، فأرسل إليه يستدعيه. فلما حضر كلمه وآنسه فوجده في جميع الأمور وفق غرضه. ثم دعاه بعد أيام إلىٰ صحبته وقال له: تعلم أن عمالي كثير وأعواني جم غفير وأنا مع ذلك إلىٰ الأعوان محتاج. وقد بلغني عنك عفاف وأدب وعقل ودين فازددت فيك رغبة. وأنا موليك من عملي جسيمـًا ورافعك إلىٰ منزلة شريفة وجاعلك من خاصتي. قال ابن آوىٰ: إن الملوك أحقاء باختيار الأعوان فيما يهتمون به من أعمالهم وأمورهم. وهم أحرىٰ ألا يكرهوا علىٰ ذلك أحدا: فإن المكره لا يستطيع المبالغة في العمل. وإني لعمل السلطان كاره. وليس لي به تجربة ولا بالسلطان رفق. وأنت ملك السباع وعندك من أجناس الوحوش عدد كثير، فيهم أهل نبل وقوة ولهم علىٰ العمل حرص وعندهم به وبالسلطان رفق: فإن استعملتهم أغنوا عنك واغتبطوا لأنفسهم بما أصابهم من ذلك. قال الأسد: دع عنك هذا: فإني غير معفيك من العمل. قال ابن آوىٰ: إنما يستطيع خدمة السلطان رجلان لست بواحد منهما: إما فاجر مصانع ينال حاجته بفجوره ويسلم بمصانعته، وأو مغفل لا يحسده أحد. فمن أراد أن يخدم السلطان بالصدق والعفاف فلا يخلط ذلك بمصانعته وحينئذ قل أن يسلم علىٰ ذلك: لأنه يجتمع عليه عدو السلطان وصديقه بالعداوة والحسد. أما الصديق فينافسه في منزلته ويبغىٰ عليه فيها ويعاديه لأجلها وأما عدو

السلطان فيضطغن عليه لنصيحته لسلطانه وإغنائه عنه. فإذا اجتمع عليه هذان الصنفان فقد تعرض للهلاك. قال الأسد: لا يكونن بغي أصحابي عليك وحسدهم إياك مما يعرض في نفسك: فأنت معي وأنا أكفيك ذلك وأبلغ بك من درجات الكرامة والإحسان علىٰ قدر همتك. . قال ابن آوىٰ: إن كان الملك يريد الإحسان إلي فليدعني في هذه البرية أعيش آمناً قليل الهم راضياً بعيشي من الماء والعشب، فإني قد علمت أن صاحب السلطان يصل إليه من الأذىٰ والخوف في ساعة واحدة ما لا يصل إلىٰ غيره في طول عمره، وإن قليلاً من العيش في آمن وطمأنينة خير من كثير من العيش في خوف ونصب. قال الأسد: قد سمعت مقالتك، فلا تخف شيئاً مما أراك تخاف منه. ولست أجد بدا من الاستعانة بك في أمري. قال ابن آوىٰ : أما إذا أبىٰ الملك إلا ذلك فليعجل لي عهداً إن بغىٰ علىٰ أحد من أصحابه عنده، ممن هو فوقي: مخافة علىٰ منزلته، أو ممن هو دون: لينازعني في منزلتي فذكر عند الملك منهم ذاكر بلسانه، أو علىٰ لسان غيره ما يريد به تحميل الملك علىٰ ألا يعجل في أمري، وأن يتثبت فيما يرفع إليه ويذكر عنده من ذلك، ويفحص عنه ثم ليصنع ما بدا له. فإذا وثقت منه بذلك أعنته بنفسي فيما يحب، وعملت له فيما أولاني بنصيحة واجتهاد وحرصت علىٰ ألا أجعل له علىٰ نفسي سبيلاً. قال الأسد: لك ذلك علىٰ وزيادة. ثم ولاه خزائنه واختص به دون أصحابه وزاد في كرامته.

فلما رأىٰ أصحاب الأسد ذلك غاظهم وساءهم فأجمعوا كيدهم، واتفقوا كلهم علىٰ أن يحملوا عليه الأسد، وكان الأسد قد استطاب لحماً فعزل منه مقداراً، وأمره بالاحتفاظ به، وأن يرفعه في أحصن موضع طعامه وأحرزه، ليعاد عليه، فأخذوه من موضعه وحملوه إلىٰ بيت ابن آوىٰ، فخبأوه فيه، ولا علم له به، ثم حضروا يكذبونه إن جرت في ذلك حال.

فلما كان من الغد ودعا الأسد بغدائه، فقد ذلك اللحم، فالتمسه ولم يجده، وابن آوىٰ لم يشعر بما صنع في حقه من المكيدة. فحضر الذين عملوا المكيدة، وقعدوا في المجلس. ثم إن الملك سأل عن اللحم، وشدد فيه، وفي المسألة عنه، فنظر بعضهم إلىٰ بعض، فقال أحدهم قول المخبر الناصح: إنه لا بد لنا من أن نخبر الملك بما يضره وينفعه، وإن شق ذلك علىٰ من يشق عليه. وإنه بلغني أن ابن آوىٰ هو الذي ذهب باللحم إلىٰ منزله. قال الآخر: لا أراه يفعل هذا، ولكن انظروا وافحصوا فإن معرفة الخلائق شديدة. فقال الآخر: لعمري ما تكاد السرائر تعرف، وأظنكم إن فحصتم عن هذا وجدتم اللحم ببيت ابن آوىٰ، وكل شيء يذكر من عيوبه وخيانته نحن أحق أن نصدقه. قال الآخر: لئن وجدنا هذا حقا فليست بالخيانة فقط، ولكن مع الخيانة كفر النعمة، والجراءة علىٰ الملك. قال الآخر: أنتم أهل العدل والفضل، لا أستطيع أن أكذبكم، ولكن سيبين هذا لو أرسل الملك الىٰ بيته من يفتشه. قال الآخر: إن كان الملك مفتشاً منزله فليعجل: فإن عيونه وجواسيسه مبثوثة بكل مكان. ولم يزالوا في الكلام و أشباهه، حتىٰ وقع في نفس الأسد ذلك، فأمر بابن آوىٰ فحضر فقال له: أين اللحم الذي أمرتك بالاحتفاظ به، قال: دفعته إلىٰ صاحب الطعام ليقربه إلىٰ الملك. فدعا الأسد بصاحب الطعام، وكان ممن شايع وبايع مع القوم علىٰ ابن آوىٰ. فقال: ما دفع إلىٰ شيئاً. فأرسل الأسد أميناً إلىٰ بيت ابن آوىٰ ليفتشه، فوجد فيه ذلك اللحم، فأتىٰ به الأسد. فدنا من الأسد ذئب لم يكن تكلم في شيء من ذلك. وكان يظهر أنه من العدول الذين لا يتكلمون فيما لا يعلمون، حتىٰ يتبين لهم الحق. فقال: بعد أن اطلع الملك علىٰ خيانة ابن آوىٰ فلا يعفونَّ عنه: فإنه إن عفا عنه لم يطلع الملك بعدها علىٰ خيانة خائن، ولا ذنب مذنب. فأمر الأسد بابن آوىٰ أن يخرج، ويحتفظ به. فقال بعض جلساء الملك: إني

لأعجب من رأي الملك ومعرفته بالأمور كيف يخفىٰ عليه أمر هذا، ولم يعرف خبثه ومخادعته؟ وأعجب من هذا أني أراه سيصفح عنه، بعد الذي ظهر منه. فأرسل الأسد بعضهم رسولاً إلىٰ ابن آوىٰ يلتمس منه العذر، فرجع إليه الرسول برسالة كاذبة اخترعها فغضب الأسد من ذلك وأمر بابن آوىٰ أن يقتل. فعلمت أم الأسد أنه قد عجّل في أمره، فأرسلت إلىٰ الذين أمروا بقتله أن يؤخروه، ودخلت علىٰ ابنها، فقالت: يا بني بأي ذنب أمرت بقتل ابن آوىٰ؟ فأخبرها بالأمر. فقالت: يا بنيّ عجّلت. وإنما يسلم العاقل من الندامة بترك العجلة وبالتثبت. والعجلة لا يزال صاحبها يجتني ثمرة الندامة، بسبب ضعف الرأي. وليس أحد أحوج إلىٰ التُّؤدة والتثبت من الملوك: فإن المرأة بزوجها، والولد بوالديه، والمتعلم بالمعلم والجند بالقائد، والناسك بالدين، والعامة بالملوك، والملوك بالتقوىٰ، والتقوىٰ بالعمل، والعقل بالتثبت والأناة، ورأس الكل الحزم، ورأس الحزم للملك معرفة أصحابه، وإنزالهم منازلهم علىٰ طبقاتهم، واتهامه بعضهم علىٰ بعض. فإنه لو وجد بعضهم إلىٰ هلاك بعض سبيلاً لفعل. وقد جربت ابن آوىٰ، وبلوت رأيه وأمانته ومروءته، ثم لم تزل مادحاً له راضياً عنه. وليس ينبغي للملك أن يخوّنه بعد ارتضائه إياه وائتمانه له، ومنذ مجيئه إلىٰ الآن لم يطلع له علىٰ خيانة إلا علىٰ العفة والنصيحة. وما كان رأي الملك أن يعجل عليه لأجل طابق لحم. وأنت أيها الملك حقيق أن تنظر في حال ابن آوىٰ: لتعلم أنه لم يكن ليتعرّض للحم استودعته إياه. ولعل الملك إن فحص عن ذلك ظهر له أن ابن آوىٰ له خصماء هم الذين أتمروا بهذا الأمر. وهم الذين ذهبوا باللحم إلىٰ بيته فوضعوه فيه: فإن الحدأة إذا كان في رجلها قطعة لحم اجتمع عليها سائر الطير، والكلب إذا كان معه عظم اجتمع عليه الكلاب. وابن آوىٰ منذ كان إلىٰ اليوم نافع، وكان محتملا لكل ضرر في جنب منفعة

تصل إليك، ولكل عناء يكون لك فيه راحة، ولم يطوَ دونك سراً.

فبينما أم الأسد تقص عليه هذه المقالة، إذ دخل على الأسد بعض ثقاته، فأخبره ببراءة ابن آوى. فقالت أم الأسد، بعد أن اطلع الملك على براءة ابن آوى: إن الملك حقيق ألا يرخّص لمن سعى به لئلا يتجرأوا إلى ما هو أعظم من ذلك بل يعاقبهم عليه لكي لا يعودوا إلى مثله: فإنه لا ينبغي للعاقل أن يراجع في أمر الكفور للحسنى، الجريء على الغدر، الزاهد في الخير الذي لا يوقن بالآخرة. وينبغي أن يجزى بعمله، وقد عرفت سرعة الغضب وفرط الهفوة، ومن سخط باليسير لم يبلغ رضاه بالكثير. والأولى لك أن تراجع ابن آوى، وتعطف عليه، ولا ييأسنك من مناصحته ما فرط منك إليه من الإساءة: فإن من الناس من لا ينبغي تركه على حال من الأحوال، وهو من عرف بالصلاح والكرم وحسن العهد والشكر والوفاء والمحبة للناس والسلامة من الحسد والبعد من الأذى والاحتمال للإخوان والأصحاب وإن ثقلت عليه منه المئونة. وأما من ينبغي تركه فهو من عرف بالشراسة ولؤم العهد وقلة الشكر والوفاء والبعد من الرحمة والورع، واتصف بالجحود لثواب الآخرة وعقابها. وقد عرفت ابن آوى وجربته وأنت حقيق بمواصلته.

فدعى الأسد بابن آوى واعتذر إليه مما كان منه ووعده خيراً، وقال: إني معتذر إليك ورادّك إلى منزلتك. فقال ابن آوى: إن شر الأخلاء من التمس منعة نفسه بضر أخيه، ومن كان غير ناظر له كنظره لنفسه، أو كان يريد أن يرضيه بغير الحق لأجل اتباع هواه. وكثيراً ما يقع ذلك بين الأخلاء. وقد كان من الملك إلى ما علم فلا يغلظن على نفسه ما أخبره به إني به غير واثق، وإنه لا ينبغي لي أن أصحبه: فإن الملوك لا ينبغي أن يصحبوا من عاقبوه أشد العقاب، ولا ينبغي لهم أن يرفضوه أصلا: فإن ذا السلطان إذا عزل كان مستحقا للكرامة في حالة إبعاده والإقصاء له. فلم

يلتفت الأسد إلىٰ كلامه. ثم قال له: إني قد بلوت طباعك وأخلاقك، وجربت أمانتك ووفاءك وصدقك، وعرفت كذب من تمحّل الحيلة لتحملي عليك. وإني منزلك من نفسي منزلة الأخيار الكرماء، والكريم تنسيه الخلة الواحدة من الإحسان، الخلال الكثيرة من الإساءة. وقد عدنا إلىٰ الثقة بك، فعد إلىٰ الثقة بنا: فإن لنا ولك بذلك غبطة وسروراً. فعاد ابن آوىٰ إلىٰ ولاية ما كان يلي، وضاعف له الملك الكرامة، ولم تزده الأيام إلا تقربا من السلطان.

(انقضىٰ باب الأسد والشغبر الناسك)

باب إيلاذ وبلاذ وايراخت

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، فاضرب لي مثلاً في الأشياء التي يجب علىٰ الملك أن يلزم بها نفسه، ويحفظ ملكه ويثبت سلطانه، ويكون ذلك رأس أمره وملاكه: أبالحلم أم بالمروءة أم بالشجاعة أم بالجود؟ قال بيدبا: إن أحق ما يحفظ به الملك ملكه الحلم، وبه تثبت السلطنة، والحلم رأس الأمور وملاكها، وأجود ما كان في الملوك: كالذي زعموا من أنه كان ملك يدعىٰ بلاذ، وكان له وزير يدعىٰ إيلاذ. وكان متعبداً ناسكًا. فنام الملك ذات ليلة، فرأىٰ في منامه ثمانية أحلام أفزعته، فاستيقظ مرعوبا. فدعا البراهمة، وهم النسّاك ليعبروا رؤياه. فلما حضروا بين يديه قص عليهم ما رأىٰ. فقالوا بأجمعهم: لقد رأىٰ الملك عجبًا فإن أمهلتنا سبعة أيام جئناه بتأويله. قال الملك: قد أمهلتكم فخرجوا من عنده ثم اجتمعوا في منزل أحدهم وأتمروا بينهم. وقالوا: قد وجدتم علمًا واسعًا تدركون به ثأركم وتنقمون به من عدوكم، وقد علمتم أنه قتل منا بالأمس اثنىٰ عشر ألفا. وها هو قد أطلعنا علىٰ سره وسألناه تفسير رؤياه: فهلم نغلظ له القول ونخوفه حتىٰ يحمله الفرق والجزع علىٰ أن يفعل الذي نريد ونأمر. فنقول: ادفع إلينا أحباءك ومن يكرم عليك حتىٰ نقتلهم: فإن قد نظرنا في كتابنا فلم نر أن يدفع عنك ما رأيت لنفسك وما وقعت فيه من هذا للشر إلا بقتل من نسمي لك فإن قال الملك: وما تريدون أن تقتلوا؟ سموهم لي. قلنا نريد الملكة ايراخت أم جوير المحمودة أكرم نسائك عليك. ونريد جوير أحب بنيك إليك وأفضلهم عندك. ونريد ابن أخيك الكريم، وإيلاذ خليلك وصاحب أمرك. ونريد كالا الكاتب

صاحب سرك وسيفك الذي لا يوجد مثله والفيل الأبيض الذي لا تلحقه الخيل والفرس الذي هو مركبك في القتال. ونريد الفيلين الآخرين العظيمين الذين يكونان مع الفيل الذكر. ونريد البختي السريع القوي. ونريد كباريون الحكيم الفاضل العالم بالأمور لننتقم منه بما فعل بنا. ثم نقول: إنما ينبغي لك أيها الملك أن تقتل هؤلاء الذين سميناهم لك، ثم تجعل دماءهم في حوض تملؤه، ثم تقعد فيه. فإذا خرجت من الحوض اجتمعنا نحن معاشر البراهمة من الآفاق الأربعة نجول حولك فنرقيك ونتفل عليك ونمسح عنك الدم ونغسلك بالماء والدهن الطيب. ثم تقوم إلىٰ منزلك البهيّ فيدفع الله بذلك البلاء الذي نتخوفه عليك. فإن صبرت، أيها الملك، وطابت نفسك عن أحبائك الذين ذكرنا لك، وجعلتهم فداءك، تخلصت من البلاء، واستقام لك ملكك وسلطانك، واستخلفت من بعدهم من أحببت. وإن أنت لم تفعل تخوّفنا عليك أن يغصب ملكك أو تهلك. فإن هو أطاعنا فيما نأمره قتلناه أي قتلة شئنا. فلما أجمعوا علىٰ ما أتمروا به رجعوا إليه في اليوم السابع. وقالوا له: أيها الملك، إنّا نظرنا في كتبنا في تفسير ما رأيت، وفحصنا عن الرأي فيما بيننا. فلتكن لك أيها الملك الطاهر الصالح الكرامة. ولسنا نقدر أن نعلمك بما رأينا إلا أن تخلو بنا. فأخرج الملك من كان عنده وخلا بهم. فحدثوا بالذي ائتمروا به. فقال لهم: الموت خير لي من الحياة إن أنا قتلت هؤلاء الذين هم عديل نفسي. وأنا ميت لا محالة، والحياة قصيرة، ولست كل الدهر ملكا، وإن الموت عندي وفراق الأحباء سواء. فقال له البراهمة: إن أنت لم تغضب أخبرناك. فأذن لهم.

فقالوا: أيها الملك إنك لم تقل صوابا حين تجعل نفس غيرك أعز عندك من نفسك. فاحتفظ بنفسك وملكك. واعمل هذا الذي لك فيه الرجاء العظيم علىٰ ثقة ويقين. وقرّ عينا بملكك في وجوه أهل مملكتك

الذين شرفت وكرمت بهم. ولا تدع الأمر العظيم وتأخذ بالضعيف فتهلك نفسك إيثاراً لمن تحب. واعلم أيها الملك أن الإنسان إنما يحب الحياة محبة لنفسه. وأنه لا يحب من أحب من الأحباء إلا ليتمتع بهم في حياته. وإنما قوام نفسك بعد الله تعالىٰ بملكك. وإنك لم تنل ملكك إلا بالمشقة والعناء الكثير في الشهور والسنين. وليس ينبغي أن ترفضه ويهون عليك. فاستمع كلامنا. فانظر لنفسك مناها، ودع ما سواها: فإنه لا خطر له. فلما رأىٰ الملك أن البراهمة قد أغلظوا له في القول واجترأوا عليه في الكلام اشتد غمّه وحزنه. وقام من بين ظهرانيهم ودخل إلىٰ حجرته فخرّ علىٰ وجهه يبكي ويتقلب كما تتقلب السمكة إذا خرجت من الماء، وجعل يقول في نفسه: ما أدري أي الأمرين أعظم في نفسي؟ المملكة أم قتل أحبائي؟ ولن أنال الفرح ما عشت. وليس ملكي بباق عليّ إلىٰ الأبد. ولست بالمصيب سؤلي في ملكي. وإني لزاهد في الحياة إذا لم أرَ إيراخت. وكيف أقدر علىٰ القيام بملكي إذا هلك وزيري إيلاذ؟ وكيف أضبط أمري إذا هلك فيلي الأبيض وفرسي الجواد؟ وكيف أدعىٰ ملكًا وقد قتلت من أشار البراهمة بقتله؟ وما أصنع بالدنيا بعدهم؟ ثم إن الحديث فشا في الأرض بحزن الملك وهمّه. فلما رأىٰ إيلاذ ما نال الملك من الهم والحزن فكّر بحكمته ونظر وقال: ما ينبغي لي أن أستقبل الملك فأسأله عن هذا الأمر الذي قد ناله من غير أن يدعوني. ثم انطلق إلىٰ إيراخت فقال: إني منذ خدمت الملك إلىٰ الآن، لم يعمل عملاً إلا بمشورتي ورأيي. وأراه يكتم عني أمراً لا أعلم ما هو. ولا أراه يظهر منه شيئًا. وإني رأيته خاليًا مع الجماعة البرهميين منذ ليال. وقد احتجب عنّا فيها. وأنا خائف أن يكون قد أطلعهم علىٰ شيء من أسراره. فلست آمنهم أن يشيروا عليه بما يضره ويدخل عليه منه السوء. فقومي وادخلي عليه فاسأليه عن أمره وشأنه. واخبريني بما هو عليه وأعلميني:

فإني لست أقدر علىٰ الدخول عليه. فلعلّ البرهميين قد زينوا له أمراً أو حملوه علىٰ خطة قبيحة. وقد علمت أن من خُلُقِ الملك أنه إذا غضب لا يسأل أحداً. وسواء عنده صغير الأمور وكبيرها. فقالت إيراخت: إنه كان بيني وبين الملك بعض العتاب فلست بداخلة عليه بهذه الحال. فقال لها إيلاذ: لا تحملي عليه الحقد في مثل هذا. ولا يخطرنّ ذلك علىٰ بالك فليس يقدر علىٰ الدخول عليه أحد سواك.

وقد سمعته كثيراً يقول: ما أشتد غمّي ودخلت عليّ إيراخت إلا سرّىٰ عني، فقومي إليه واصفحي عنه. وكلميه بما تعلمين أنه تطيب به نفسه ويذهب الذي يجده. وأعلميني بما يكون جوابه: فإنه لنا ولأهل المملكة أعظم الراحة. فانطلقت إيراخت فدخلت علىٰ الملك فجلست عند رأسه. فقالت: ما الذي بك أيها الملك المحمود؟ وما الذي سمعت من البراهمة؟ فإني أراك محزوناً. فأعلمني ما بك، فقد ينبغي لنا أن نحزن معك ونواسيك بأنفسنا. فقال الملك: أيتها السيدة لا تسأليني عن أمري فتزيديني غمّاً وحزناً: فإنه أمر لا ينبغي أن تسأليني عنه. قالت: أو قد نزلت عندك منزلة من يستحق هذا؟ إنما أحمد الناس عقلاً من إذا نزلت به النازلة كان لنفسه أشد ضبطاً، وأكثرهم استماعاً من أهل النصح حتىٰ ينجو من تلك النازلة بالحيلة والعقل والبحث والمشاورة. فعظيم الذنب لا يقنط من الرحمة. ولا تدخلّن عليك شيئاً من الهم والحزن. فإنهما لا يردان شيئاً مقضياً. إلا أنهما ينحلان الجسم ويشفيان العدو. قال لها الملك: لا تسأليني عن شيء فقد شققت عليّ. والذي تسألينني عنه لا خير فيه: لأن عاقبته هلاكي وهلاكك وهلاك كثير من أهل مملكتي ومن هو عديل نفسي. وذاك أن البراهمة زعموا أنه لا بد من قتلك وقتل كثير من أهل مودتي. ولا خير في العيش بعدكم. وهل أحد يسمع بهذا إلا اعتراه الحزن؟.

فلما سمعت ذلك إيراخت جزعت. ومنعها عقلها أن تظهر للملك جزعاً. فقالت: أيها الملك لا تجزع فنحن لك الفداء. ولك في سواي ومثلي من الجواري ما تقر به عينك. ولكني أطلب منك، أيها الملك، حاجة يحملني علىٰ طلبها حبي لك وإيثاري إياك. وهي نصيحتي لك. قال الملك: وما هي؟ قالت: أطلب منك أن لا تثق بعدها بأحد من البراهمة. ولا تشاورهم في أمر حتىٰ تتثبت في أمرك. ثم تشاور فيه ثقاتك مراراً: فإن القتل أمر عظيم، ولست تقدر علىٰ أن تحيي من قتلت. وقد قيل في الحديث: إذا لقيت جوهراً لا خير فيه فلا تلقيه من يدك حتىٰ تريه من يعرفه. وأنت أيها الملك لا تعرف أعداءك. واعلم أن البراهمة لا يحبونك. وقد قتلت منهم بالأمس اثني عشر ألفا. ولا تظن أن هؤلاء ليسوا من أولئك. ولعمري ما كنت جديراً أن تخبرهم برؤياك، ولا أن تطلعهم عليها. وإنما قالوا لك ما قالوا لأجل الحقد الذي بينك وبينهم: لعلهم يهلكونك ويهلكون أحباءك ووزيرك، فيبلغوا قصدهم منك. فأظنك لو قبلت منهم فقتلت من أشاروا بقتله ظفروا بك وغلبوك علىٰ ملكك، فيعود الملك إليهم كما كان. فانطلق إلىٰ كباريون الحكيم، فهو عالم فطن فاخبره عمّا رأيت في رؤياك واسأله عن وجهها وتأويلها. فلما سمع الملك ذلك سرّىٰ عنه وما كان يجده من الغم. فأمر بفرسه فأسرج فركبه ثم انطلق إلىٰ كباريون الحكيم. فلما انتهىٰ إليه نزل عن فرسه وسجد له، وقام مطأطئا الرأس بين يديه. فقال له الحكيم: ما بالك أيها الملك؟ وما لي أراك متغير اللون؟ فقال له الملك: إني رأيت في المنام ثمانية أحلام فقصصتها علىٰ البراهمة. وأنا خائف أن يصيبني من ذلك عظيم أمر مما سمعت من تعبيرهم لرؤياي. وأخشىٰ أن يغصب مني ملكي أو أن أغلب عليه. فقال له الحكيم: إن شئت فاقصص رؤياك عليّ. فلما قص عليه الملك رؤياه. قال: لا يحزنك أيها الملك هذا

الأمر ولا تخف منه، أما السمكتان الحمراوان اللتان رأيتهما قائمتين علىٰ أذنابهما فإنه يأتيك رسول من ملك نهاوند بعلبة فيها عقدان من الدر والياقوت الأحمر، قيمتهما أربعة آلاف رطل من ذهبٍ فيقوم بين يديك. وأما الوزتان اللتان رأيتهما طارتا من وراء ظهرك فوقعتا بين يديك: فإنه يأتيك من ملك بلخ فرسان ليس علىٰ الأرض مثلهما فيقومان بين يديك. وأما الحية التي رأيتها تدب علىٰ رجلك اليسرىٰ: فإنه يأتيك من ملك صنجين من يقوم بين يديك بسيف خالص الحديد لا يوجد مثله. وأما الدم الذي رأيت كأنه خضب به جسدك: فإنه يأتيك من ملك كازرون من يقوم بين يديك بلباس معجب يسمىٰ حلّة أرجوان يضيء في الظلمة. وأما ما رأيت من غسلك جسمك بالماء: فإنه يأتيك من ملك رهزين من يقوم بين يديك بثياب كتان من لباس الملوك. وأما ما رأيت من أنك علىٰ جبل أبيض: فإنه يأتيك من ملك كيدور من يقوم بين يديك بفيل أبيض لا تلحقه الخيل. وأما ما رأيت علىٰ رأسك شبيهاً بالنار: فإنه يأتيك من ملك أرزن من يقوم بين يديك بإكليل من ذهب مكلل بالدر والياقوت. وأما الطير الذي رأيته ضرب رأسك بمنقاره: فلست مفسراً ذلك اليوم. وليس بضارك، فلا توجلن منه. ولكن فيه بعض السخط والإعراض عمّن تحبه: فهذا تفسيره رؤياك أيها الملك، وأما هذه الرسل والبرد فإنهم يأتونك بعد سبعة أيامٍ جميعاً فيقومون بين يديك. فلما سمع الملك ذلك سجد لكباريون ورجع إلىٰ منزله.

فلما كان بعد سبعة أيام جاءت البشائر بقدوم الرسل فخرج الملك فجلس علىٰ التخت، وأذن للأشراف، وجاءته الهدايا كما اخبره كباريون الحكيم. فلما رأىٰ الملك ذلك اشتد عجبه وفرحه من علم كباريون. وقال: ما وفقت حين قصصت رؤياي علىٰ البراهمة فأمروني بما أمروني به. ولولا أن الله تعالىٰ تداركني برحمته لكنت قد هلكت وأهلكت؛

وكذلك لا ينبغي لكل أحد أن يسمع إلا من الأخلاء ذوي العقول. وإن إيراخت أشارت بالخير فقلبته. ورأيت به النجاح. فضعوا الهدية بين يديها لتأخذ منها ما اختارت. ثم قال لإيلاذ: خذ الإكليل واحملها واتبعني بها إلىٰ مجلس النساء. ثم إن الملك دعا إيراخت وحورقناه أكرم نسائه بين يديه. فقال لإيلاذ: ضع الكسوة والإكليل بين يدي إيراخت لتأخذ أيها شاءت. فوضعت الهدايا بين يدي إيراخت. فأخذت منها الإكليل، وأخذت حورقناه كسوة من أفخر الثياب وأحسنها. وكان من عادة الملك أن يكون ليلة عند إيراخت وليلة عند حورقناه. وكان من سنة الملك أن تهيء له المرأة التي يكون عندها في ليلتها أرزاً بحلاوة فتطعمه إياه. فأتىٰ الملك إيراخت في نوبتها. وقد صنعت له أرزاً. فدخلت عليه بالصّحفة والإكليل علىٰ رأسها. فعلمت حورقناه بذلك فغارت من إيراخت. فلبست تلك الكسوة. ومرت بين يدي الملك وتلك الثياب تضيء عليها مع نور وجهها كما تضيء الشمس. فلما رآها الملك أعجبته. ثم التفت إلىٰ إيراخت فقال: إنك جاهلة حين أخذت الإكليل وتركت الكسوة إلي ليس في خزائننا مثلها. فلما سمعت إيراخت مدح الملك لحورقناه وثناءه عليها وتجهيلها هي وذمّ رأيها أخذها من ذلك الغيرة والغيظ. فضربت بالصحفة رأس الملك. فسال الأرز علىٰ وجهه. فقام الملك من مكانه ودعا بإيلاذ. فقال له: ألا ترىٰ، وأنا ملك العالم، كيف حقرتني هذه الجاهلة، وفعلت بي ما ترىٰ؟ فانطلق بها فاقتلها ولا ترحمها. فخرج إيلاذ من عند الملك وقال: لا أقتلها حتىٰ يسكن عنه الغضب. فالمرأة عاقلة سديدة الرأي من الملكات إلي ليس لها عديل في النساء. وليس الملك بصابر عنها. وقد خلصته من الموت، وعملت أعمالا صالحة. ورجاؤنا فيها عظيم. ولست آمنة أن يقول: لمَ لمْ تؤخر قتلها حتىٰ تراجعني؟ فلست قاتلها حتىٰ أنظر رأي الملك فيها ثانية: فإن

رأيته نادمـًا حزينـًا علىٰ ما صنع جئت بها حية. وكنت قد عملت عملاً عظيمـًا. وأنجيت إيراخت من القتل. وحفظت قلب الملك. واتخذت عند عامة الناس بذلك يداً. وإن رأيته فرحـًا مستريحا مصوّبـا رأيه في الذي فعله وأمر به فقتلها لا يفوت. ثم انطلق بها إلىٰ منزله، ووكل بها خادمـًا من أمنائه، وأمره بخدمتها وحراستها، حتىٰ ينظر ما يكون من أمرها وأمر الملك. ثم خضب سيفه بالدم ودخل علىٰ الملك كالكئيب الحزين. فقال أيها الملك: إني قد أمضيت أمرك في إيراخت. فلم يلبث الملك أن سكن عنه الغضب، وذكر جمال إيراخت وحسنها. واشتد أسفه عليها. وجعل يعزي نفسه عنها. ويتجلد وهو مع ذلك يستحي أن يسأل إيلاذ: أحقـًا أمضىٰ أمره فيها أم لا؟ ورجا لما عرف من عقل إيلاذ ألا يكون قد فعل ذلك. ونظر إليه إيلاذ بفضل عقله فعلم الذي به، فقال له: لا تهتم ولا تحزن أيها الملك: فإنه ليس في الهم والحزن منفعة. ولكنهما ينحلان الجسم ويفسدانه. فاصبر أيها الملك علىٰ ما لست بقادر عليه أبداً. وإن أحب الملك حدثته بحديث يسليه. قال: حدثني.

قال إيلاذ: زعموا أن حمامتين ذكراً وأنثىٰ ملا عشهما من الحنطة والشعير. فقال الذكر للأنثىٰ: إنا إذا وجدنا في الصحارىٰ ما نعيش به فلسنا نأكل مما هاهنا شيئًا. فإذا جاء الشتاء ولم يكن في الصحارىٰ شيء رجعنا إلىٰ ما في عشنا فأكلناه. فرضيت الأنثىٰ بذلك. وقالت له: نعم ما رأيت. وكان ذلك الحب نديـًا حين وضعاه في عشهما. فانطلق الذكر فغاب. فلما جاء الصيف يبس الحب وانضمر. فلما رجع الذكر رأىٰ الحب ناقصـًا. فقال لها: أليس كنا أجمعنا رأينا علىٰ ألا نأكل منه شيئًا؟ فلم أكلته؟ فجعلت تحلف أنها ما أكلت منه شيئا. وجعلت تعتذر إليه. فلم يصدقها. وجعل ينقرها حتىٰ ماتت. فلما جاءت الأمطار ودخل الشتاء تندىٰ الحب وامتلأ العش كما كان. فلما رأىٰ الذكر ذلك ندم. ثم

اضطجع إلىٰ جانب حمامته وقال: ما ينفعني الحب والعيش بعدك إذا طلبتك فلم أجدك، ولم أقدر عليك، وإذا فكرت في أمرك وعلمت أني قد ظلمتك، ولا أقدر علىٰ تدارك ما فات. ثم استمر علىٰ حزنه فلم يطعم طعامًا ولا شرابًا حتىٰ مات إلىٰ جانبها. والعاقل لا يعجل في العذاب والعقوبة، ولا سيما من يخاف الندامة، كما ندم الحمام الذكر. وقد سمعت أيضًا أن رجلاً دخل الجبل وعلىٰ رأسه كارة(٣٢٦) من العدس فوضع الكارة عن ظهره ليستريح. فنزل قرد من شجرة فأخذ ملء كفه من العدس وصعد إلىٰ الشجرة. فسقطت من يده حبة فنزل في طلبها فلم يجدها. وانتثر ما كان في يده من العدس أجمع. وأنت أيضًا أيها الملك عندك ستة عشر ألف امرأة تدع أن تلهو بهن وتطلب التي لا تجد؟! فلما سمع الملك ذلك خشي أن تكون إيراخت قد هلكت. فقال لإيلاذ: لم لا تأنيت وتثبت؟ بل أسرعت عند سماع كلمة واحدة فتعلقت بها، وفعلت ما أمرتك به من ساعتك؟ قال إيلاذ: إن الذي قوله واحد لا يختلف هو الله الذي لا تبديل لكلماته ولا اختلاف لقوله. قال الملك: لقد أفسدت أمري وشددت حزني بقتل إيراخت. قال إيلاذ: إثنان ينبغي لهما أن يحزنا: الذي يعمل الإثم في كل يوم، والذي لم يعمل خيراً قط: لأن فرحهما في الدنيا ونعيمهما قليل. وندامتهما إذ يعاينان الجزاء طويلة لا يستطاع إحصاؤها. قال الملك: لئن رأيت إيراخت حيةً لا أحزن علىٰ شيء أبداً. قال إيلاذ: اثنان لا ينبغي لهما أن يحزنا: المجتهد في البر كل يوم، والذي لم يأثم قط. قال الملك: ما أنا بناظر إلىٰ إيراخت أكثر مما نظرت قال إيلاذ: اثنان لا ينظران: الأعمىٰ والذي لا عقل له. وكما أن الاعمىٰ لا ينظر السماء ونجومها وأرضها ولا ينظر القرب والبعد، كذلك الذي لا عقل له لا يعرف الحسن من القبيح ولا المحسن من

(٣٢٦) كمية أو مقدار.

المسيء. قال الملك: لو رأيت إيراخت لاشتد فرحي. قال إيلاذ: اثنان هما الفرحان: البصير والعالم. فكما أن البصير يبصر أمور العالم وما فيه من زيادة ونقصان والقريب والبعيد، فكذلك العالم يبصر البر والإثم، ويعرف عمل الآخرة، ويتبين له نجاته، ويهتدي إلىٰ صراط المستقيم. قال الملك: ينبغي لنا أن نتباعد منك يإيلاذ ونأخذ الحذر ونلزم الاتقاء. قال إيلاذ: اثنان يجب أن نتباعد منهما: الذي يقول لا بر ولا إثم ولا عقاب ولا ثواب ولا شيء علىٰ مما أنا فيه، والذي لا يكاد فيه يصرف بصره عما ليس له بمحرم ولا أذنه عن استماع السوء، ولا قلبه عما تهم به نفسه من الإثم والحرص. قال الملك: صارت يدي من إيراخت صفراً. قال إيلاذ: ثلاثة أشياء أصفار: النهر الذي ليس فيه ماء، والأرض التي ليس فيها ملك، والمرأة التي ليس لها بعل، قال الملك: إنك يا إيلاذ لتلقي الجواب[٣٢٧]. قال إيلاذ: ثلاثة يلقون بالجواب: الملك الذي يعطي ويقسم من خزائنه، والمرأة المهداة التي تهوىٰ من ذوي الحسب، والرجل العالم الموفق للخير.

ثم إن إيلاذ لما رأىٰ الملك أشتد به الأمر، قال: أيها الملك إن إيراخت بالحياة. فلما سمع الملك ذلك اشتد فرحه. وقال يا إيلاذ: إنما منعني من الغضب ما أعرف من نصيحتك وصدق حديثك. وكنت أرجو لمعرفتي بعلمك ألا تكون قد قتلت إيراخت. فإنها وإن كانت أتت عظيماً وأغلظت في القول فلم تأته عداوة ولا طلب مضرة، ولكنها فعلت ذلك للغيرة. وقد كان ينبغي لي أن أعرض عن ذلك وأتحمله، ولكنك يا إيلاذ أردت أن تختبرني وتتركني في شك من أمرها. وقد أخذت عندي أفضل الأيدي. وأنا لك شاكر. فانطلق فأتني بها. فخرج من عند الملك فأتي إيراخت وأمرها أن تتزين ففعلت ذلك. وانطلق بها إلىٰ الملك.

(٣٢٧) أي ترمز في أجوبتك أو تشير إلي.

فلما دخلت سجدت له. ثم قامت بين يديه. وقالت: أحمد الله تعالىٰ ثم أحمد الملك الذي أحسن إلي: قد أذنبت الذنب العظيم الذي لم أكن للبقاء أهلاً بعده، فوسعه حلمه وكرم طبعه ورأفته، ثم أحمد إيلاذ الذي آخر أمري، وأنجاني من الهلكة، لعلمه برأفة الملك وسعة حلمه وجوده وكرم جوهره ووفاء عهده. وقال الملك لإيلاذ: ما أعظم يدك عندي وعند إيراخت وعند العامة: إذ قد أحييتها بعد ما أمرت بقتلها: فأنت الذي وهبتها لي اليوم: فإني لم أزل واثقاً بنصيحتك وتدبيرك. وقد ازددت اليوم عندي كرامة وتعظيماً. وأنت محكّمٌ في ملكي تفعل فيه بما ترىٰ، وتحكم عليه بما تريد. فقد جعلت ذلك إليك ووثقت بك. قال إيلاذ: أدام الله لك أيها الملك المُلكَ والسرور. فلست بمحمود علىٰ ذلك. فإنما أنا عبدك. لكن حاجتي ألاّ يعجل الملك في الأمر الجسيم الذي يندم علىٰ فعله، وتكون عاقبته الغم والحزن. ولا سيما في مثل هذه الملكة الناصحة المشفقة التي لا يوجد في الأرض مثلها: فقال الملك: بحق قلت يا إيلاذ، وقد قبلت قولك، ولست عاملاً بعدها عملاً صغيراً ولا كبيراً، فضلاً عن مثل هذا الأمر العظيم الذي ما سلمت منه، إلا بعد المؤامرة والنظر والتردد إلىٰ ذوي العقول ومشاورة أهل المودة والرأي. ثم أحسن الملك جائزة إيلاذ، ومكّنه من أولئك البراهمة الذين أشاروا بقتل أحبائه فأطلق فيهم السيف، وقرت عين الملك وعيون عظماء أهل مملكته، وحمدوا الله وأثنوا علىٰ كباريون بسعة علمه وفضل حكمته: لأنه بعلمه خلّص الملك ووزيره الصالح وامرأته الصالحة.

(انقضىٰ باب إيلاذ وبلاذ وايراخت)

باب اللبوة[٣٢٨] والإسوار[٣٢٩] والشغبر

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل. فاضرب لي مثلاً في شأن من يدع ضرّ غيره إذا قدر عليه لما يصيبه من الضرّ، ويكون له فيما ينزل به واعظ وزاجر عن ارتكاب الظلم والعداوة لغيره. قال الفيلسوف: إنه لا يقدم علىٰ طلب ما يضر الناس وما يسوؤهم إلا أهل الجهالة والسفه وسوء النظر في العواقب من أمور الدنيا والآخرة، وقلة العلم بما يدخل عليهم في ذلك من حلول النقمة، وبما يلزمهم من تبعة ما اكتسبوا مما لا تحيط به العقول. وإن سلم بعضهم من ضرر بعض بمنية عرضت له قبل أن ينزل به وبال ما صنع، فإن من لم يفكر في العواقب لم يأمن المصائب، وحقيق ألا يسلم من المعاطب. وربما اتعظ الجاهل واعتبر بما يصيبه من المضرة من غيره، فارتدع عن أن يغشىٰ أحداً بمثل ذلك من الظلم والعدوان، وحصل له نفع ما كفَّ عنه من ضرره لغيره في العاقبة، فنظير ذلك حديث اللبوة والإسوار والشغبر.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أن لبؤة كانت في غيضة، ولها شبلان، وأنها خرجت في طلب الصيد وخلفتهما في كهفها، فمرّ بهما إسوار فحمل عليهما ورماهما فقتلهما، وسلخ جلديهما فاحتقبهما، وانصرف بهما إلىٰ منزله، ثم إنها رجعت. فلما رأت ما حلّ بهما من الأمر الفظيع اضطربت ظهراً لبطن وصاحت وضجّت. وكان إلىٰ جانبها شغبر، فلما سمع ذلك من صياحها قال لها: ما هذا الذي تصنعين؟ وما نزل بك؟ فأخبريني به. قالت اللبوة شبلاي مرّ بهما إسوار فقتلهما، وسلخ

(٣٢٨) اللبوة أو اللبؤة بالهمزة انثى الأسد.

(٣٢٩) قائد الفرس.

جلديهما فاحتقبهما[٣٣٠]، ونبذهما بالعراء. قال لها شغبر: لا تضجّي وأنصفي من نفسك، واعلمي أن هذا الإسوار لم يأت إليك شيئاً إلا وقد كنت تفعلين بغيرك مثله، وتأتين إلىٰ غير واحد مثل ذلك، ممن كان يجد بحميمه ومن يعز عليه مثل ما تجدين بشبليك. فاصبري علىٰ فعل غيرك كما صبر غيرك علىٰ فعلك: فإنه قد قيل: كما تدين تدان. ولكل عمل ثمرة من الثواب والعقاب. وهما علىٰ قدره في الكثرة والقلة. كالزرع إذا حضر الحصاد أعطىٰ علىٰ حسب بذره. قالت اللبؤة: بين لي ما تقول، وأفصح لي عن إشارته. قال الشغبر: كم أتىٰ لك من العمر؟ قالت اللبؤة: مائة سنة. قال الشغبر: ما كان قوتك؟ قالت اللبؤة: لحم الوحش. قال الشغبر: من كان يطعمك إياه؟ قالت اللبؤة: كنت أصيد الوحش وآكله. قال الشغبر: أرأيت الوحش التي كنت تأكلين، أما كان لها آباء وأمهات؟ قالت: بلىٰ. قال الشغبر: فما بالي لا أرىٰ ولا أسمع لتلك الآباء والأمهات من الجزع والضجيج ما أرىٰ وأسمع لك؟ أما أنه لم ينزل بك ما نزل إلا لسوء نظرك في العواقب وقلة تفكيرك فيها، وجهالتك بما يرجع عليك من ضرها. فلما سمعت اللبؤة ذلك من كلام الشغبر عرفت أن ذلك مما جنت علىٰ نفسها، وأن عملها كان جوراً وظلماً، فتركت الصيد، وانصرفت عن أكل اللحم إلىٰ الثمار والنسك والعبادة. فلما رأىٰ ذلك ورشان[٣٣١] الذي كان صاحب تلك الغيضة وكان عيشه من الثمار. قال لها: قد كنت أظن أن الشجرة عامنا هذا لم تحمل لقلة الماء، فلما أبصرتك تأكلينها، وأنت آكلة اللحم، فتركت رزقك وطعامك وما قسم الله لك، وتحولت إلىٰ رزق غيرك فانتقصته، ودخلت عليه فيه؛ علمت أن الشجر العام أثمرت كما كانت تثمر قبل اليوم، وإنما أتت قلة الثمر من جهتك. فويل للشجر وويل للثمار وويل

(٣٣٠) أي ربط جلديهما بمؤخرة سرج فرسه أو قتب بعيره أو رحله.

(٣٣١) نوع من الطيور.

لمن عيشه منها! ما أسرع هلاكهم إذا دخل عليهم في أرزاقهم، وغلبهم عليها من ليس له فيها حظ ولم يكن معتاداً لأكلها! فلما سمعت اللبؤة ذلك من كلام الورشان تركت أكل الثمار وأقبلت علىٰ أكل الحشيش والعبادة. وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن الجاهل ربما انصرف بضرٍ يصيبه عن ضرِّ الناس، كاللبؤة التي انصرفت لما لقيت في شبليها عن أكل اللحم ثم عن أكل الثمار بقول الورشان، وأقبلت علىٰ النّسك والعبادة. والناس أحق بحسن النظر في ذلك: فإنه قد قيل: ما لا ترضاه لنفسك لا تصنعه لغيرك: فإن في ذلك العدل: وفي العدل رضا الله تعالىٰ ورضا الناس.

(انقضىٰ باب اللبوة والإسوار والشغبر)

باب الناسك والضيف

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل. فاضرب لي مثل الذي يدع صنعه الذي يليق به ويشاكله، ويطلب غيره فلا يدركه: فيبقىٰ حيران متردداً. قال الفيلسوف: زعموا أنه كان بأرض الكرخ ناسك عابدٌ مجتهدٌ. فنزل به ضيفٌ ذات يوم، فدعا الناسك لضيفه بتمر: ليطرفه به. فأكلا منه جميعاً. ثم قال الضيف: ما أحلىٰ هذا التمر وأطيبه، فليس هو في بلادي التي أسكنها، وليته كان فيها. ثم قال: أرىٰ أن تساعدني علىٰ أن آخذ منه ما أغرسه في أرضنا، فإني لست عارفاً بثمار أرضكم هذه ولا بمواضعها. فقال له الناسك: ليس لك في ذلك راحة فإن ذلك يثقل عليك. ولعل ذلك لا يوافق أرضكم، مع أن بلادكم كثيرة الأثمار فما حاجتها مع كثرة ثمارها إلىٰ التمر مَعَ وخامته وقلة موافقته للجسد؟ ثم قال له الناسك: إنه لا يعد حكيماً من طلب ما لا يجد. وإنك سعيد الجدِّ إذا قنعت بالذي تجد، وزهدت فيما لا تجد. وكان هذا الناسك يتكلم بالعبرانية. فاستحسن الضيف كلامه وأعجبه، فتكلف أن يتعلمه؛ وعالج في ذلك نفسه أياماً. فقال الناسك لضيفه: ما أخلقك أن تقع مما تركت من كلامك، وتكلفت من كلام العبرانية، في مثل ما وقع فيه الغراب! قال الضيف: وكيف كان ذلك؟

قال الناسك: زعموا أن غراباً رأىٰ حجلة تدرج وتمشي، فأعجبته مشيتها، وطمع أن يتعلمها. فراض علىٰ ذلك نفسه، فلم يقدر علىٰ إحكامها، وأيس منها، وأراد أن يعود إلىٰ مشيته التي كان عليها: فإذا هو قد اختلط وتخلع في مشيته، وصار أقبح الطير مشياً. وإنما ضربت لك هذا المثل لما رأيت من أنك تركت لسانك الذي طبعت عليه، وأقبلت علىٰ لسان

العبرانية، وهو لا يشاكلك، وأخاف ألا تدركه، وتنسىٰ لسانك، وترجع إلىٰ أهلك وأنت شرّهم لسانًا: فإنه قد قيل: إنه يعد جاهلاً من تكلف من الأمور ما لا يشاكله، وليس من عمله ولم يؤدبه عليه آباؤه وأجداده من قبل.

(انقضىٰ باب الناسك والضيف)

باب السائح والصائغ

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل. فاضرب لي مثلاً في شأن الذي يضع المعروف في غير موضعه، ويرجو الشكر عليه. قال الفيلسوف: أيها الملك إن طبائع الخلق مختلفة. وليس مما خلقه الله في الدنيا مما يمشي على أربع أو على رجلين أو يطير بجناحين شيء هو أفضل من الإنسان، ولكن من الناس البر والفاجر. وقد يكون في بعض البهائم والسباع والطير ما هو أوفى منه ذمة، وأشد محاماة على حرمه، وأشكر للمعروف، وأقوم به، وحينئذٍ يجب على ذوي العقل من الملوك وغيرهم أن يضعوا معروفهم مواضعه ولا يضعوه عند من لا يحتمله. ولا يقوم بشكره، ولا يصطنع أحداً إلا بعد الخبرة بطرائقه، والمعرفة بوفائه ومودته وشكره. ولا ينبغي أن يختصوا بذلك قريباً لقرابته، إذا كان غير محتمل للصنيعة، ولا أن يمنعوا معروفهم ورفدهم للبعيد، إذا كان يقيهم بنفسه وما يقدر عليه، لأنه يكون حينئذٍ عارفاً بحق ما اصطنع إليه مؤدياً لشكر ما أنعم عليه، محموداً بالنصح معروفاً بالخير، صدوقاً عارفاً، مؤثراً لحميد الفعال والقول. وكذلك كل من عرف بالخصال المحمودة ووثق منه بها، كان للمعروف موضعاً، ولتقريبه واصطناعه أهلاً، فإن الطبيب الرفيق العاقل لا يقدر إلى مداواة المريض إلا بعد النظر إليه والجس لعروقه ومعرفة طبيعته وسبب علته، فإذا عرف ذلك كله حق معرفته أقدم على مداواته. فكذلك العاقل، لا ينبغي له أن يصطفي أحداً، ولا يستخلصه إلا بعد الخبرة، فإن من أقدم على مشهور العدالة من غير اختبار كان مخاطراً في ذلك ومشرفا منه على هلاك وفساد. ومع ذلك ربما صنع الإنسان المعروف مع الضعيف الذي لم يجرب شكره، ولم

يعرف حاله في طبائعه فيقوم بشكر ذلك ويكافئ عليه أحسن المكافأة. وربما حذر العاقل الناس ولم يأمن علىٰ نفسه أحداً منهم. وقد يأخذ ابن عرس فيدخله في كمه ويخرجه من الآخر، كالذي يحمل الطائر علىٰ يده، فإذا صاد شيئاً انتفع به، ومطعمه منه. وقد قيل: لا ينبغي لذي العقل أن يحتقر صغيراً ولا كبيراً من الناس ولا من البهائم، ولكنه جدير بأن يبلوهم، ويكون ما يصنع إليهم علىٰ قدر ما يرىٰ منهم. وقد مضىٰ في ذلك مثل ضربه بعض الحكماء. قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أن جماعة احتفروا ركية(٣٣٢) فوقع فيها رجل صائغ وحية وقرد وببر(٣٣٣)، ومر بهم رجل سائح فأشرف علىٰ الركية، فبصر بالرجل والحية والببر والقرد ففكر في نفسه، وقال: لست أعمل لآخرتي عملاً أفضل من أن أخلص هذا الرجل من بين هؤلاء الأعداء. فأخذ حبلاً وأدلاه إلىٰ البئر فتعلق به القرد لخفته فخرج. ثم دلاه ثانية، فالتفت به الحية فخرجت. ثم دلاه ثالثاً فتعلق به الببر فأخرجه. فشكرن له صنيعه. وقلن له: لا تخرج هذا الرجل من الركية، فإنه ليس شيء أقل شكراً من الناس ثم هذا الرجل خاصةً. ثم قال له القرد: إن منزلي في جبل قريب من مدينة يقال لها: نوادرخت. فقال له الببر: أنا أيضاً في أجمة إلىٰ جانب تلك المدينة. قالت الحية: أنا أيضاً في سور تلك المدينة. فإن أنت مررت بنا يوماً من الدهر، واحتجت إلينا فصوّت علينا حتىٰ نأتيك فنجزيك بما أسديت إلينا من معروف. فلم يلتفت السائح إلىٰ ما ذكروا له من قلة شكر الإنسان، وأدلىٰ الحبل، فأخرج الصائغ، فسجد له، وقال له: لقد أوليتني معروفاً. فإن أتيت يوماً من الدهر لمدينة نوادرخت فاسأل عن منزلي، فأنا رجل صائغ لعلي أكافئك بما صنعت إلي من معروف. فانطلق إلىٰ مدينته وانطلق السائح إلىٰ

(٣٣٢) الركية هي البئر.
(٣٣٣) من أسماء السبع.

جانبه. فعرض بعد ذلك أن السائح اتفقت له الحاجة إلىٰ تلك المدينة، فانطلق، فاستقبله القرد، فسجد له وقبّل رجليه. واعتذر إليه، وقال: إن القرود لا يملكون شيئًا، ولكن اقعد حتىٰ آتيك. وانطلق القرد، وآتاه بفاكهة طيبة، فوضعها بين يديه، فأكل منها حاجته. ثم إن السائح انطلق حتىٰ دنا من باب المدينة فاستقبله الببر، فخرّ له ساجداً وقال له: إنك قد أوليتني معروفًا. فاطمئن ساعة حتىٰ آتيك. فانطلق الببر فدخل في بعض الحيطان[٣٣٤] إلىٰ بنت الملك فقتلها، وأخذ حليها، فأتاه بها، من غير أن يعلم السائح من أين هو. فقال في نفسه: هذه البهائم قد أولتني هذا الجزاء، فكيف لو قد أتيت إلىٰ الصائغ؟ فأنه إن كان معسراً لا يملك شيئًا فسيبيع هذا الحلي فيستوفي ثمنه. فيعطيني بعضه، ويأخذ بعضه، وهو أعرف بثمنه. فانطلق السائح فأتىٰ إلىٰ الصائغ. فلما رآه رحب به وأدخله إلىٰ بيته. فلما بصر بالحلي معه، عرفه وكان هو الذي صاغه لابنة الملك. فقال للسائح: اطمئن حتىٰ آتيك بطعام فلست أرضىٰ لك ما في البيت. ثم خرج وهو يقول: قد أصبت فرصتي، أريد أن أنطلق إلىٰ الملك وأدله علىٰ ذلك، فتحسن منزلتي عنده. فانطلق إلىٰ باب الملك، فأرسل إليه: إن الذي قتل ابنتك وأخذ حليها عندي. فأرسل الملك وأتىٰ بالسائح فلما نظر الحلي معه لم يمهله، وأمر به أن يعذب ويطاف به في المدينة، ويصلب. فلما فعلوا به ذلك جعل السائح يبكي ويقول بأعلىٰ صوته: لو أني أطعت القرد والحية والببر فيما أمرنني به وأخبرنني من قلة شكر الإنسان لم يصر أمري إلىٰ هذا البلاء، وجعل يكرر هذا القول. فسمعت مقالته تلك الحية فخرجت من جحرها فعرفته، فاشتد عليه أمره، فجعلت تحتال في خلاصه. فانطلقت حتىٰ لدغت ابن الملك، فدعىٰ الملك أهل العلم فرقوه ليشفوه فلم يغنوا عنه شيئا. ثم مضت

(٣٣٤) البساتين.

الحية إلىٰ أخت لها من الجن، فأخبرتها بما صنع السائح إليها من المعروف، وما وقع فيه. فرقت له، وانطلقت إلىٰ ابن الملك، وتخايلت له. وقالت له: إنك لا تبرأ حتىٰ يرقيك هذا الرجل الذي قد عاقبتموه ظلماً. وانطلقت الحية إلىٰ السائح فدخلت عليه السجن، وقالت له: هذا الذي كنت نهيتك عنه من اصطناع المعروف إلىٰ هذا الإنسان: ولم تطعني. وأتته بورق ينفع من سمِّها. وقالت له: إذا جاءوا بك لترقي ابن الملك فاسقه من ماء هذا الورق فإنه يبرأ. وإذا سألك الملك عن حالك فاصدقه، فإنك تنجوا إن شاء الله تعالىٰ. وإن ابن الملك أخبر الملك أنه سمع قائلاً يقول: إنك لن تبرأ حتىٰ يرقيك هذا السائح الذي حبس ظلماً. فدعا الملك السائح، وأمره أن يرقي ولده. فقال: لا أحسن الرقي، ولكن اسقه من ماء هذه الشجرة فيبرأ بإذن الله تعالىٰ. فسقاه فبرئ الغلام. ففرح الملك بذلك: وسأله عن قصته، فأخبره. فشكره الملك، وأعطاه عطية حسنة، وأمر بالصائغ أن يصلب. فصلبوه لكذبه وانحرافه عن الشكر ومجازاته الفعل الجميل بالقبيح. ثم قال الفيلسوف للملك: ففي صنيع الصائغ بالسائح، وكفره له بعد استنقاذه إياه، وشكر البهائم له، وتخليص بعضها إياه، عبرة لمن اعتبر، وفكرة لمن تفكر، وأدب في وضع المعروف والإحسان عند أهل الوفاء والكرم، قربوا أو بعدوا لما في ذلك من صواب الرأي وجلب الخير وصرف المكروه.

(انقضىٰ باب السائح والصائغ)

باب ابن الملك وأصحابه

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل. فإن كان الرجل لا يصيب الخير إلا بعقله ورأيه وتثبته في الأمور كما يزعمون، فما بال الرجل الجاهل يصيب البلاء والضر؟. قال بيدبا: كما أن الإنسان لا يبصر إلا بعينيه ولا يسمع إلا بأذنيه، كذلك العمل، إنما هو بالحلم والعقل والتثبت، غير أن القضاء والقدر يغلبان علىٰ ذلك. ومثل ذلك مثل ابن الملك وأصحابه. قال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أن أربعة نفر اصطحبوا في طريق واحدة، أحدهم ابن الملك والثاني ابن تاجر والثالث ابن شريف ذو جمال والرابع ابن أكار[٣٣٥]. وكانوا جميعاً محتاجين، وقد أصابهم ضرر وجهد شديد في موضع غربة لا يملكون إلا ما عليهم من الثياب. فبينما هم يمشون إذ فكروا في أمرهم وكان كل إنسان منهم راجعاً إلىٰ طباعه وما كان يأتيه منه الخير، قال ابن الملك: إنما أمر الدنيا كله بالقضاء والقدر، والذي قدر علىٰ الإنسان يأتيه علىٰ كل حال، والصبر للقضاء والقدر وانتظارهما أفضل الأمور. وقال ابن التاجر: العقل أفضل من كل شيء. وقال ابن الشريف: الجمال أفضل مما ذكرتم. ثم قال ابن الأكار: ليس في الدنيا أفضل من الاجتهاد في العمل. فلما قربوا من مدينة يقال لها مطرون، جلسوا في ناحية منها يتشاورون: فقالوا لابن الأكار: انطلق فاكتسب لنا باجتهادك طعاماً ليومنا هذا. فانطلق ابن الأكار، وسأل عن عمل إذا عمله الإنسان يكتسب فيه طعام أربعة نفر فعرّفوه أنه ليس في تلك المدينة شيء أعز من الحطب، وكان الحطب منها علىٰ فرسخ. فانطلق ابن الأكار فاحتطب طُناً[٣٣٦] من

(٣٣٥) الأكار هو من يشتغل بحراثة الأراضي.
(٣٣٦) أي حزمة من الحطب.

الحطب، وأتىٰ به المدينة فباعه بدرهم واشترىٰ به طعاماً وكتب علىٰ باب المدينة: عمل يوم واحد إذا أجهد فيه الرجل بدنه قيمته درهم. ثم انطلق إلىٰ أصحابه بالطعام فأكلوا. فلما كان من الغد: قالوا ينبغي للذي قال إنه ليس شيء أعز من الجمال أن تكون نوبته. فانطلق ابن الشريف ليأتي المدينة، ففكر في نفسه وقال: أنا لست أحسن عملاً فما يدخلني المدينة؟ ثم استحيا أن يرجع إلىٰ أصحابه بغير طعام، وهمّ بمفارقتهم. فانطلق حتىٰ أسند ظهره إلىٰ شجرة عظيمة، فغلبه النوم فنام. فمر به رجل من عظماء المدينة فراقه جماله وتوسم فيه شرف النِّجّار[٣٣٧] فرقّ له ومنحه خمسمائة درهم. فكتب علىٰ باب المدينة: جمال يوم واحد يساوي خمسمائة درهم. وأتىٰ بالدراهم إلىٰ أصحابه. فلما أصبحوا في اليوم الثالث، قالوا لابن التاجر: انطلق أنت فاطلب لنا بعقلك وتجارتك ليومنا هذا شيئاً. فانطلق ابن التاجر فلم يزل حتىٰ بصر بسفينة من سفن البحر كثيرة المتاع قد قدمت إلىٰ الساحل، فخرج إليها جماعة من التجّار يريدون أن يبتاعوا مما فيها من المتاع. فجلسوا يتشاورون في ناحية من المركب، وقال بعضهم لبعض: ارجعوا يومنا هذا لا نشتري منهم شيئاً حتىٰ يكسد المتاع عليهم فيرخصوا علينا، مع أننا محتاجون إليه، وسيرخص. فخالف الطريق وجاء إلىٰ أصحاب المركب، فابتاع منهم ما فيه بمائة ألف دينار نسيئة[٣٣٨] وأظهر أنه يريد أن ينقل متاعه إلىٰ مدينة أخرىٰ. فلما سمع التجار ذلك خافوا أن يذهب ذلك المتاع من أيديهم، فأربحوه علىٰ ما اشتراه مائة ألف درهم، وأحال عليهم أصحاب المركب بالباقي[٣٣٩]، وحمل ربحه إلىٰ أصحابه وكتب علىٰ باب المدينة: عقل يوم واحد ثمنه مائة ألف درهم. فلما كان اليوم الرابع قالوا لابن

(٣٣٧) أي شرف الأصل.
(٣٣٨) أي بالأجل.
(٣٣٩) أي حول ما عليه من ديون علىٰ التجار.

الملك: انطلق أنت واكتسب لنا بقضائك وقدرك. فانطلق ابن الملك حتىٰ أتىٰ إلىٰ باب لمدينة فجلس علىٰ متكأ في باب المدينة، واتفق أن ملك تلك الناحية مات ولم يخلف ولداً ولا أحداً ذا قرابة. فمرّوا عليه بجنازة الملك ولم يحزنه وكلهم يحزنون. فأنكروا حاله وشتمه البواب، وقال له: من أنت يا هذا؟ وما يجلسك علىٰ باب المدينة ولا نراك تحزن لموت الملك؟ وطرده البواب عن الباب فلما ذهبوا عاد الغلام فجلس مكانه. فلما دفنوا الملك ورجعوا بصر به البواب فغضب وقال له: ألم أنهك عن الجلوس في هذا الموضع؟ وأخذه وحبسه. فلما كانالغد اجتمع أهل تلك المدينة يتشاورون فيمن يملكونه عليهم، وكلٌّ منهم يتطاول ينظر صاحبه، ويختلفون بينهم. فقال لهم البواب: إني رأيت أمس غلاماً جالساً علىٰ الباب، ولم أره يحزن لحزننا، فكلمته فلم يجبني، فطردته عن الباب. فلما عدت رأيته جالساً فأدخلته السجن مخافة أن يكون عيناً(٣٤٠). فبعثت أشراف أهل المدينة إلىٰ الغلام فجاءوا به، وسألوه عن حاله، وما أقدمه إلىٰ مدينتهم. فقال: أنا ابن ملك فويران، وإنه لما مات والدي غلبني أخي علىٰ المُلْك، فهربت من يده حذراً علىٰ نفسي حتىٰ انتهيت إلىٰ هذه الغاية. فلما ذكر الغلام ما ذكره من أمره عرفه من كان يغشىٰ أرض أبيه منهم، وأثنوا علىٰ أبيه خيراً. ثم إن الأشراف اختاروا الغلام أن يملكوه عليهم ورضوا به. وكان لأهل تلك المدينة سنة إذا ملكوا عليهم ملكاً حملوه علىٰ فيل أبيض، وطافوا به حوالي المدينة. فلما فعلوا به ذلك مرّ بباب المدينة فرأىٰ الكتابة علىٰ الباب فأمر أن يكتب: إن الاجتهاد والجمال والعقل وما أصاب الرجل في الدنيا من خير أو شر إنما هو بقضاء وقدر من الله عزّ وجل. وقد ازددت في ذلك اعتباراً بما ساق الله إلي من الكرامة والخير. ثم انطلق إلىٰ مجلسه

(٣٤٠) أي جاسوس.

فجلس علىٰ سرير ملكه وأرسل إلىٰ أصحابه الذين كان معهم فأحضرهم فأشرك صاحب العقل مع الوزراء، وضمّ صاحب الاجتهاد إلىٰ أصحاب الزرع، وأمر لصاحب الجمال بمالٍ كثير ثم نفاه كي لا يفتتن به. ثم جمع علماء أرضه وذوي الرأي منهم وقال لهم: أما أصحابي فقد تيقنوا أن الذي رزقهم الله سبحانه وتعالىٰ من الخير إنما هو بقضاء الله وقدره، وإنما أحب أن تعلموا ذلك وتستيقنوه، فإن الذي منحني الله وهيأه لي إنما كان بقدر، ولم يكن بجمال ولا عقل ولا اجتهاد. وما كنت أرجو إذ طردني أخي أن يصيبني ما يعيشني من القوت فضلاً عن أن أصيب هذه المنزلة، وما كنت أؤمل أن أكون بها: لأني قد رأيت في هذه الأرض من هو أفضل مني حسناً وجمالاً، وأشد اجتهاداً وأسد رأياً، فساقني القضاء إلىٰ أن أعتززت بقدر من الله، وكان في ذلك الجمع شيخ فنهض حتىٰ استوىٰ قائماً، وقال: إنك قد تكلمت بكلام كامل عقل وحكمة، وإن الذي بلغ بك ذلك وفور[٣٤١] عقلك وحسن ظنّك، وقد حققت ظننا فيك ورجاءنا لك. وقد عرفنا ما ذكرت، وصدقناك فيما وصفت. والذي ساق الله إليك من المُلكِ والكرامة كنت أهلاً له، لما قسم الله تعالىٰ لك من العقل والرأي. وإن أسعد الناس في الدنيا والآخرة من رزقه الله رأياً وعقلاً. وقد أحسن الله إلينا إذ وفق لنا عند موت ملكنا وكرّمنا بك. ثم قام شيخ آخر سائح فحمد الله عزّ وجل وأثنىٰ عليه وقال: إني كنت أخدم وأنا غلام قبل أن أكون سائحاً، رجلاً من أشراف الناس. فلما بدا لي رفض الدنيا فارقت ذلك الرجل، وقد كان أعطاني من أجرتي دينارين، فأردت أن أتصدق بأحدهما، وأستبقي الآخر، فأتيت السوق، فوجدت مع رجل من الصيادين زوج هدهد، فساومت فيهما فأبىٰ الصياد أن يبيعهما إلا بدينارين، فاجتهدت أن يبيعنيهما بدينار واحد فأبىٰ. فقلت في

(٣٤١) من الوفرة.

نفسي: أشتري أحدهما وأترك الآخر. ثم فكرت وقلت لعلهما يكونان زوجين ذكراً وأنثىٰ فأفرق بينهما، فأدركني لهما رحمة فتوكلت علىٰ الله وابتعتهما بدينارين وأشفقت إن أرسلتهما في أرض عامرة أن يصادا، ولا يستطيعا أن يطيرا مما لقيا من الجوع والهزال، ولم آمن عليهما الآفات. فانطلقت بهما إلىٰ مكان كثير المرعىٰ والأشجار بعيد عن الناس والعمران، فأرسلتهما، فطارا ووقعا علىٰ شجرة مثمرة. فلما صارا في أعلاها شكرا لي، وسمعت أحدهما يقول للآخر: لقد خلصنا هذا السائح من البلاء الذي كنا فيه، واستنقذنا ونجّانا من الهلكة. وإنا لخليقان أن نكافئه بفعله. وإنّ في أصل هذه الشجرة جرة مملوءة دنانير. أفلا ندله عليها فيأخذها؟ فقلت لهما: كيف تدلانني علىٰ كنز لم تره العيون وأنتما لم تبصرا الشبكة؟ فقالا: إن القضاء إذا نزل صرف العيون عن موضع الشيء وغشّىٰ البصر وإنما صرف القضاء اعيننا عن الشرك ولم يصرفها عن هذا الكنز. فاحتفرت واستخرجت البرنية[٣٤٢] وهي مملوءة دنانير، فدعوت لهما بالعافية، وقلت لهما: الحمد لله الذي علّمكما ما لم تعلما، وأنتما تطيران في السماء، وأخبرتما بما تحت الأرض. قالا لي: أيها العاقل، أما تعلم أن القدر غالب علىٰ كل شيء، ولا يستطيع أحد أن يتجاوزه. وأنا اخبر الملك بذلك رأيته: فإن أمر الملك أتيته بالمال فأودعته في خزائنه. فقال الملك ذلك لك، وموفّر عليك.

(انقضىٰ باب ابن الملك وأصحابه)

(٣٤٢) أي الجرة المصنوعة من الخزف.

باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين

وهو باب من يرىٰ الرأي لغيره ولا يراه لنفسه. قال الملك للفيلسوف: قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مثلاً في شأن الرجل الذي يرىٰ الرأي لغيره ولا يراه لنفسه. قال الفيلسوف: إن مثل ذلك مثل الحمامة والثعلب ومالك الحزين. قال الملك: وما مثلهن؟ قال الفيلسوف: زعموا أن حمامة كانت تفرخ في رأس نخلة طويلة ذاهبة في السماء، فكانت الحمامة تشرع في نقل العش إلىٰ رأس تلك النخلة، فلا يمكن أن تنقل ما تنقل من العش وتجعله تحت البيض إلا بعد شدة وتعب ومشقة: لطول النخلة وسحقها[٣٤٣]، فإذا فرغت من النقل باضت ثم حضنت بيضها، فإذا فقست وأدرك فراخها جاءها ثعلب قد تعاهد ذلك منها لوقت قد علمه بقدر ما ينهض فراخها، فيقف بأصل النخلة فيصيح بها ويتوعدها أن يرقىٰ إليها فتلقي إليه فراخها. فبينما هي ذات يوم قد أدرك لها فرخان إذ أقبل مالك الحزين فوقع علىٰ النخلة. فلما رأىٰ الحمامة كئيبة حزينة شديدة الهم قال لها مالك الحزين: يا حمامة، ما لي أراكي كاسفة اللون سيئة الحال؟ فقالت له: يا مالك الحزين، إن ثعلباً ابتليت به كلما كان لي فرخان جاء يهددني ويصيح في أصل النخلة، فأفرق منه فأطرح إليه فرخي. قال لها مالك الحزين: إذا أتاكِ ليفعل ما تقولين فقولي له: لا ألقي إليك فرخي، فارقَ إلي وغرر بنفسك. فإذا فعلت ذلك وأكلت فرخي، طرت عنك ونجوت بنفسي. فلما علمها مالك الحزين هذه الحيلة طار فوقع علىٰ شاطئ نهر. فأقبل الثعلب في الوقت الذي عرف،

(٣٤٣) أي بعدها عن الأرض.

فوقف تحتها، ثم صاح كما كان يفعل. فأجابته الحمامة بما علمها مالك الحزين. قال لها الثعلب: أخبريني من علمك هذا؟ قالت: علمني مالك الحزين. فتوجّه الثعلب إلىٰ مالكًا الحزين علىٰ شاطئ النهر، فوجده واقفًا. فقال له الثعلب: يا مالك الحزين: إذا أتتك الريح عن يمينك فأين تجعل رأسك؟ قال: عن شمالي. قال: فإذا أتتك عن شمالك فأين تجعل رأسك؟ قال: أجعله عن يميني أو خلفي. قال: فإذا أتتك الريح من كل مكان وكل ناحية فأين تجعله؟ قال: أجعله تحت جناحي. قال: وكيف تستطيع أن تجعله تحت جناحك؟ ما أراه يتهيأ لك. قال: بلىٰ: قال: فأرني كيف تصنع؟ فلعمري يا معشر الطير لقد فضلكم الله علينا. إنكن تدرين في ساعة واحدة مثلما ندري في سنة، وتبلغن ما لا نبلغ، وتدخلن رؤوسكن تحت اجنحتكن من البرد والريح. فهنيئًا لكن فأرني كيف تصنع. فأدخل الطائر رأسه تحت جناحه فوثب عليه الثعلب مكانه فأخذه فهمزه همزة دقت عنقه. ثم قال: يا عدو نفسه، ترىٰ الرأي للحمامة، وتعلمها الحيلة لنفسها، وتعجز عن ذلك لنفسك، حتىٰ يستمكن منك عدوك، ثم أجهز عليه وأكله.

فلما انتهىٰ المنطق للملك والفيلسوف إلىٰ هذا المكان سكت الملك. فقال له الفيلسوف: أيها الملك عشت ألف سنة، وملكت الأقاليم السبعة، وأعطيت من كل شيء سببًا، مع وفور سرورك وقرة عين رعيتك بك، ومساعدة القضاء والقدر لك، فإنه قد كمل فيك الحلم والعلم. وزكا منك العقل والقول والنية، فلا يوجد في رأيك نقص، ولا في قولك سقط ولا عيب. وقد جمعت النجدة واللين، فلا توجد جبانًا عند اللقاء، ولا ضيق الصدر عندما ينوبك من الأشياء. وقد جمعت لك في هذا الكتاب شمل بيان الأمور، وشرحت لك جوابًا ما سألتني عنه منها فأبلغتك في ذلك غاية نصحي، واجتهدت فيه برأيي ونظري ومبلغ

فطنتي، التماساً لقضاء حقك وحسن النية منك. بأعمال الفكرة والعقل. فجاء كما وصفت لك من النصيحة والموعظة مع أنه ليس الآمر بالخير بأسعد من المطيع له فيه، ولا الناصح بأولىٰ بالنصيحة من المنصوح، ولا المعلم للخير بأسعد من متعلمه منه. فافهم ذلك أيها الملك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(انقضىٰ باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين وهو آخر فصول الكتاب)

سيرة عبد الله بن المقفع

هو عبد الله ابن المقفع، الكاتب المشهور بالبلاغة، صاحب الرسائل البديعة، وهو من أهل فارس، وكان مجوسياً فأسلم علىٰ يد عيسىٰ بن علي عم السفاح والمنصور الخليفتين الأولين من خلفاء بني العباس، ثم كتب له واختص به. ومن كلامه: (شربت من الخطب ريا، ولم أضبط لها رويا، فغاضت ثم فاضت، فلا هي هي نظاما، وليست غيرها كلاما).
وقال الهيثم ابن عدي: جاء ابن المقفع إلىٰ عيسىٰ بن علي فقال له: قد دخل الإسلام في قلبي، وأريد أن أسلم علىٰ يدك. فقال له عيسىٰ: ليكن ذلك بمحضر من القواد ووجوه الناس، فإذا كان الغد فاحضر؛ ثم حضر عيسىٰ طعام عشية ذلك اليوم، فجلس ابن المقفع يأكل ويزمزم علىٰ عادة المجوس، فقال له عيسىٰ: أتزمزم وأنت علىٰ عزم الإسلام؟ فقال: أكره أن أبيت علىٰ غير دين. فلما أصبح أسلم علىٰ يده. وكان ابن المقفع مع فضله يتهم بالزندقة، فحكىٰ الجاحظ أن ابن المقفع ومطيع بن إياس ويحيىٰ بن زياد كانوا يتهمون في دينهم ... وكان المهدي بن المنصور الخليفة يقول: ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع. وقال الأصمعي: صنف ابن المقفع المصنفات الحسان منها (الدرة اليتيمة) التي لم يصنف في فنها مثلها؛ وقال الأصمعي: قيل لابن المقفع: من أدبك؟ فقال: نفسي، إذا رأيت من غيري حسناً أتيته وإن رأيت قبيحاً أبيته. واجتمع ابن المقفع بالخليل بن أحمد صاحب العروض، فلما افترقا قيل للخليل: كيف رايته؟ فقال: علمه أكثر من عقله. وقيل لابن المقفع: كيف رأيت الخليل؟ فقال: عقله أكثر من علمه. ويقال: إن ابن

المقفع هو الذي وضع كتاب (كليلة ودمنة)، وقيل: إنه لم يضعه وإنما كان باللغة الفارسية فعربه ونقله إلىٰ العربية، وإن الكلام الذي في أول هذا الكتاب من كلامه. وكان ابن المقفع يعبث بسفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة أمير البصرة، وينال من أمه ولا يسميه إلا بابن المغتلمة، وكثر ذلك منه، فقدم سليمان وعيسىٰ ابنا علي البصرة – وهما عما المنصور – ليكتبا أماناً لأخيهما عبد الله بن علي من المنصور، وكان عبد الله المذكور قد خرج علىٰ ابن أخيه المنصور وطلب الخلافة لنفسه، فأرسل إليه المنصور جيشاً مقدمه أبو مسلم الخراساني، فانتصر أبو مسلم عليه. وهرب عبد الله بن علي إلىٰ أخويه سليمان وعيسىٰ، واستتر عندهما خوفاً علىٰ نفسه من المنصور، فتوسطا له عند المنصور ليرضىٰ عنه، ولا يؤاخذه بما جرىٰ منه، فقبل شفاعتهما، واتفقوا علىٰ أن يكتب له أمان من المنصور ... فلما أتيا البصرة قالا لعبد الله ابن المقفع: اكتبه أنت وبالغ في التأكيد كي لا يقتله المنصور. وقد ذكرت أن ابن المقفع كان كاتباً لعيسىٰ بن علي، فكتب ابن المقفع الأمان وشدد فيه حتىٰ قال في جملة فصوله: (ومتىٰ غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله بن علي، فنساؤه طوالق، ودوابه حبس، وعبيده أحرار، والمسلمون في حل من بيعته).

وكان ابن المقفع يستوثق في الشروط فلما وقف عليه المنصور عظم ذلك عليه، وقال: من كتب هذا؟ فقالوا له: رجل يقال له عبد الله ابن المقفع يكتب لأعمامك. فكتب إلىٰ سفيان متولي البصرة المقدم ذكره يأمره بقتله، وكان سفيان شديد الحنق عليه للسبب الذي تقدم ذكره، فاستأذن ابن المقفع يوماً علىٰ سفيان، فأخر إذنه حتىٰ خرج من كان عنده، ثم أذن له فدخل، فعدل به إلىٰ حجرة فقتل فيها. وقال المدائني: لما دخل ابن المقفع علىٰ سفيان، قال له: أتذكر ما كنت تقول في أمي؟ فقال:

أنشدك الله أيها الأمير في نفسي. فقال: أمي مغتلمة إن لم أقتلك قتلة لم يقتل بها أحد. وأمر بتنور فسجر، ثم أمر بابن المقفع فقطعت أطرافه عضواً عضواً، وهو يلقيها في التنور، وهو ينظر، حتىٰ أتىٰ علىٰ جميع جسده، ثم أطبق عليه التنور، وقال: ليس علي في المثلة بك حرج لأنك زنديق وقد أفسدت الناس.

وسأل سليمان وعيسىٰ عنه فقيل: إنه دخل دار سفيان سليماً ولم يخرج منها، فخاصماه إلىٰ المنصور، وأحضراه إليه مقيدا، وحضر الشهود الذين شاهدوه وقد دخل داره ولم يخرج، فأقاموا الشهادة عند المنصور، فقال لهم المنصور: أنا أنظر في هذا الأمر. ثم قال لهم: أرأيتم إن قتلت سفيان به ثم خرج ابن المقفع من هذا البيت - وأشار إلىٰ باب خلفه - وخاطبكم ما تروني صانعاً بكم أأقتلكم بسفيان؟ فرجعوا كلهم عن الشهادة، وأضرب عيسىٰ وسليمان عن ذكره، وعلموا أن قتله كان برضا المنصور. ويقال: إنه عاش ستاً وثلاثين سنة.

وذكر الهيثم بن عدي أن ابن المقفع كان يستخف بسفيان كثيراً، وكان أنف سفيان كبيراً، فكان إذا دخل عليه قال: السلام عليكما، يعني نفسه وأنفه؛ وقال له يوماً: ما تقول في شخص مات وخلف زوجاً وزوجة يسخر به علىٰ رؤوس الناس، وقال سفيان يوماً: ما ندمت علىٰ سكوت قط، فقال له ابن المقفع: الخرس زين لك فكيف تندم عليه! وكان سفيان يقول: والله لأقطعنه إرباً إرباً وعينه تنظر، وعزم علىٰ أن يغتاله، فجاءه كتاب المنصور بقتله فقتله.

وقال البلاذري: لما قدم عيسىٰ بن علي البصرة في أمر أخيه عبد الله بن علي قال لابن المقفع: اذهب إلىٰ سفيان في أمر كذا وكذا، فقال: ابعث إليه غيري، فإني أخاف منه، فقال: اذهب فأنت في أماني، فذهب إليه ففعل به ما ذكرناه، وقيل: إنه ألقاه في بئر المخرج وردم عليه الحجارة، وقيل

أدخله حماماً وأغلق عليه بابه فاختنق.

قلت: ذكر صاحبنا شمس الدين أبو المظفر يوسف الواعظ سبط الشيخ جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي الواعظ المشهور في تاريخه الكبير الذي سماه «مرآة الزمان» أخبار ابن المقفع وما جرىٰ له وقتله في سنة خمس وأربعين ومائة، ومن عادته أن يذكر كل واقعة في السنة التي كانت فيها، فيدل علىٰ أن قتله كان في السنة المذكورة، وفي كلام عمر بن شبه في كتاب «أخبار البصرة» ما يدل علىٰ أن ذلك كان في سنة اثنتين وأربعين ومائة أو ثلاث وأربعين.

ولا خلاف في أن سليمان بن علي المقدم ذكره مات في سنة اثنتين وأربعين ومائة، وقد ذكرنا أنه قام مع أخيه عيسىٰ بن علي في طلب ثأر ابن المقفع، فيدل أيضا علىٰ أنه قتل في هذه السنة، والله أعلم.

وابن المقفع له شعر، وهو مذكور في كتاب (الحماسة) ... وكيفما كان، فإن تاريخ قتله لم يكن بعد سنة خمس وأربعين ومائة وإنما كان فيها أو فيما قبلها، وإذا كان كذلك، فكيف يتصور أن يجتمع بالحلاج والجنابي - كما ذكره إمام الحرمين رحمه الله تعالىٰ - ومن ها هنا حصل الغلط، وايضاً فإن ابن المقفع لم يفارق العراق، فكيف يقول: إنه توغل في بلاد الترك، وإنما كان مقيماً بالبصرة ويتردد في بلاد العراق، ولم تكن بغداد موجودة في زمنه، فإن المنصور أنشأها في مدة خلافته: فاختطها في سنة أربعين ومائة، واستتم بناءها ونزلها في سنة ست وأربعين، وفي سنة تسع وأربعين تم جميع بنائها، وهي بغداد القديمة التي كانت بالجانب الغربي علىٰ دجلة، وهي بين الفرات ودجلة ... والمقفع - بضم الميم وفتح القاف وتشديد الفاء وفتحها وبعدها عين مهملة - واسمه داوديه، وكان الحجاج بن يوسف الثقفي في أيام ولايته العراق وبلاد فارس قد ولاه خراج فارس فمد يده وأخذ الأموال، فعذبه فتقفعت يده فقيل له

المقفع، وقيل: بل ولاه خالد بن عبد الله القسري وعذبه يوسف بن عمر الثقفي لما تولىٰ العراق بعد خالد، والله أعلم أي ذلك كان.

ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج٢، ص١٥١.

الفهرس

كَلِيلَة ودِمْنَة كتاب يتضمّن مجموعة من القصص، ترجمَهُ عبد الله بن المقفع إلىٰ اللغة العربية في العصر العباسي وتحديدًا في القرن الثاني الهجري الموافق للقرن الثامن الميلادي وصاغه بأسلوبه الأدبي مُتصرفًا به عن الكتاب الأصلي الفصول الخمسة (بالسنسكريتية: پنچاتنترا). أجمع العديد من الباحثين علىٰ أن الكتاب يعود لأصول هندية، وكتب باللغة السنسكريتية في القرن الرابع الميلادي، ومن ثم تُرجم إلىٰ اللغة الفهلوية في أوائل القرن السادس الميلادي بأمر من كسرىٰ الأول. تذكر مقدمة الكتاب أن الحكيم الهندي «بيدبا» قد ألّفه لملك الهند «دبشليم»، وقد استخدم المؤلف الحيوانات والطيور كشخصيات رئيسية فيه، وهي ترمز في الأساس إلىٰ شخصيات بشرية وتتضمن القصص عدة مواضيع من أبرزها العلاقة بين الحاكم والمحكوم، بالإضافة إلىٰ عدد من الحِكم والمواعظ. حينما علم كسرىٰ فارس «أنوشيروان» بأمر الكتاب وما يحتويه من المواعظ، أمر الطبيب «برزويه» بالذهاب إلىٰ بلاد الهند ونسخ ما جاء في ذلك الكتاب ونقله إلىٰ الفهلوية الفارسية.

ISBN:978-9922-627-11-3
9 789922 627113

ashurbanipal_books
ashurbanipal.bookstore
darashurbanipal@gmail.com
+964 770 656 5807
+964 771 179 9598
آشور
بغداد - شارع المتنبي